

أنيس فتود

التايخ أنيا و أنلا

دار الشروق

التاييخ اتياب واطافرا

الطبعة الرابعة

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

الطبعة الخامسة

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعة السادسة

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

الطبعة السابعة

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد العتيم عام ١٩٦٨

القاهرة ٨٠ شارع سيدييہ المصري - رابطة المدوية - مدينة نصر
ص ب : ٢٣٣٩٩ - تليفون : ٤٠٧٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

أنليس فنلور

النارخ ائباب اظافا

دار الشروق —

ففي هذا الكتاب

صفحة

هذه الحيوانات آلهة مال عليها الزمان	٥
كالحيوانات يموتون كما يولدون في الظلام	١٥
علمته وتعلمنا هذه الحيوانات	٢٦
وراء جنكيز خان ربع مليون حصان	٣٩
خنازير كوليبوس ملأت العالم الجديد	٤٩
كل عصر له خرافات خاصة	٥٦
ذهب كل أرض تدوسها الأغنام	٦٥
أكاديمية لتعليم الانسان	٧٤
من يعرف الانسان كثيرا يحترم الحيوان أكثر	٨٥
هو يسقط والرئيس يطير	٩٦
لو نام الأرنب قليلا لأنركته السلحفاة	١٠٥
نظرية التطور رد لاعتبار الحيوان	١١٦
خلقها الله بعناية لتقضى علينا بانتقان	١٢٥
هذه الكائنات التافهة التي حطمت الجيوش	١٣٤
لا وفاء عند الناس والكلاب نظرية	١٤٣
عندما أعلن موسولينى حرب الأبقار ضد الأغنام	١٥٢
شجرة واحدة تكفى هزها وانت تعرف	١٦٣
قرود في كل مكان	١٧٢
من قاوب الامهات خرجت موسيقى الخنافس	١٩٣
القرود والسلسلة والقرداتى	٢٠٤
لولا سلامك .. سبق كلامك	٢١٥

لهذه الحيوانات آلة مال عليها الزمن!

هذا نوع آخر من التاريخ . انه مجموعة
عظم . اى أن الحيوانات التي كانت تعيش من
ملايين السنين قد ماتت في ظروف لا نعرفها .
وتركت بقاياها . وجاء العلم الحديث فجعل
العظام فحما . ثم درس الفحم وحلله وراح يعد
ذراته ليعرف كم واحدة من هذه الذرات قد
ماتت . . وعن طريق الذرات الباقية يعرف عمر
هذه الحيوانات .

ويمكن أن يقال أن التاريخ : كومة تراب وجدها أحد العلماء في أحد
الكهوف . ففى الكهوف جاء الانسان القديم وأمسك غصن شجرة
وغمسه فى الدم ثم رسم على الجدران صورا لهذه الحيوانات . .
وجاءت الأجهزة الحديثة واستخرجت من الدم شهادة ميلاد الانسان
وشهادة دفن هذه الحيوانات .

وجاء الانسان مرة أخرى وجمع التراب والعظم ونظم منها معانى
جديدة لكل ما حدث . . فالتاريخ عمل انشائى . . أو موضوع
انشاء . . ففيه الكثير من الكذب الجميل .

فالتاريخ هو دكان سمك .. أو حظيرة أبقار .. لأنه تاريخ
الحيوان على هذه الأرض .. ولكن هذا التاريخ لهذه
الحيوانات وبهذا المعنى ظلم لها جميعا . لأن الحيوانات قد
قاومت ملايين السنين . واكتسبت تجارب وتصلبت ضلوعها وأرجلها
وارتفعت أعناقها ونبت لها الريش والزعانف وقاومت قوى
الطبيعة . وقاومت الانسان .. واستطاعت أن تبقى أكثر تنوعا
وأكبر عددا وأطول عمرا .. وسوف تنتهى الحياة الانسانية على
هذه الأرض أو تنتقل الى كواكب أخرى . ولكن الحيوانات هى
التي سترث الأرض وما عليها .

فكل الحيوانات التي تعيش الآن وأضعف من الانسان كانت آلهة .
عبدها الانسان وتلمس بركتها . وأقام لها المعابد وأشعل من أجلها
الحروب .

وفي الكهوف والمعابد القديمة آثار باقية تدل على هذا التقديس
العظيم للكلاب والقطط والطيور والثعابين والحيوانات الاخرى .
فكان هذه الحيوانات كانت فوق ، على العين والرأس ، ثم أصبحت
تحت أحذية الانسان .. كانت آلهة فأصبحت عبيدا يسوتها ويذبحها .
أو يحبسها ويتفرج عليها .. ان كل هذه الحيوانات آلهة مال عليها
الزمن !

عبدها الانسان .. ثم طاردها . وقتلها . ثم طاردها وصادها .
وحاول أن يستأنسها . وتحقيق له ذلك ورباها ليزبحها ويأكلها . ثم
استخدم بعض هذه الحيوانات في جر العربات وجر عربات التواريخ
من قارة الى قارة ، ومن مرحلة الى مرحلة .. ففى السنة التى ولد
فيها الرسول عليه السلام هاجمت الفيلة الكعبة . وكان ذلك عاما
حاسبا .. وسمى عام الفيل ..

والمقائد هانيبال زحف الى أوروبا وأثار فيها الرعب وانسحبت
إليه كل قواتها لأنه استخدم الليل لأول مرة ..

والخيول دخلت مصر مع الهكسوس .. وبخول الخيول مصر
تغير وجه التاريخ .. وتغيرت معالم المعابد وجدرانها .

وحوانات أخرى غيرها اشتركت في ملحمة الحياة والصبر عليها
والصمود من أجل ما هو أفضل لها ولصغارها .

وتاريخ الانسان والحيوان هو ملحمة العذاب من أجل البقاء .
أنها معارك الصداقة والعداوة . معارك السيادة .. وكان من
الطبيعى أن يسود الانسان بعقله . وقد سجل ذلك كله فى أغانيه
وأعماله الفنية وفى أساطيره ..

والبداية قديمة جدا . فالحياة بدأت على هذه الأرض من ثلاثة آلاف
مليون سنة . وكان شكل الحياة بسيطا بدائيا . عبارة عن خلية
حية . هذه الخلية ظهرت فى الماء ، والحياة على الأرض كلها خرجت
من الماء . القرآن الكريم يقول : « وجعلنا من الماء كل شئ حى » .
فقد كانت الأرض ملتهبة أول الأمر . وأخذت تبرد فى ملايين السنين .
وتتكون من حولها السحب . ومن هذه السحب التى بها كل عناصر
الحياة : الهيدروجين والاكسجين وثنائى أوكسيد الكربون ومن
ورائها ومن حولها الاشعة فوق البنفسجية التى تفيض من الشمس
خرجت الحياة . أو كان « الجو » أو « البيئة » أو « الحضارة » التى
لابد أن تخرج منها الحياة . وخرجت وكان ذلك فى الماء .

ومضت ملايين أخرى من السنين عندهما انحسر الماء وأصبحت
هناك محيطات وشواطئ من الوحل . والوحل هو الماء والطين معا .
أو هو « الحل الوسط » بين البر والبحر ومضت ألوف السنين لتتعدد

الحياة ويكون لها شكل . وينقل هذه الكائنات من البحر الى البر .
وتعيش هنا وهناك . وما تزال في المحيطات كائنات غريبة عجيبة .
هذه الكائنات هي سلالات مسمرة من مئات ملايين السنين .

ونوجد بعض الآثار في شمال أمريكا وشمال أوربا تشير الى هذا
النوع من الحياة التي ظهرت في البحر وتسللت الى البر ثم عادت
الى البحر ..

وفي الصراع المستمر من أجل البقاء تدرعت بعض الكائنات البحرية
بالعظام والانياب حتى لا تقنى . وتطورت الأشكال العظمية وأنيابها
وازدادت مرونة . بل أننا نجد بعض الكائنات البحرية أصبح لها فك
أكثر مرونة . وأقدر على أن يمسك وأن يعض . وهذه خطوة هائلة
في تطور الكائنات البحرية .. أو الأسماك .. ولا تزال بعض
الأسماك محبوسة في أقفاصها العظمية . وهذه الأقفاص سجل
تاريخي لما كانت عليه هذه الحيوانات من مئات ملايين السنين .

وفي الوقت الذي ظهرت فيه الأسماك في البحر ، ظهرت الأعشاب
على الشاطئ .. والشجيرات والأشجار الكثيفة .. وانقلت
الأسماك من البحر الى الشاطئ . وليس هذا الانتقال قصيرا
كهذه العبارة . ولكنه طويل بملايين السنين . وأهم ما حدث : هو
أن هذه الحيوانات استطاعت أن تتنفس الهواء مباشرة — أى هواء
الجو وليس الموجود في الماء !

ومنذ ٣٠٠ مليون سنة حدث ارتفاع في درجة حرارة الأرض .
فذهبت المساحات الهائلة من الجليد . وحدث طوفان . غرقت الأرض .
وزحف البحر على الأرض . فكان كل شيء بحرا . وغرقت معظم
الغابات وتراكم بعضها فوق بعض . ومضت ألوف السنين . وانحسر
الماء الساخن . أو الماء الذي يغلى . والذي جف . واحترق كل شيء

على الأرض . وتحولت الأشجار المحترقة الى فحم . . الى مناجم الفحم التى تستخدمها الحضارة الصناعية وقودا منذ مائتى عام . .

ولم تنعدم الحياة على الأرض . . بل كانت هذه الحياة قد اكتسبت تجارب جديدة ، واتخذت لها اشكالا متنوعة . وتعلمت الحشرات أن تطير من الأرض الى الشجر . ومن الشجر الى الشجر . بعض الأسماك كانت تطير أيضا . ولا يزال بعضها يرتفع من الماء الى الشاطئ . أو من البحر الى النهر . أو من النهر الى البحر . . وبعضها له زعانف كالأجنحة تماما . . أو هى أجنحة .

واجتهد العلماء فى تفسير ما حدث لهذه الحيوانات ، ذهابا وإيابا من البر الى البحر .

ففى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وعلى أيام نابليون تصور العلماء أن تطور الحياة يشبه التطورات السياسية . ففى أيام نابليون كانت عروش تقام وعروش تنهار . وحدود يحوها الانسان، وحدود جديدة يضيفها الانسان . . وتصور العلماء أن الحياة كانت على شكل ما ثم حدث ما غير هذا الشكل بعنف . . ومعنى ذلك أن تطور الحياة ، كالتطورات السياسية ، هزات عنيفة وانتكاسات وثورات . فتاريخ الحياة ينتقل من عنف الى عنف .

وظهرت نظرية تقول ان الزواحف أطول عمرا . لان الزواحف تخرج من الماء الى البر . وتعود الى الماء . وان هذه المرونة واتساع مجال الحركة والحياة قد أعطاها فرصا أكبر للبقاء لانها تضع بيضها على الشاطئ بعيدا عن الزواحف أو الأسماك المفترسة .

ويظل البيض على الشاطئ أو في الطين حتى تخرج الصغار من البيضة . وإذا كان البيض يحى الصغار حتى تخرج ، فبعد خروجها تفتر هذه الحيوانات الصغيرة الى الحماية مرة أخرى . من مشاكل التماسيح الآن في بحيرات أواسط إفريقيا أنها تضع بيضها على الشاطئ وعندما تخرج التماسيح الصغيرة من البيض تعاجلها القردة بقتلها . . أو أن القردة تحطم البيض قبل أن يفقس . . ولذلك فالقردة خطر على هذه التماسيح !

وظهرت حيوانات ضخمة . هذه الحيوانات الضخمة كانت قادرة على أن تقاوم الحيوانات الصغيرة . ولكن هذه الحيوانات قضت على نفسها أيضا . فضخامة حجمها جعلتها أثقل حركة . وجعلتها أقل مرونة . وجعلتها إذا وقعت لا تقوم . وإذا قامت تنحشر بين الأشجار أو بين الجبال ، وتظل كذلك حتى تموت . . فالعلم الحديث كشف لنا عن عدد من فصائل الديناصور الهائل قد حبسها أحد الوديان حتى ماتت . . مع أن أصغر حيوان يستطيع أن يتسلق الأحجار وأن يصعد الجبل ومنه الى الوادي أو الكهف يستأنف حياته من جديد . فضخامة الأجسام آفة هذه الحيوانات . . فالكبير عاجز عن الشيء الصغير الذي ينقذه من الموت أو من الفناء ! وقد فنيت هذه الكائنات الكبيرة ، لأنها كبيرة . والفيل والنمر خير دليل على ذلك . الفيل أكبر وأقوى . ولكنه أقل حركة . ولذلك كان « مجال الحيوى » ضيقا . . أى المساحة التى يستطيع أن يتحرك فيها اضيق من المساحة التى يتحرك فيها النمر ، فانقرضت فيلة كثيرة جدا ، وبقيت نمور أكثر . . فالقوة ليست العضلات ، ولكنها القدرة على مواجهة المشاكل والإفلات منها ، بالدوران حولها أو عدم التعرض لها ، أو بالقضاء عليها — أنظر الى حياتك وتذكر مواقف معينة ثم تسأل كيف هزمتك أو كيف تهزتها ؟ مع فارق واحد : أن لديك عقلا ، ولدى

الحيوانات مخالب وأنياب . وأنها بأنيابها وأظلالها وأظافرهما نقشت
تاريخها على أنقاضها وأنقاضنا . وبقيت وبقينا ولكننا انحدر
وأفضل !

ولابد من لفت نظر هنا والان وبسرعة :

حتى لا نتصور أن الحياة أخرجت نفسها من الماء الى الأرض ،
وزحف وطارت وقامت وتقاومت من تلقاء نفسها ، يجب الان ننسى أن
هناك « ارادة عاقلة » .. أن هناك « حكمة واعية » أو « عقلا
كونيا » يعنى : الله ..

فنحن لا نقول مثلا ان فندق شيراتون عبارة عن مجموعة من قوالب
الطوب .. أو مجموعة من الألواح الزجاجية أو الخشبية .. مع أن
هذا الفندق مجموعة قوالب والواح وأسلاك . ولكن الفندق ليس
كومة من المواد المختلفة . وإنما هو شكل هندسى معمارى . هذا
الشكل هو مجموعة قوانين ونظريات فى العمارة والكهرباء والميكانيكا
والاقتصاد والسياسة أيضا . أنه صورة عقلية . صورة حكمة .
أى أن هناك عقلا أو أكثر من عقل جعل الطوب غربا والألواح نوافذ
والأسلاك كهرباء وتليفونات وتلفونات .. ثم هناك قواعد وقوانين
تربط بين الموظفين والزبائن .. والذى يحدث فى فندق حدث فى الوف
الملايين من الكائنات عندما تحولت من خلايا الى كائنات حية .. الى
كائنات متطورة .. الى زحف عنيف نحو الحياة والبقاء رغم كل
الظروف الطبيعية والانسانية المضادة ..

هناك — اذن — حكمة الحياة .. التى هى ارادة هذا الكون ..

ارادة الله . التى لا نعرف منها الا القليل . لان وسائل المعرفة صغيرة فوسيلتنا هى العقل . والعقل ما يزال عاجزا عن الكثير جدا (ألف مرة جدا) مما فى هذا الكون .. مما فى هذه الأرض .. أو مما فى هذا الجسم الانسانى أو الحيوانى .. أو فى هذه الخلية الحية فى حيوان أو انسان أو نبات ! — انتهى لغت النظر !

والنقوش فى الكهوف تصور الحيوانات على جدرانها . الحيوانات تجرى . بعض هذه الحيوانات تنزف دما . اذن لقد صورها الانسان وهو يطاردها . لانه أقوى منها . وهو يصورها دامية استعراضا لقوته . فالدم اذا تزف يدل على انه قتلها . وانه لا يخافها . وانما يغريه ذلك بأن يكرر ذلك مرة وألف مرة . ونحن لا نعرف بالضبط أن كان الانسان قد استأنس الحيوانات أولا ، ثم أكلها، أو انه أكلها قبل أن يستأنسها . على كل حال بعض النقوش تصور لنا هذه الحيوانات هادئة ساكنة ، كأنها رضيت بحكم انسان عليها . وحكمه عليها أنه حبسها وأذلها أو ذللها حتى أصبحت ذليلة .. مثل كلبه تماما . والانسان كان يستخدم الكلب فى الصيد . ومعنى هذا انه استأنس الكلب ثم أطلقه على الحيوانات . فالكلب هو أول حيوان استأنسه الانسان . وعندما عرف الانسان كيف يستأنس هذه الحيوانات ، عرف أيضا أن يبنى الأسوار لتحمى الحيوانات ورائها . وكانت الأسوار من الأثجار ثم من الأحجار وعرف الحبال التى يمسك بها الحيوانات .. ولابد أن تلتف الحبال حول أرجل لو أعناق الحيوانات .

ولا يمكن أن تلتف الحبال دون أن يعرف الانسان كيف يصنع من الحبل « عقدة » . وعندما اهتمدى الانسان الى « العقدة » كان قد

اكتشف شيئا عظيما جدا . فهذه العقدة كانت رابطة للخيوط والانسجة والحبال . وقد تبدو العقدة عملا تافها . وهى بالفعل كذلك الآن . ولكن من مئات الالوف من السنين كانت اكتشافا لا يقل عن اختزان الكهرباء فى البطاريات الجافة فى السيارات والبطاريات والراديوهات وسفن الفضاء !

وتدل الآثار التى عثر عليها العلماء فى البرازيل أن الهنود الحمر كانوا يجلسون الخزائير دون أن يعرفوا انها طعام يمكنهم أن يعيشوا عليه . . كل انسان كان « يقتنى » بعض الحيوانات لا لانها طعام ، ولكن لانها جميلة الشكل فقط . أى أن الانسان كان يصيد الغزال والماعز والحصان لان لها شكلا جميلا . ومعنى ذلك أن الانسان كان نمنا محبا للجمال . وهذا الحب للجمال معناه أن لديه ما يأكله ، وأن لديه ما يفرج عليه . . والانسان لا يستطيع أن يحقق الفائدة المادية واللذة الجمالية الا من طريق القوة . . قوة الصيد وقدرته على حماية ما يصيده . . فاحتفاظه بهذه الحيوانات قليل على اقتداره ودليل على ذوقه .

وفى سنة ١٨٧٩ عثر الأب برويل فى أسبانيا على نقوش فى كهوف . هذه النقوش هى القوة والجمال . فالحيوانات منطلقة بسرعة هائلة . والانسان قد سجل هذه الحركة . فهو اقتناها وراقب حركتها . وتمتع بذلك . ثم انتقل من مجرد الاعجاب الى تسجيل ذلك . وجاءت ابنة هذا العالم ، وبالصدف ، فدخلت أحد الكهوف وراحت تصرخ بالاسبانية : توروس . . توروس . . أى ثيران . ولم يكن الذى رآه ثيرانا فقط وانما كانت هناك خيول أيضا . ألوانها حية قوية جميلة . وكانت هذه الخيول والثيران تعيش على حدود أسبانيا وفرنسا من عشرين ألف سنة .

وبعد ١٦ سنة عثر العلماء فى أنحاء متفرقة من الكرة الأرضية على نقوش مماثلة تسجل ما جرى فى العالم فى نفس الوقت .

ولابد أن فكرة « رأس المال » قد ظهرت في هذا الوقت . لأن كلمة « رأس » هذه قد جاءت من رؤوس الغزلان والأبقار والخيول . فالذى يملك عددا كبيرا منها هو الأغنى وهو الأقوى وهو القادر على صيدها والاحتفاظ بها وحمايتها وإطعامها والتباهى بها . فهذه الحيوانات ثروة وقوة . ولا يزال رأس المال قوة . ولا تزال بعض القبائل البدائية ترى في كثرة الحيوانات مصدرا للقوة والسلطة . ولا يزال « المهر » هو عددا من الأغنام أو الأبقار . أن قطعيا منها هو استعراض واضح بارز متحرك للثروة الأب وأهمية العروسين عند الأهل أو القبيلة ..

وبعد ذلك عرف الإنسان أن الحيوانات ليست إلا طعاما مدخرا .. طعاما يمشى على أربع .. والحيوان ليس إلا حارسا للحمة حتى يجيء الإنسان فيقرر أن يذبحه ليأكله أو يذبحه ليبيع لحمة . أو يبيعه لغيره من الناس ..

والقصة طويلة ومتنوعة ومثيرة ومسلية وفيها الكثير من الاشارات والتلميحات الى الإنسان نفسه كما سنرى .

وإذا كانت الحيوانات يقتل بعضها البعض جوعا ، أى من أجل الطعام والبقاء بعد ذلك : فإن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يقتل الحيوان أو الإنسان الآخر لأسباب أخرى غير الجوع . وقد حاول الإنسان أن يقتل نفسه بالعنول عن القتل . ولكن هذه المحاولات لم تنجح بعد — مع أن حيوانات كثيرة قد عدلت عن ذلك من وقت طويل !



كالحوانات يموتون كما يولدون في الظلام!

الانسان حاول ان يفسر كل شيء حوله تفسيراً
انسانياً . فهو ينظر الى سلوك الحيوانات كما
ينظر الى سلوكه هو . فالحيوانات تخاف
وتغضب . وتعيش حياة اجتماعية ولكل جماعة
زعيم . وزعيم القطيع هو الذى يقودها يمينا
وشمالا ..

واذا مات رأس القطيع ارتبكت الجماعة حتى
تجد لها رأساً جديداً . والانسان قتل الحيوانات
لياكلها او خوفاً منها . ولذلك خاف الانسان من
هذه الحيوانات ان تنتقم من الانسان .

وهذا الخوف من الانتقام هو الذى جعله يكف عن قتلها بالالوف .
فالخوف من الانتقام يمكن أن يكون بداية ظهور فكرة الضمير عند
الانسان . فالضهير يقول له : لا تفعل كذا حتى لا تصاب بكذا .

ولذلك وجدنا الانسان من مئات الالوف من السنين يعلن ان

بعض الحيوانات يجب ألا يمسها بسوء .. أو لا يمسها . فهي شيء ممنوع لمسه . فالبس بمناسبة . ثم أن الانسان اتخذ من بعض الحيوانات رمزا له . أو علامة مقدسة . أو شيئا مقدسا يلبس عنده البركة والوقاية من الحيوانات الاخرى ومن أهوانه من البشر .

وكثيرا ما أصيب الانسان بكل كوارث الدنيا ، ولكنه رغم ذلك لم يكتف بهذه الحيوانات المقدسة . تهما كالجندى الذى يحارب تحت العلم . ورغم ما أصابه من هزيمة فانه لا يمزق العلم . وانما يظل ممسكا به ايمانا منه بأن العلم هو شرفه وهو كرامته .. وانه لابد أن ينصر مرة أخرى !

وظهرت عند الانسان فكرة أخرى تقول : انه بعد أن يموت فسوف يتحول الى حيوان .. أو ينتقل من جلده الانسانى الى جلود مئات الحيوانات . ويعتبر انتقاله الى أجسام الحيوانات الاخرى نوعا من الانتقام منه .. فحتى لا يكون حيوانا بعد وفاته ، فمن الأفضل ألا يؤذى الحيوان بقتله أو أكله !

وربما كانت هذه الفكرة هى النى أنت فيما بعد الى أن يقال أن الانسان أصله حيوان .. وانه ينتقل من الحيوانية الى الانسانية ومنها الى الحيوانية مرة أخرى — وهذه هى « الدائرة الحيوانية » التى يتحرك فيها الانسان حيا وميتا .

وعند الفراعنة كانوا يرون أن الانسان يتحول الى حيوان بعد موته . وبعد أن يبقى حيوانا ثلاثة آلاف سنة يعود انسانا مرة أخرى . وبعد فترة قصيرة يعود من الانسانية الى الحيوانية من جديد .. والمصريون القدماء يرون أن كل شيء ثابت الا الانسان ..

فالفيل له مواعيد للفيضان ، والشمس تشرق وتغرب .. والقمر يصغر ويكبر .. كل ذلك في مواعيد ثابتة .. الا الانسان فان حياته متغيرة متبدلة .. وهذا التبدل أهم مظهره : أن ينتقل الانسان من جسم الانسان الى جسم الحيوان . وهذا الانتقال بالروح . فهذه أولى نظريات تناسخ الأرواح . وهذه النظرية قد انتشرت لأسباب غير واضحة لنا الآن ، في الشرق والغرب . وفي القرن السادس قبل الميلاد . ممثلاً عند الفيلسوف اليوناني فيثاغورس ، وعند تلامذته من بعده . وعند الراهب الكبير بوذا في الهند والصين . ولكن بوذا كان حريصاً أن يؤكد لتلامذته أن كلامه عن الحيوانات ليس إلا رمزا . وانه استخدم الحيوانات في نصائحه لتجسيد أفكاره وجعلها واضحة عند أقل الناس قدرة على الفهم . ولكن تلاميذه أخذوا نصائحه حرفياً ..

يقول بوذا .. ايها الرهبان هناك اناس كالحيوانات . او حيوانات يعيشون على الاعشاب . ايها الرهبان انها الخيول والاغنام والابقار والحمير وكل من يحب الطعام يرى أن الحياة هي الطعام ومن أجل الطعام هو هذه الحيوانات . وإذا قدر له أن يعيش بعد الموت فانه سيكون حيواناً مرة أخرى .. ايها الرهبان هناك حيوانات تأكل الزبالة مثل الكلاب والكتاكيت والخنازير . ان الزبالة تنعشها وتهبها الحياة . ولو ماتت لتمت أن تعود الى الزبالة .. ايها الرهبان ان هناك اناساً هكذا . انهمونى . ايها الرهبان : أن هناك حيوانات ولدت في الظلام وسوف تموت في الظلام . النور يوجعها ويضلها ويفزعها . ان هذه الكائنات هي البراغيث والصراصير والخفافيش واليوم .. ان هناك حيوانات ولدت في الماء وماتت فيه كالاسماك والسلاحف والتماسيح .. ان الاشرار، ايها الرهبان ، هم الذين بعد موتهم يفضلون الحياة الدنيا انهم .. مشدودون اليها . انهم عاجزون عن الانسلاخ عن الجسد عن المادة عن الشهوة .. انهم حيوانات « .

ولم يفهم تلامذته مئات السنين أن المقصود ليس الحيوان ، وانما الحياة الحيوانية ..

وعند الاغريق وجدنا الالهة يعاقبون الانسان بأن يمسخوه حيوانا . أو أنهم يقومون بتهريب الانسان في صورة حيوان .. ومن السهل جدا أن يتحول الانسان الى حيوان ثم يعود الى انسانيته . والاغريق عباقرة في حكاية هذه الخرافات . وفلسفتها وتعميقها . والشاعر أوفيد في كتابه « التحولات أو مسخ الكائنات » من ترجمة د. ثروت عكاشة يقدم لنا روائع القصص والمغامرات وكثرا من المعاني الرائعة . ولكن الاغريق يرون أن الانسان هو اسمى الكائنات . بل أنهم يرون أن الانسان أعظم من الالهة وقادر على أن يتغلب عليهم بل أن الالهة تحقق على الانسان وبعض الالهة يتمنى ان يكون انسانا ولكنه لا يستطيع .. ولذلك فالاله اذا اراد ان يتفوق على الانسان كان من الضروري أن يمسخ نفسه انسانا .. فاذا فعل تغلب عليه الانسان . ولذلك فان الالهة تتكاتف معا ضد الانسان القادر على التمرد على كل الالهة !

والعالم الكبير فريزر يقول : لابد أن الخنزير كان حيوانا مقدسا عند اليهود من الوف السنين . فاليهود يحرمون أكل الخنزير ويحرمون أكل الجمل . ويرون أن الجمل مصدر لكثير من الامراض . ولكن السبب الحقيقي أن الخنزير لا يناسب الحياة التي يعيشها البدو في المناطق الحارة . فهو بطيء الحركة . وهو في حاجة الى كثير من الطعام ، وغير قادر على أن يتحمل الجوع مكرهه ووجدوه عبئا ثقيلا عليهم . وقد أثبت العلم الحديث أن لحم الخنزير هو مصدر متاعب المعدة والامعاء . وتحريم لحمه صحى أيضا (وفي التوراة نجد وصفات علاجية من طريق لحم الطيور . فقد وصف الانبياء

اليهود لحم الطيور علاجا للمصابين بكثير من الامراض الجلدية التي استعصى شفاؤها .

شيء عجيب حقا أن يتقدم الفراعنة في كل مجالات المعرفة وان يسبقوا زمانهم ، وانهم لا يزالون اسبق شسوعوب العالم في الفلك والتحنيط ، ومع ذلك يقدسون الحيوانات !

والحيوانات التي يقدسونها كثيرة . وهذا يجعلنا نعتقد أن الفراعنة كانوا نباتيين . فهم يقدسون الابقار . والعجل آبيس (بالالف المحدودة والباء الثقيلة) قد عثر عليه العالم الاثرى مارييت في سقارة . وهذا العجل موجود بطول وعرض الحضارة المصرية . وتمثيله واضحة وهو يحمل قرص الشمس بين قرنيه . وكانت تقام له الحفلات . وتقام له الجنازات اذا مات . وبعد وفاته مباشرة ينطلق الكهنة بين قطعان الماشية يبحثون عن معبود له علامة خاصة في راسه او عنقه او جسده — فاذا وجدوه اقاموا الحفلات وتوجوا المعبود الجديد . واستراح الناس لانهم عثروا على رب لهم ، أو حارس لهم يحميهم من الحيوانات الأخرى . . ولذلك قدموا له طعاما خاصا وحريرا من الاناث !

والفراعنة عبدوا الطائر « آبيس » — بالالف المكسورة والباء الخفيفة — وهذا الطائر شبيه بابو تردان ولكنه ليس هو . ويقال انه الطائر أبو منجل . . ويقال أن هذا الطائر قد انقرض ولم يعد احد يراه الا في أمالي النيل وفي المتحف المصري . انه بنى العنق والذيل متوسط الحجم .

والتمساح الذى وصفه هيرودوت بأنه يملأ النيل . وان سكان العاصمة المصرية لا يعرفون طعم النوم بسبب بكاء التماسيح . وقد ظل العالم كله يتصور أن التمساح يملأ النيل حتى ان زعيمها عالميا كبيرا سال الرئيس عبد الناصر ان كانت التماسيح ما تزال فى مياه النيل عند القاهرة ؟ !

ولم يكن حيوانا مقدسا عند كل المصريين . فالناس فى «اسوان» كانوا لا يكونون له احتراما كافيا . كانوا يأكلونه . وقد جاء فى إحدى الاغنيات المصرية القديمة أن واحدا يقول ما معناه : أقوم من النوم أقول يارب عدلها ، بلد حبيبي قصاد عيني ومش قادر أعدى لها . . وكان المصرى القديم يقول : بلد حبيبتى أمام عيني ولكن لا أستطيع أن اذهب الى حبيبتى . ان التماسيح فى الماء ولكن حبيى جعل التماسيح ضفادع . . ثم جعل الضفادع فقاقيع فى الماء . ولا بد أن اذهب الى حبيبتى » .

وكان المصرى القديم أشجع واصدق واكثر استعدادا للتضحية . أما المصرى الجديد فهو قد افتعل صعوبة العبور الى حبيبتة ليشكو . فهو قادر على أن يذهب الى حبيبتة — ان كانت حبيبتة — فلا مشاكل فى المواصلات ولا تماسيح فى النيل . .

وفى « كتاب الموتى » الفرعونى اجد كلاما كثيرا عن « القط » الذى يمزق الامعاء تحت الاشجار المقدسة . ومن الغريب اننا لا نجد رسوما كثيرة للقط فى المصاطب القديمة . وربما كان اول ذكر للقط قد جاء قبل الميلاد بعشرين قرنا عندما عرفنا أن زوجة أحد رجال بلاط الملك منحوتب الاول اسمها « بوسى » . وان هذا القط جاء الى

مصر من الغرب ومن الجنوب . وهناك رسومات كاريكاتورية تبين الفنان المصرى وهو يتسلى أو هو يحاول أن يجد الموعظة الاخلاقية . فهناك صور لجثث من الفئران تهاجم قطا محاصرا فى قلعة . وهناك غار عملاق امام قط مربوط بأثقال !

أما الكلب فهو من اخلص الحيوانات للانسان ، ولذلك استحق منه عظيم الاحتقار . وقد جاء خطاب بعث به موظف مصرى قديم يعيش على اطراف الوادى : انه لا يكاد يفتح باب بيته حتى يتقدم له ٢٠٠ قط و ٣٠٠ كلب متوحش و ١٠٠ ذئب . كلها تقف امام بابه ، فلا هو قادر على أن يخرج ولا هو قادر على أن يربى ماشيته ولا على أن يأكل .. أما النوم فهذه مشكلة المشاكل :

والحمار امريقى الأصل . وهو لا يزال فى مصر كما كان من آلاف السنين . والحمار كالكلب استحق احتقار الانسان ايضا . وأول مرة رأينا فيها رسما لحمار كان هكذا : حماران احدهما يمشى وراء الآخر وامام الاثنين جحش صغير . وقد رأينا كرسيا على ظهر الحمار الاول . ولم يشأ الرسام أن يبين لنا ما الذى يحمله الحمار الآخر .. ولكن لابد انه يحمل شيئا مماثلا .

ويقال ان المصريين وصفوا أحد ملوك فارس بأنه : ملك حمار . فما كان من الملك الفارسى ارتكسركس الثالث الا أن أقام احتفالا للعجل أبيس ، ووضع حمارا بدلا من هذا العجل وغضب المصريون وثاروا ! !

ويقال ان المصريين القدماء كادوا يحرقون مدينة الاسكندرية ذات

الطابع الاغريقى والى تقام فيها تباثيل ادوليس وامروديت ، لأن
احد الرومان قد قتل قطا !

اما الحصان فالمصريون قد عرفوه أيام الاسرة الثامنة عشرة .
ويقال ان الحصان قد أتى به الهكسوس — وهم ملوك الرعاة .
ولكن ليست هذه حقيقة مؤكدة . فمن المعروف أن الحصان قد
استخدمه البابليون قبل ذلك بوقت طويل . وعندما دخل الهكسوس
الى مصر ، كان الحصان قد سبقهم اليها . ولا يزال الحصان يحتفظ
بالاسم العربى القديم : سوسيم — أى خيول . والعربات اسمها :
مركبوت .

اما الجمل فلم يدخل مصر الا فى عهد الرومان ..

والمصريون قد عرفوا الخيول التى تجر العربات قبل أن يعرفوا
ركوب الخيول نفسها . وفى متحف اللوفر لوحة مشهورة اسمها
لوحة النسور . ففى هذه اللوحة بعض النسور تحوم حول جثث
القتلى بينما نجد احد ملوك سومر يركب عربة يجرها حصان .
وكان ذلك قبل الميلاد بعشرين قرنا أى على أيام هامورابى ..

والخيول حيوانات مفضلة عند الاغريق . فهم يرون أن الحصان:
حيوان نبيل جميل . وان الحصان لابد ان يكون الالهة قد صنعوه
بأيديهم مباشرة . أى انهم لم يكلفوا احدا من صغار الالهة بصنعه ..
وكان الاغريق يفضلون الحصان لأن فيه تهردا أى نزوعا الى
الحرية . فهو جميل نبيل حر . وكلما كان الحصان شرسا ، كان ذلك
مجالا وتحديا للانسان ان يستأنسه فإذا فعل فهو بطل . الاسكندر

الكبر مثلا كان له حصانه المشهور بوسيفالس . ولم يكن أحد يقدر على ركوبه . ولكن الاسكندر استطاع عندها اتجه بحصانه ناحية الشمس . والشمس هى التى جعلت الحصان أقل انطلاقا . ولم يكن هناك شيء أعز عند الاسكندر من هذا الحيوان الجميل . فلما مات حصانه اقام له المدن باسمه . واثام مخينة فى نفس المكان الذى دفن فيه رمزا للوفاء . فقد حمله هذا الحصان حتى الهند !

وانخذ الشعراء والمفنانون الكثير من الحيوانات مادة لامعمالهم الفنية . فهم يختارون للحيوانات أدوارا فى الحياة الاجتماعية والسياسية للانسان . ويجعلون للحيوانات حياة تنقذ حياة الانسان . والمؤلف المسرحى العظيم اريستوفانيس له مسرحيات : الغربان والضفادع والطيور . . وقد استخدم هذه الحيوانات للسخرية من الانسان . وقد فعل ذلك كثيرون من الادباء فى كل العصور .

والكاتب اليونانى سيمونيدس عندما يتحدث عن أصل المرأة يقول ان هناك اربعة انواع من النساء : نوع جميل نبيل انحدر من الخيول . والثانى هو الذى لا يكف عن العمل ، ولا بد انه انحدر من النحل . والنوع الثالث هو الذى يدفن نفسه فى الانجاب وهو الذى انحدر من بذور القمح . والنوع الرابع القذر الدنىء ولا بد أن يكون قد انحدر من كلبة — ولا تزال كلمة « كلبة » فى اللغة الانجليزية أخط انواع الشتائم .

وهناك الفنان اليونانى الشهير ايسوب . كان عبدا واطلق سراحه . وظل يرتقى حتى أصبح سفيرا . وقد روى قصص الحيوانات ونواحرها وهو لا يرفع عينه عن الانسان وسفالاته وانهلاله الخلقى .

ويقال ان ايسوب هذا قد هاجم رجال الدين . ودبر له رجال الدين
مكيدة . فعندما زار معبد الفن املح رجال الدين ان يضعوا كوبا
من الذهب في ملابسه . ثم ضبطوه وحوكم . وتقرر اعدامه قنفا من
احدى الصخور ، فمات فريقا !

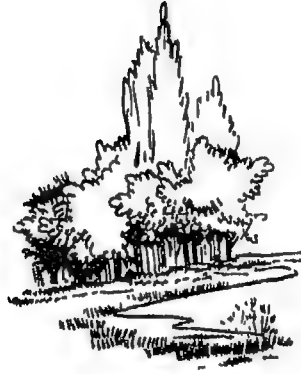
— وظل الانسان الوف السنين ينظر الى الحيوانات على انها كائنات
ناقصة التكوين ترى ولا تعرف كيف تعبر . أو اذا عبرت كان ذلك
في صمت . وراح الانسان يفسر سلوك هذه الحيوانات كما يفسر
سلوكه هو . ولكن رجلا عبقريا فذا اسمه أرسطو هو الذى أرسى
قواعد علوم باكلها بعقله الجبار . فهو بدأ ينظر الى الحيوانات
ويلاحظ سلوكها . ويقارن بين بعضها البعض . . فهو الذى أدرك
أن حيوانات لها دم وحيوانات لا دم لها . . حيوانات لها فقرات
وحيوانات بلا فقرات . . حيوانات تلد وحيوانات تبيض . . وهو
أول من أشار الى أن هناك ملاقة بين بيض الحجاجة وبين الديك .
وهذا يكتفيه جدا ان يقول ذلك منذ ٢٥ قرنا . وقد احصى ارسطو في
كتابه « التاريخ الطبيعى » حوالى ٥٠٠ حيوان .

ويقال أن الاسكندر الاكبر هو الذى كان يبعث اليه بالحيوانات
والنباتات العجيبة من كل مكان يذهب اليه . ولكن هذه الحيوانات
مهما بلغ عددها لم تكن سببا كافيا لان يهتدى ارسطو الى هذه الحقائق
الحيوية . لقد اخطأ ارسطو كثيرا فى الاستنتاج . ولكن هذه اخطاء
تعتبر تافهة اذا تورنت باكتشافاته العظيمة فى علوم الحياة ووظائف
الاعضاء . لقد اخطأ فى عدد الاسنان وعدد الضلوع وعدد الفقرات
. . ولكن اشاراته الى الحياة فى بطن الأم ، هى الخطوات الاولى
الباهرة فى العلم الذى سوف يظهر بعد ذلك باسم « علم الاجنة » .

وعندما سئل ارسطو في احدى المرات : ما الذى تفعله بالضبط
مع هذه الحيوانات والنباتات ؟

قال : لا شيء . انتى فقط اعلمها كيف تنطق باللغة اليونانية لعلى
افهم شيئا مما تقول . ولكنها مع ذلك لا تقول كثيرا !

سوف تقول اكثر فيما بعد !



علمته • تعلمنا ! هذه الحيوانات !

ثلاث مراحل مرت بها الانسانية ..

مرحلة : اكلنا الرغيف وتفرقنا !

اى كل ما كان يجمع بيننا هو لقمة العيش .

ومرحلة : اتنى اعرف جانب الرغيف الذى

اضع عليه الزبدة .

فهنالك أكثر من الرغيف .. ثم ان للرغيف

جانبين ، وانا لا أكل الزبدة لأتنى وجنتها . ولكنى

استطعم الزبدة وأختار لها المكان المناسب .

ثم ان عندى متسعاً من الوقت !

ثم مرحلة : كل ما أطلبه من هذه الدنيا هو الرغيف والفرغشة !

اى أكل رغيفى وأبسط نفسى بالضحك واللعب والحب . وبعد

ذلك لا شيء . ويجب الا يكون هناك اى شيء آخر .

الأديب الرومانى القديم الساخر جوفينال قال : ما الذى يريده هؤلاء .. العمال .. لا شيء الا الرغيف والذهاب الى السيرك !

ولم يكن جوفينال يحترم العمال وانما يحترهم . فهو يرى أن الذى يعمل بيديه لا رأس له . فقط يأكل ويحب . ولا تقيم أخلاقية ولا دينية ولا مثل عليا ولا طموح !

ولكن جوفينال من ١٩ قرنا كان ظالما . هؤلاء العمال كانوا يطلبون الخبز ، لأنهم لو طلبوا شيئا آخر ما وجدوه ، لو طلبوا اللحم مثلا ، فمن أين يشترونه لو وجدوه فى الأسواق . فلم تكن الحيوانات متوافرة فى ذلك الوقت . لأن اللحوم ما تزال طعام القادرين . أما الفقراء فليس لهم الا الخبز والضحك على الأغنياء والسخرية من فقرهم — ولا تزال هذه مشكلة مئات الملايين فى العالم .



وما حدث فى الحرب العالمية الثانية دليل جدا على ذلك . ففى اثناء هذه الحرب ماذا جرى ؟ الجنود وحدهم هم الذين يجدون اللحم . وطبيعى ألا يبخل أحد عليهم بذلك . فقد ذهبوا يقدمون أرواحهم من أجل الآخرين .. ثم ان عمال مصانع الفخيرة ارتفعت أجورهم وأصبحوا قادرين على شراء الرفيف واللحم ومع ذلك فان أمريكا نفسها قد وزعت اللحوم بالبطاقات !

فكانت اللحوم نوما من الترف . لأن الأرض لا تستطيع أن تطعم كل الحيوانات . والحيوانات لا تستطيع أن تشبع كل الناس . والأغنياء فى الدنيا يملأون موائدهم بلحوم الحيوانات

والطيور والأسماك ، والفقراء يلتقطون فئات الخبز . ومع بداية حرب الطبقات في التاريخ ، اتخذت الحرب شكل الصراع بين الخبز واللحم .

فى المدن الاغريقية القديمة ، كان لابد أن يجد الأغنياء وسيلة للحصول على اللحوم ، فزرعوا المراعى .. أو تركوا الحيوانات تأكل الأعشاب والغلل والأشجار ، ولم نجد فى الأدب الاغريقى القديم حديثا كثيرا عن الحيوانات ولحومها وطعامها وطعامهم .

ولكن عند الرومان نجد هذا التخصص فى الاستمتاع بالطعام ونقرأ نثرا وشعرا عن الخبز والخبلات واللحم .

(ومن المناسب هنا أن انبه الى أننا الآن نتعلق من ذيل بقرة أو جاموسة أو كلب ونمشى معه أو وراءه فى تاريخ الانسان .. فأنا وأنت معا نقرأ « بصمات » الحيوانات على عقل وقلب ومعدة ملايين الناس فى ألوف السنين — انتهى التنبيه الذى أضأته حتى لا تنسى ولا أنسى أنا أيضا عن أى شئ نتكلم منذ أسبوعين وفى الأسابيع التالية .

وهذا يذكرنى بما قاله داروين عندما وجدوه يجمع الإصداق وجذور النباتات وجهاجم الحيوانات فقال : لا شئ سوى أننى أقفز من شجرة الى شجرة وراء قرد فيه شبه كبير جدا بالانسان) ! ..

نعود الى صورة غريبة لرجل عظيم مات منذ أكثر من عشرين قرنا . هذا الرجل اسمه « لوكولوس » . هذا الاسم يتردد فى كتب كثيرة فى التاريخ . وفى تاريخ المعارك كان قائدا عظيما .

ذهب بقواته الى أرمينيا وهزمها . وسحقها ومات من جيشه
خمسة من الضباط وجرح مائة جندي . جيشه كله كان ١٨ ألفا .
هذا الرجل عندما اتجه الى روما توقف عند إحدى المدن الأرمينية
وبكى ، فقد أحالها جنوده ترابا !

هذا الرجل أيضا كان يحب الكلام ، أو يحب الكلام أثناء الطعام .
وهو أول من قال : ان الكلام يساعد على الهضم . وكان سابقا
لعصره بعشرين قرنا . فالأطباء اليوم يرون أن الجلوس الى المائدة
يجب أن يطول قدر استطاعتك فلم تعرف الإنسانية قرحة المعدة
الا عندما عرفت السندوتش . أى عندما عرفت الأكل أثناء المشي
وأثناء القراءة وأثناء العمل وأثناء الفرجة على المسرح وعلى
السينما وعلى التلفزيون . . ولم تعرف الإنسانية أوجاع المصراع
الغليظ الا عندما عرفت الموائد الصغيرة فى المطاعم اذ يجلس
الزبون وحده وقد أدار وجهه الى الحائط . وهو قد أدار وجهه
الى الحائط لانه مشغول بهيمومه الخاصة . وهو — ككل أبناء
المدن الكبرى — حريص على أن يكون مع همومه وحده . . وتأكد
له هذه الوحدة ، والقرحة أيضا !



وهذا الرجل أيضا عندما توفي حاول الناس أن ينفنوه فى احتفال
ضخم . ولكنه قد سبقهم جميعا وأوصى بأن يموت على مزاجه .
فطلب الى أقاربه أن يملأوا قبره بالتفاح وأن يتغطى به وبالورود !

وبعد وفاته جاء الصيادون وجمعوا من البحيرات التى أنشأها
حول قصره ٢٥ ألف كيلو سمكا !

واذا جاء ذكر الفلاسفة فلم يكن هذا الرجل مفكرا عظيما .
وانما كان عاشقا لكل صاحب فكر عظيم . وكان اذا اراد ان
يتحدث مع احد طلب اليه ان يزوره في بيته . فاذا جاء الى البيت
راح الاثنان ياكلان ويشربان ومن المؤكد انه قد شهد ميلاد الكثير
من القضايا الفلسفية والاجتماعية والسياسية . وكان يضحك
دائما ويقول : مساكين هؤلاء الفلاسفة . انهم لا يجدون ما يأكلون
واذا وجدوه لا يستطعمونه . انهم اناس لديهم مشاكل في احشائهم
— ولم يكن في هذا مبالغة . بل كان سابقا لعصره بمئات السنين!

لأسباب أخرى يهمننا هذا الرجل لوكولوس . فهو أول من ابتدع
« البيسين » .. أى حفر الأرض وملأها بالماء . ثملقى في الماء
الأسماك . وكلمة « بيسين » معناها في اللاتينية حوض السمك .
وهو كان حريصا على ذلك لأنه يريد أن يأكل السمك طازجا .
وكان يأتي بالأسماك من أماكن مختلفة من العالم . وهو أيضا
أول من ابتدع « الكباريه » .. فهو قد صنع كهوفا تحت الأرض ..
وأضاءها .. وجعل الراقصات والمغنيات يفرشن الضيوف ..
ثم أول من جعل الحيوانات تمر بين الصفوف ليتفرجوا عليها .
وكان يأتي بالحيوانات والطيور النادرة من أفريقيا . وكانت
الكهوف ملونة . وكانت عليها نقوش للآلهة وأساطير الاغريق
وأساطير التسعوب القديمة .

وهو أول من أتى بثمر الكريز من البحر الأسود . وقدمه
لضيوفه .

.. وهو أيضا أول من أتى بالحيوانات المفترسة وأطلقها في غابة
لها أسوار . فكان أول من أقام حديقة حيوانات في أوروبا . وهذه

الفكرة مأخوذة عن الشرق ، فقد كان من عادة الملوك في الشرق ان يحتفظوا في حدائقهم الخاصة بالحيوانات النادرة . وعندما جاء الاسكندر الاكبر الى الشرق كان يضع الى جوار خيمة القيادة أسدا أسيرا — رمزا لقوته هو ، وأنه سوف يفعل نفس الشيء مع أعدائه !

وكل هذه العناية بالحيوانات والطيور والأسماك كان من أجل متعة الأغنياء والحكام . ولذلك كان الناس — ولا يزالون الى حد ما — يحتقرون صناعة الجزارة . لأنها قتل للحيوان بينها الأغنياء يفضلون أن يبقى الحيوان حيا . فهم ليسوا في حاجة اليه . أو أن لديهم ما يكتيهم . ولذلك يجب أن يتفرجوا ويستمتعوا . فأكمل اللحوم ليس مشكلة . وإنما هم انتقلوا من مشكلة الطعام الى الاستمتاع به والفرج على الذى زاد على حاجتهم !

ومن الغريب أن الرومان كانوا يشربون البسان الحيوانات . ويصنعون منها الجبنة .. ولكنهم يحتقرون من يأكل الزبدة .. ولكن هذا المعنى تغير عندما اهتمت احدى الغايات الى ان الزبدة اذا وضعت على الوجه أو على البشرة فانها تجعلها ناعمة لينة . فارتفع ثمن الزبدة ، واصبحت الزبدة هى صناعة كل البيوت ، ومطلب كل النساء .. ووجدنا فى الأدب اللاتينى مثل هذه العبارات : انها زبدة .. انها تذييك كما لو كنت زبدة .. ان بشرتها لم تعرف الزبدة . انها هكذا خلقها الله !

وعرف الرومان أيضا « حظائر » الابتسار . فكانوا يحبسون الثور مع سبعين بقرة . ويشترطون أن يكون الثور ابن سنة أو ابن سنتين على الأكثر . أما الثيران التى تزيد أعمارها عن ذلك

فإنهم « يعقمونها » ويطعمونها لتزداد سمته فيتكدس لحمها على موائد الأغنياء والقواد ..



يقول لوكولوس وهو يهذى على فراش الموت : يا خسارة لم تشأ الآلهة أن تجعل لى معدتين . لعلها أرادت الرفق بالفقراء وبالحيوانات وبالطيور وبالأسمك وبمعشوقاتى .. لو كانت الآلهة تجيب لى طلبا أخيرا فاعرف منها ما الذى سوف يأكله الناس فى بيتى وهم سيكون حزنا على فقد صديق ظريف كريم .. ثم ينسون هذا كله وهم يشربون النبيذ ويتترجون على الراقصات .. أننى أعرف أن المائدة سوف ينقصها المرح وسوف ينقصها ذلك الرجل الضخم الذى كان زينة المجالس .. والذى ذاق كل شيء فى دنياه .. وحصل على كل ما يريد .. وحقق كل غاياته من الدنيا .. ولكن الآلهة بخلت عليه أن تكون له معدة أخرى .. أذفونى .. ضعوا سكر القصب فى فمى .. بل لا أريد قصب السكر وإنما أريد عسل النحل فأنا لست مريضا . وإنما ميت من شدة الشبع واللذة ..
انتهيت » !

وكان من عادة الرومان أن يعالجوا مرضاهم بقصب السكر الذى جاءهم من الهند . أما عسل النحل فهو المصدر الوحيد للسكر عندهم .. أو للحلاوة . وكان هذا طعام الشعب . وقد عرف الفراعنة فوائد العسل قبل أن تعرفه كل شعوب العالم . فالفراعنة كانوا يضعون العسل على الدمايل وعلى الجروح . وكانوا يضعونه فى العين . وكانوا يضعونه على البشرة لجعلها ناعمة . وكانوا يحتظون به الموتى . ولم يكن الفراعنة يعرفون ما الذى سوف يكشفه العلم الحديث بعد ذلك من أن العسل قاتل لآى ميكروب . ولكن الفراعنة اهتموا الى ذلك من التجربة .

وربما كان شمشون الجبار أول من لاحظ أن أسدا ميتا متعفنا
ومع ذلك جاء النحل وأقام خلية في هذا الجسد الكريه الرائحة .
ومن هنا كانت الفوزرة النى دوخ بها شمشون أبناء غزة عندما
قال : ما هو الحى فى الميت . وما هو الحلو فى المر ؟ ولم يعرف
أحد كيف يجب على ذلك . ولكن دليلة راحت الى شمشون
وأغرقتنه بالقبلات والأحضان . وعرفت نفسير هذا اللغز بعد أن
تصت شعره ، الذى هو مصدر ثونه ، قال لها : الحى فى الميت ،
هو النحل فى جثمان الأسد الميت . . والحلو المر هو العسل فى
جسمه المنعفن !

ومضت مئات السنين لنعرف أن عفونة جسم الأسد لا تنتقل
الى طعم العسل . فالعسل قاتل لكل ميكروب !

وفى أمريكا نجد أن شركات كبرى تنقل النحل بالملايين من حديقة
الى حديقة . ليقوم النحل بنلقيح الزهور . ثم تجمعه وتعيده الى
مكانه . . وقد عرف الفراعنة ذلك من الوف السنين . فقد كان
الفراعنة يأتون بملايين النحل فى احدى السفن . ويقفون عند
المدن ويركون النحل ينطلق الى الحقول والحدائق ، يجمع رحيق
الزهور ويلقحها . . ثم ينقلونه فى النيل الى أماكن أخرى وهكذا !



وعرف الاغريق والرومان والفراعنة ضرورة ذبح الحيوانات
تقربا للآلهة . ولكن الرومان ذهبوا الى أبعد من ذلك . فكانوا
لا يكتفون بتقديم الذبيح ، وانما يجيء الرجل العراف ويفتح بطن

الحيوان وينظر الى الأمعاء . تم ينظر الى الكبد . ومن شكل الأمعاء يعرف مستقبل صاحب الذبيحة . ومن حجم الكبد ولونها وشكلها يعرف كم يكون عمر صاحب هذا المريان . وكانت قراءة الأمعاء والكبد ، نوعا من قراءة الكف . ومن الغريب أن الرومان تفوقوا في ذلك . بل أن أحد العرافين قال ليوليوس قيصر : اليوم أسوأ يوم في حياتك . اجلس في بيتك سوف تجيء الأنباء تحت قدميك . . فلا ترنع سيفك على أحد . . ولكن غدا سوف تسمع أسعد نبأ في حياتك أن شكل كبد الخنزير يؤكد ذلك . ولو كنت نبحت الخنزير قبل هذا الثور لجات أخبارك السعيدة أولا . وفي نفس اليوم تأمر بعض الرومان على أقر صديق ليوليوس قيصر مقتلوه وهو مخمور . وفي اليوم التالي أنجبت إحدى عشيقاته طفلا ذكرا . وكان هو يمتنى ذلك !

ولا يزال بعض العرافين في أفريقياء يعرفون الطالع من مجرد النظر الى ريش الطيور وقد تراكم على الأرض . . أو عظام الطيور وقد ألقيت على الأرض فجاء ثعلب أو ثوب وقلب فيها بأرجله ولم يثقلها . . ولا يزال العرافون في هونج كونج يعرفون مستقبلك من قطعة اللحم النيئة الدامية إذا أنت قلبتها في طبق ثم هزرت الطبق . وتركتها . من مجرد النظر الى وضعها في الطبق وشكل الدم حولها يستطيع العراف أن يحدثك عن مستقبلك !

واهتدى الرومان الى ضرورة أن يشغلوا الشعب بشيء . وكان الشعب مشغولا بالخيول . وسباق الخيول وسباق العربات . وأقام الرومان « مسارح » لسباق العربات . . وأشهرها ملعب

كولسيوم في روما الذى يتسع لتسعين ألف متفرج . وكانت العربات تجرها الخيول ويتفرج عليها الناس ويتعصبون لحصان معين . . أو لأسره معينة . . أو لسائق أو لصاحب خيول . وكانت تربية الخيول هواية وتجارة الأغنياء . وقد اقيمت للخيول اصطبلات واسعة وفخمة . واتى الأغنياء بمربين للخيول من آسيا .

وكان من المألوف أن يرتدى سائق العربـة زيا أحمر أو أخضر أو أزرق . . وينقسم الناس الى مشجعى الأحمر أو الأخضر أو الأزرق واختفى اللون الأخضر . وأصبح الناس فريقين متحاربين ويتقاتلون . وتحول الاختلافات على الخيول الى اختلاف فى السياسة وفى الدين . وكانت هذه الخلافات حادة وأستهلكتهم وأبعدتهم عن السياسة . واستراح الأباطرة الرومان الى أن هذه المسابقات قد استغرقت الناس فـشـجـعـوهم على ذلك .

ولكن حدث أن قامت مظاهرات عنيفة فى القسطنطينية بين مشجعى « الفانلة الحمراء » — النطق الصحيح « فـالـنـة » لأنها كلمة انجليزية وفرنسية وإيطالية وألمانية — ومشجعى « الفانلة الزرقاء » . وقرر الإمبراطور جوستينيان فى يناير سنة ٥٣٢ أن يعصف بهذا العبث الرياضى السياسى . وجمع فريقا من الطرفين . وهددهم . ولكن الجماهير تظاهرت والتفت حول قصر الإمبراطور . وكاد يهرب من المدينة لولا أن زوجته الماكرة ثيودورا طلبت اليه أن يقول للجماهير شيئا . فقال اننى لا أعترض على الفريقين ولكننى أحب الفريق الأخضر الذى ليس له مشجعون !

وفرحت الجماهير بأنها أغلبية والأمبراطور اقلية .. وبان
الامبراطور أيضا يحب مسابقة الخيول !

ولكن ثيودورا ابنة رجل مشغول أيضا بتربية الخيول ومجنون
بمشاهدتها .. ولكن جوستينيان أنزل قواته وقتل ثلاثين الفا من
مشجعي هذه الرياضة في يوم واحد !



ولم يكتف الانسان الذى يريد أن يمزح اللذة بالألم ، والمتعة
بالقسوة من الفرجة على الخيول ، وإنما انى بالحيوانات المتوحشة
من افريقيا وأطلقها بعضها على بعض . والناس يصرخون من
الفرح ومن اللذة . أطلق الأسود على الثهور . وأطلق الذئاب على
الكلاب . ثم أطلق كل هذه الحيوانات على المجرمين وعلى
المعارضين السياسيين . والناس يصرخون في متعة ، أو يستمتعون
في صراخ . ويطلبون المزيد ..

وأول مصارعة بين الانسان والحيوان شسهدتها روما كانت
في سنة ١٨٦ قبل الميلاد . وكان ذلك بعد غزو الرومان لسوريا .
ولكن هذه الرياضة الدموية قد أتى بها الرومان من العراق . فقد
كانت منتشرة قبل ذلك بمئات السنين .

والى جانب هذه اللذات العنيفة : ذبح الانسان للحيوان ، وذبح
الحيوان للانسان ، عاد الرومان الى رياضات هائلة . عادوا الى

عربات الخيول ولكنهم علقوا فيها الجمال . الامبراطور نبيرون اول من فعل ذلك . ثم عافوا الى الفزان وعلقوها فى العربات . والنمور والاسود .. ثم الفيلة .

والاسكندر الاكبر تد شاهد الفيلة فى معاركه . وخصوصا فى الهند . ولاحظ الاسكندر ان الفيلة شكلها مخيف . ولكنها تعوق الحركة . ولذلك امر جنوده بان يحتبوا فى الليلة ويطلقوا سهامهم ونبالهم على العدو . ثم اهتدى الاسكندر الى حيلة وفلك بان يجعل الفيلة فى مواجهه العدو ثم يكويها فتنتطلق هائجة تمزق خطوط عدوه وتأخذ معها فيلة أعدائه أيضا . وعدل عن استخدام الفيلة فى المعارك . واكتفى بان جعلها تنقل الخيام . وكان له فيل مشهور أطلق عليه اسم « اجاكس » . ويقال ان هذا الفيل كان يرفع الاسكندر من الأرض ليحيى جنوده ولم يكن يفعل ذلك لأحد سواه ا

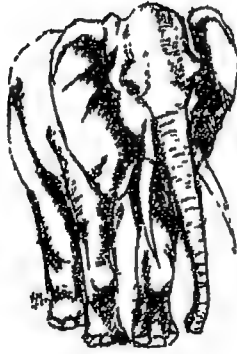
والقائد هانيبال عندما أذهب أوروبا بقواته كان يدفع أمامه خمسين فيلا .. ولم يصل منها الى نهر الرون فى فرنسا سوى ثلاثين فيلا ولما عبر بها جبال الالب لم يبق منها سوى ثمانية .. وعندما هبط جبال الالب . لم يبق سوى فيل واحد .. ولكن الرومان كانوا تد أستعدوا له أيضا بعدد من الفيلة .. ثم عدل الجميع عن استخدام الفيلة ونقلوها الى السرك للفرجة عليها ..



نعود لآخر مرة الى القائد الاكول لوكولوس . فقد سئل فى احدى ولائمه وهو يقلب عينيه ويديه بين الطعام والشراب والثمار ويقول : نحن حقيقة اولاد حيوانات .. فالحيوانات تاكل النباتات

ونحن ناكل الحيوانات .. ثم نحن نموت فى الأرض وعليها تنمو
النباتات .. وسوف يجرى يوم ناكلنا الحيوانات حتى نفنى ، فتعيش
الحيوانات على النبات حتى تفنى فيأكل بعضها البعض ولا يبقى أحد
فى هذه الدنيا .. لماذا ؟ لأن هناك معدة تاكل معدة أخرى ..
والأرض هذه هى أكبر معدة عرفناها !

وكان هذا الرجل الذى اشتهر بأنه صاحب أكبر معدة فى
التاريخ ، سابقا لعصره ولكل الأطباء وعلماء الحيوان والنبات
والفلك ، لأنه لم يرفع عينه ولا يده عن هذه الحيوانات ؟ !



وراء جنتك زغان سبع مليون مصاد !

لو جاء هؤلاء الوحوش سيرا على الاقدام لاستراحت منهم اوروبا مئات السنين - عبارة قالها مؤرخ اغريقى وهو يصف هجرة القبائل البدائية الآسيوية فى القرن الرابع الميلادى .
هذه القبائل قد تركت بلادها متجهة الى اوروبا غربا ، ومتجهة الى الجنوب . وليس معروفا بوضوح لماذا هاجرت هذه القبائل . ولكن المعروف انها قد ركبت الخيول فكانت حركاتها اسرع واخطر .

وقد وصف المؤرخ الاغريقى هؤلاء الآسيويين بأن اشكالهم دميمة . وشعورهم منكوشة . وانهم لا يأكلون الا اللحم النيء وانهم لا يغسلون ايديهم أو وجوههم . ويرون فى منظر الدم دليلا على النعمة وعلى الثراء . ويعيب عليهم أنهم يحبون الذهب وانهم من اجل الذهب يبيعون الابن والزوجة والحصان ، وربما كان هذا التقديس للذهب هو الشيء الوحيد الذى يربطهم ببقية الانسانية ! . .

وهى صورة كاريكاتورية . والحقيقة ان هذه القبائل الاسيويه راكبة الخيول ، عندها قدرات هائلة على القتال وعندها شجاعة . وعندها ترنمها الفنى والادبى وطقوسها الدينية . . وهؤلاء « الوحوش » اكثر حضارة من « البرابرة » الاوربيين فى ذلك الوقت .

وبسبب هذه الخيول التى لديهم أقاموا امبراطوريتهم بسرعة وجعلوها واسعة اما هذه الخيول التى ركبوها واقاموا عليها قوتهم وعروشهم نهى متوسطة الحجم . صغيرة الراس طويلة الشعر ، وظهورها سريعة الانحدار . وسيقانها قصيرة . ولا تحتاج هذه الخيول الى ماء كثير اذا سارت فى الصحراء . وهؤلاء « الوحوش » الاسيويون ككل الرعاة يعيشون على اللبن والنباتات والثمار ولا يأكلون اللحم . فاللحم هو الخيول . والخيول قوتهم فى القتال والهرب .

وفى ذلك الوقت سقطت الامبراطورية الرومانية القوية . لماذا ؟ يقال ان الخيول رُست هذه الامبراطورية فسقطت . وهذه عبارة مبالغ فيها الى حد كبير . فسقوط الامبراطورية كان لاسباب كثيرة . ولكن هذه الخيول الزاحفة بمئات الالوف قد عجلت بانهيـار الامبراطورية الرومانية . لان هذه « القوات المحمولة » على اربع والمقادمة من قلب آسيا هى التى هدمت الامبراطورية اثرومانية . ولم يكن الرومان فى ذلك الوقت قادرين على مواجهة الزحف الاسيوى كما ان الرومان كانوا يجهلون او يتجاهلون قدرة الخيول ، والفرسان والفروسية . فالجيش الرومانى به فارس واحد لكل عشرين جنديا . . أو به حصان واحد أبيض يركبه القائد العام ! ولذلك فالجيوش الرومانية أبطأ فى الحركة وفى الهجوم وفى الانسحاب .

وقد وجدنا فى التاريخ ان الفرسان الجرمان يطلقون على انفسهم كلمة « رينر » ومعناها : راكب . . فراكب الحصان هو الفارس . وكان الرومان يسمون راكب الحصان « اكوبس » — وهى كلمة

لاتينية معناها راكب . ولكن ليس كل من ركب الحصان فارسا .
ولذلك كان الاسيويون « فرسانا » وكان الاوريون « ركبا » فقط !

وفي أوربا في ذلك الوقت كانوا يطلقون اسم الفارس على كل من
يركب الحصان أو يملكه . ولم يكن يملك الخيول إلا الأغنياء أو
النبلاء . وكان الرجل الحر هو الذي يركب الحصان . فهو يستمد
حربته من قدره حصانه على الحركة والجري والهرب . . ومن
التعبيرات الشائعة في ذلك الوقت : اركب حصانك . . أليس لك
حصان ؟ لو كان عندي حصان ما رضيت بهذه الحياة دقيقة واحدة !
ركب فلان أسرع خيوله وهرب . .

وجاءت القوات الاسيوية الراكبة وأسقطت الإمبراطورية
الرومانية الواقعة أو الماشية أو الجالسة !

وظل الحصان مصدر القوة العسكرية في أوربا ألف عام بعد ذلك .
وكان سلاح الفرسان هو السلاح الأفضل . وكان سلاح أبناء
الذوات والنبلاء . فالجندى يرتدى بدلة المدرعة ويركب حصانه . .
والبدلة غالية والحصان أغلى والموت بعيد عن هذا الفارس .
ولا يستطيع أحد أن يحمى نفسه هكذا إلا إذا كان غنيا . فالمشاة
مقراء والفرسان أغنياء !

ولم تكن الخيول الاوربية الا حيوانات غليظة ضخمة .
خطواتها ثقيلة . وأشكالها دميمة . . ولكن أوربا عرفت بعد ذلك
أن تستورد هذه الكائنات الجميلة النبيلة من شمال افريقيا ومن
شبه الجزيرة العربية . ومن منطقة نجد . وظهرت الخيول
العربية بأجسامها الممدودة الانسيابية ورشاققتها وروعها . .
ولم يعرف الاوريون هذه الكائنات الرائعة الا بعد أن اتصلوا
بالعرب . . وقرأوا عن عهق العرب لهذه الخيول . . بل أن أمير

الشعراء الانجليز روبرت جريفز يؤمن بأن الادب العربى لم يعرف معنى « الفروسية » الا من العرب . فالعرب هم أول من اهتموا الى أن الفارس ليس من يركب الحصان . وإنما هو الذى له شجاعة الحصان ونبله وكرمه واحترامه للعواطف الانسانية . والفارس هو الرجل الشهم . أو العاشق الذى يضحى بحياته من أجل محبوبته . وهو الذى يرى أن الحياة هى الحب . والحب هو الحياة . والحياة هى أن يموت الفارس من أجل المحبوبة . يكفى أن تراه يتعذب متسقط على جثثائه دمعة واحدة . بل أن دمعة واحدة كثيرة . لأنه يرضى بأقل من ذلك .

ويقول روبرت جريفز أيضا : أن أوروبا لم تعرف معنى الحب العذرى أو الحب العفيف أو الحب « الأفلاطونى » الا من العرب . فمعد العرب قبيلة اسمها قبيلة « بنى عذرة » . هذه القبيلة قد نذرت نفسها للحب الشريف . وهذه هى الفروسية .

ويقول روبرت جريفز أيضا : أن الشعراء المتجولين « الطروبادور » أى شعراء الطرب — لم يتعلموا فن الصلابة النبيلة الا من الادب العربى . فالشاعر العربى لا يكتفى بأن يتعذب من أجل المحبوبة ، وإنما يروح ينقل عذابه للآخرين . فيتجول من مكان الى مكان ويروى للناس كيف انه لم ير الا ثوب محبوبته . . طرف ثوبها . . وهو لا يفصحها وإنما هو ينعنى بها ويقيم لها حفلات التكريم . . فهو محطة اذاعية . . هو فيلم . . هو اسطوانة تدور فى كل مكان . هؤلاء الشعراء كانوا فرسانا ، يركبون الخيول . . وفيهم أخلاق الخيول : شموخ وجمال وصمود واستعداد للتضحية !

وفى التاريخ الاسلامى نجد الرسول عليه السلام كان يركب الناقة وكان يركب الحصان . وكان — ككل العرب — يدعو الى

حب الخيل والى اقتنائها . وهو الذى قال : « الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة » . وكان يدعو ابناء المسلمين الى ركوب الخيل . . وعندما أسرى الله به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى تقول كتب السيرة انه ركب « البراق » وهو حيوان متوسط فى حجمه بين الحصان والحمار . . وفى المكان الذى وقف فيه البراق أقام مهر مسجده فى القدس . ويقول اليهود ان هذا المسجد أقيم فوق حطام معبد سليمان . .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة وردت فيها كلمة « الخيل » . وهى تُرد بمناسبة الاستعداد للقتال وضرورة محاربة العدو . والقرآن الكريم يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . » وفى القرآن الكريم سور تحمل اسماء الحيوانات والحشرات والخيل : البقرة والنحل والنمل والانعام . أما سورة « المعاديات » فالمقصود بها « الخيل » والسورة تقول : « والمعاديات ضبحا . فالموربات قدحنا . فالغيرات صبحا . فأنثرن به نعما فوسطن به جمعا . » وهذه الآيات تصف الخيل فى حركتها وأثارها للتراب وسط القوات المعادية . والله فى هذه السورة يقسم بهذه المخلوقات الجميلة . وفى ذلك أقصى درجات التكريم . .

والعربى يستمد نبله وقوته من هذا الحيوان المتسق القوام . ويستمد أيضا كبريائه . وقد وصف العرب حاتم الطائى بأنه أكرم العرب لانه ذبح حصانه لاهد ضيوئه !

وعمر بن الخطاب عندما دخل القدس لم يشأ أن يركب حصانا وانما ركب ناقلة وعلى هذه الناقة وضع طعامه من الماء والتمر والقمح . ودخل القدس حانى الرأس . ولم يركب حصانا بتبختر به كما يفعل الفرسان أو كما يفعل الغزاة المنتصرون !

والتاريخ يسجل للعرب انتصاراتهم الهائلة شرقا وغربا بقوات صغيرة وخيول محدودة . وقد حاول الفرس أن يصدوا العرب مستخدمين الخيول . ولكنهم فشلوا . فقد كانت عندهم الخيول، ولم تكن لديهم الفروسية — أى روح الشجاعة والاستعداد للموت فى سبيل الله ! ودخل العرب اسبانيا بجيش متواضع : ٣٠٠ فارس عربى وثلاثة آلاف من قوات البربر !

وبعد ذلك بخمسة قرون جاء جيش من الشرق محمولا على الخيول ومزق أوروبا كلها ، وداس مقدساتها وفتح عيون العرب على أن هناك حضارة أخرى .. أو شعوبا أخرى تستطيع أن تفعل ما عجزت عنه الحضارة الاوربية المريضة المتداعية . كان ذلك جيش جنكيز خان .

وقد وصف الرحالة الايطالى ماركو بولو جيش جنكيز خان (١١٦٢ — ١٢٢٧) بأنه كان يتحرك فوق ربع مليون حصان !

وأصبح من المألوف فى أوروبا فى ذلك الوقت أن الرجل النبيل هو الذى يملك قطعة من الأرض وحصانا . أو يملك حصانا دون أن يملك أرضا أو يملك الحصان والبذلة المدرعة دون أن يكون جنديا فى أى جيش . وانما يكفى أن يكون هذا « عاليا » فوق حصان ، و « منيعا » وراء بذلة من حديد .. وهو بكل مقاييس العصر يعتبر رجلا محظوظا !

وعرفت أوروبا تربية الخيول . واستخراج السلالات الجيدة منها . لان الخيول التى هاجرت الى أوروبا من الشمال فى العصور الجليدية كانت صغيرة هزيلة . أو قبيحة التكوين . وقد أحس الاوربيون بذلك اثناء الحروب الصليبية . لم تكن لديهم هذه الخيول

العربية الرائعة . وحتى عندما انسحب الصليبيون من الشرق كانوا يحملون امتعتهم على ظهور الإبقار والماعز والخنازير !

والخيول حتى ذلك الوقت كانت مظهرا من مظاهر الثراء والقوة . ولكن أوروبا لم تعرف « الفروسية » أو رياضة ركوب الخيول . وإذا حدث أن أراد بعض الفرسان أن يتريض جاءت هذه الرياضة عنيفة دموية . فيلتقى الفرسان ويتحاربون . وتكون النهاية دموية مميتة . أن الملك هنرى الثانى ملك فرنسا قد سقط من فوق حصانه ميتا سنة ١١٥٩ . ولم يكن ذلك فى الحرب وإنما كان فى معركة مع أحد الفرسان . ولم يكن ذلك الا على سبيل اللهو !

ولكن رجلا فرنسيا اسمه جيوفروا دى بروى هو أول من وضع لرياضة الخيل أو للفروسية قواعد واصولا وطلب من كل الفرسان أن يحترموها وكانت هذه القواعد تؤدى الى الإبقاء على حياة الفارس والحصان . وأن تكون استعراضا للخفة والسرعة والمناورة دون دماء !

والتاريخ الذى كتبته الخيول فى حياة الإنسان والشعوب كلها طويل جدا — انه يشبه تاريخ الدبابة والمدفعات والطائرات . فالخيول هى دبابات وطائرات الإنسان من ألاف السنين !

وإذا كان الإنسان قد استخدم الخيول فى الرعى وفى الصيد ، فإنه استعان أيضا بطائر غريب يساعده على ذلك . فالصياد كان يركب حصانه ويحمل على ذراعه طائرا هو « الصقر » ثم يطلق الصقر على الفريسة ويجرى وراءه . وبعد لحظات يكون الصقر قد أوقف له الفريسة . فالصقر ينطلق وينقض بسرعة على الطيور الأخرى أو على الأرانب أو على الغزلان . ويقف على رأسها ويرفرف بجناحيه

فيجعلها عاجزة عن الرؤية . أو يضربها في رأسها أو يفتق عينيها . .
حتى يجيء الصياد ويمسك الفريسة . ولا تزال هذه الصقور وسيلة
من وسائل الصيد في مناطق شبه الجزيرة العربية . فبدلا من ان
يطلق الصياد سهامه ونباله ورصاصه على الفريسة ، فانه يطلق
الصقر لكي يمسكها وهي حية دون ان يشموه مكانا واحدا من جسمها .

وفي العصور الوسطى كانوا يستخدمون الصقور لاصطياد
الخنازير البرية . ففي فرنسا ، وهي كبرى الدول الزراعية في اوربا ،
قد ارهقتها هروب المائة عام حتى لم يبق لدى الناس ما ياكلونه من
الخضراوات والفواكه والحيوانات ، وحتى أصبح من الضروري
ان يلتزم صاحب البيت أو صاحب القصر باطعام خدمه وحاشيته
والا فلن يجد احدا يعمل لديه . ففي سنة ١٤٣٣ صدر قانون يقول :
وللخادم ان ياكل اللحم مرتين في الاسبوع وان يشرب زجاجة نبيذ .
وفي ايام الصوم يجب ان يجد السمك .

اما الاغنياء فكانوا يضعون على موائدهم كل ما لا يجده الفقراء
من لحوم : الخنزير والبقر والاوز والبجع والشماء والسلوق وكانوا
ياكلون الطاووس ايضا (وقد فعل ذلك شاه ايران عندما اقام
مهرجانه التاريخي بمناسبة مرور خمسة وعشرين قرنا على تأسيس
الملك كوروش للدولة الفارسية . .)

ولكن طائرا واحدا نجا من الموت : الصقر .

ويقال ان المؤرخ الاغريقى كتسياس وكان طبيبا خاصا للملك
الفارسي ارنكسركس في القرن الرابع قبل الميلاد ، هو اول من نقل
الصقر الى اوربا . واول من استخدمه في الصيد . ولكن هذه العادة
لم تنتشر في اوربا الا بعد ان هاجر الاسيويون الى اوربا . وعرف
الغرب ان الصقور يمكن استخدامها في صيد الذئب التي تهدد
قطعان الاغنام والابقار . .

وفى احدى لوحات لويس السادس عشر نجده واقفا وعلى ذراعه اليسرى وقف الصقر شامخا براسه .

كما أن الملك فريدريش الثانى ، لم يكتف بتربية هذه الصقور الصيادة ، وانما اصدر كتابا فى تربية الصقور وتعليمها . كتابه اسمه « فن الصيد بالطيور » . وفى الكتاب يحدث القارىء عن اخلاقيات هذا الطائر . وكيف يأكل وكيف يشرب . وكيف يجب تجويعه قبل اطلاقه على الفريسة . ثم مكافأته بعد ذلك بأن يعطى القلب والكبد وعينى الفريسة . والذى يقرأ كتاب الامبراطور يشعر بأن تدريب المصقور الصيادة عمل شاق . ولكنه من انبل الاعمال فى ذلك الوقت .

والفراعنة أنفسهم كانوا يرمزون بالصقر — حورس — الى السماء . . او الى الفضاء الخارجى . ويرون أن هذا الصقر له عينان هما : الشمس والقمر . وكان هذا الطائر فى أعلى مراتب القداسة عندهم . .

وحىوان آخر رافق الانسان سنونات طويلة . او كان اول من صادقة ؟ الكلب . وكان الانسان يستخدم الكلب فى حراسة الاغنام ، ولم يكن الكلب حارسا لها تماما ، وانما كان يحميها من الذئاب والثعالب . وكان الكلب حيوانا محترقا رغم احساس الانسان بفائدته . وكان من عادة الاغنياء أن يضعوا كلابهم فى غرف الخدم .

ولكن فى العصور الوسطى ظهرت الكلاب فى قصور النبلاء والملوك . ثم ظهرت الكلاب فى لوحاتهم الفنية . وظهرت انواع نادرة من الكلاب . وكان الكلب يستمد « مكانته » هو ايضا من مكانة سيده . بل أن الفنان كان يعكس طبيعة السيد على طبيعة الكلب . فاذا كان السيد مثل « فيليب الطبيب » دوق يورجانيا ظهر الكلب هادئا جالسا عند قدمى سيده ، واذا كان السيد شريرا مثل « شارل

السيء « ملك مقاطعة نفارة الاسبانية ظهر الكلب شرسا يقضم الطعام عند قدمى سيده ..

وظهرت حيوانات وطيور اخرى كثيرة فى اللوحات الفنية بل وفى النقوش القديمة . ففى احدى مقابر المملكة الوسطى الفرعونية نجد نقشاً به تسعة وعشرون نوعاً من الطيور .. وفى مقبرة الكاتب المصرى حور محب فى عهد نحتمس الرابع نجد نقوشاً لطيور كثيرة .. كما ظهرت الحيوانات المفترسة على دروع الجنود رمزا للقوة والمنعة . بل لا يزال « وحيد القرن » منقوشاً مع عظيم الاحترام على الاسلحة الملكية البريطانية . وكان القدماء يتصورون أن وحيد القرن حيوان نادر أو حيوان خرافي . فالمؤرخ الرومانى بلينى كان يعتقد وكذلك الفيلسوف الاغريقى ارسطو أن وحيد القرن لا وجود له . ولما نقلت التوراة من اللغة العبرية الى اللغة اليونانية ترجمت الكلمة العبرية « ريم » ومعناها : ابتار الى الكلمة اليونانية « مونوكيروس » ومعناها : وحيد القرن .

وقد استخدم القدماء اسم « وحيد القرن » للدلالة على العفة والعزلة وقوة الفضيلة . وذهب القدماء الى أبعد من ذلك فتصوروا ان قرن وحيد القرن هذا يحقق المعجزات . وان الذى يحتفظ به تحدث له البركات .. وان الذى يسحق القرن ويشربه مع النبيذ تكون له قوة حنسية هائلة .

عجيب امر الانسان : انه يبدأ بتقديس الحيوانات ثم تكيسه ثم القضاء عليه ، ثم الحزن عليه والعمل على انقاذه وتربيته والبحث عن شيء جديد يقدره تمهيدا للقضاء عليه .. وهذا ما فعله بنفسه أيضا !



خنازير كولمبوس ! عدت العالم الجديد .

مع اكتشاف أمريكا ظهرت حيوانات وطيور جديدة ، فالخنازير الثمانية التي حملها كولمبوس معه قد أصبحت الآن مئات الملايين في العالم الجديد ، ولم يكن اكتشاف أمريكا عملاً بارعاً بالصدفة ، ولكنه نتيجة لمحاولات ومغامرات استغرقت مئات السنين ..

ويجب ان نذكر دائماً ان الصيادين هم الذين لمسوا كل شواطئ العالم الجديد . فالصيادون من أبناء الشمال هم الذين اكتشفوا « جرينلاند » أى الأرض الخضراء ولم تكن الأرض خضراء عندما اهتدى اليها « أريك الأحمر » وإنما كانت جرداء جليدية صحراوية مميتة . ولكنه اختار لها هذا الاسم ليستدرج الناس الى الحياة فيها . وكان هو وابنه اول من أقام فيها . وبعد ذلك تكاثر المهاجرون جيلا بعد جيل ..

يقول « أريك الأحمر » فى مذكراته : كنت أطلب من ابنى ان يقوم بدور الكلب وأحيانا بدور الدب ، لنشعر نحن ان هناك كائنات أخرى ترانا أو تخافنا أو تعمل لنا أى حساب ! ..

ويقال ان « أريك الأحمر » هذا اسنطاع أن يصل في مغامراته البحرية الى شواطئ أمريكا . والى جزيرة « رود » بالذات . ولكنه يوم اهندي الى هذا المكان النائي لم يكن يعرف بالضبط ، ما الذى يراه عن بعد ..

وبعد ذلك توالى مغامرات أبناء جنوه الايطالية ، والبحارة الاسبان والبرتغاليين . كلهم اتجهوا عبر المحيط الاطلسى . لماذا ؟ لان لديهم معلومات ما ، بأن شيئاً ما ، يوجد فى الناحية الأخرى .. ما هو هذا الشيء ؟ يقال : انها بلاد التوابل : بلاد الهند . أو بلاد الحرير : بلاد الصين .

واكتشفوا جزر الكنارى وجزر ماديرا وجزر الأزورس .. ومن الملاحظ أن كل الجزر التى اكتشفت قد حملت اما أسماء القديسين أو أسماء الطيور . فقد كانت الطيور بألوانها الزاهية الصارخة وأصواتها المغردة هى أهم ما رأى وما سمع الأوروبيون . فجزر الكنارى نسبة لطائر الكناريا .. وجزر أزورس ايضا . فالكلبة البرتغالية « أسورث » معناها : الصقور . والجزيرة مليئة بالصقور .

وكانت هذه الطيور تستقبل سفن المغامرين من بعيد ، وتحلق حولها فى كبرياء . وقد فتن الأوروبيون بالببغاء . وانتقل هذا الطائر الى أدبهم وشعرهم وأغانيهم وخرافاتهم أيضا .

وأول ما واجه الأوروبيين المكتشفين أن هذه الجزيرة فقيرة . وأن أهلها بدائيون متخلفون تماما. ولذلك احتاج الأوروبيون الى أن يأتوا معهم بالطعام من اللحوم . فنقلوا الحيوانات الأليفة الى هذه الجزر . ونشروها . وامتلات بها الدنيا الجديدة . وقد أدى وجود بعض هذه الحيوانات الى ظواهر غريبة لم تكن فى حسابهم .

فبتلا عندما نقلوا الارانب الى جزيرة اسمها « الجزيرة المقدسة »
تكاثرت بمئات الالوف فى سنوات قليلة ، حتى اكلت ما فى الجزيرة
من اعشاب ، بل انها كانت تتسلق الاشجار وتاكل اوراقها
الخضراء ..

يقول بعض المؤرخين : ان الذى ينظر الى الجزيرة بعينه من
بعيد يجد سطحها يتحرك .. يعلو ويهبط ، كأن أمواج المحيط قد
استقرت فوقها . فاذا اقترب منها أكثر وجد أن الذى يتحرك هو
موجات من الارانب !



نفس التجربة حدثت عندما اكتشفت استراليا . كانت الارانب
قد اكلت المزارع فأتوا لها بالقطط . فاكلت الارانب وأصبحت القطط
منوحشة . فأتوا لها بالكلاب . فتحولت الكلاب الى ذئاب متوحشة
ويقال انهم فى استراليا قضوا على الكلاب التى قضت على القطط
التي قضت على الارانب ، فانتشرت الفئران بصورة شرسة ..
وفى الهند عندهم مشكلة مماثلة . ففى الهند يحتاجون الى جلود
الثعابين فيصيدونها . وكانت الثعابين تاكل الفئران التى تاكل
محصول القمح والذرة . ولذلك أصبح ممنوعا صيد الأنعام لأنها
تتغذى على الفئران ، وبذلك ينجو القمح والذرة ؟ .

والمستعمرون الأوروبيون الجدد لهذه الجزر أو لهذه الاراضى
المكتشفة يحتاجون الى ضمان طعامهم . والى ضرورة معرفة
الحيوانات والطيور الجديدة . وان كان فى الامكان ذبحها أو تصديرها
الى أوروبا .. وبعد ذلك معرفة حدود الأرض الجديدة والبحث
عما فيها من ثروات طبيعية .

واذا كانت الأرانب هى أول المهاجرين الأوربيين الى العالم الجديد ، فقد جاءت بعد الأرانب الأبقار والأغنام والماعز والخنازير والدواجن وكذلك البذور .

وكولبوس عندها اكتشف أمريكا سنة ١٤٩٢ كان يحمل فى سفنه بعض اللحوم والأسماك الجافة . . ولكن رحلة كولبوس الاولى كانت استطلاعية فقط وبعد ذلك جاءت رحلته الثانية الباهرة ويقول كولبوس فى مذكراته بتاريخ ٩ أكتوبر سنة ١٤٩٢ أى بعد ٣١ يوما من السفر من جزر الكنارى : ظللنا طول الليل نسمع اجنحة الطيور . ولا نعرف أين نحن بالضبط . ولكنى مؤمن بأن الأرض قريبة جدا »

وبعد ثلاثة أيام توقف كولبوس عند جزيرة هى جنة الطيور . كل شئ فيها غريب عجيب . أشجارها وأرضها وثراها . وأهم من ذلك كله عدد لا نهائى من البيغاوات . وقد حمل منها عددا كبيرا الى أوروبا . ووجد بالصدفة بعض الأحجار اللامعة على الشاطئ فظن أنها ذهب . ولم تكن كذلك . وأيقن أنه قد اهتدى الى الهند . وكولبوس هو الذى أطلق خنازيره فى الدنيا الجديدة . . وهربت الخنازير الى الغابات واختفت منه . . وبعد مئات السنين أصبحت الوف الملايين . . طعاما سائغا للرجل الأوروبى والأمريكى . .



ومما حمله الأوربيون الى العالم الجديد : الخيول .

وكانوا يركبون الخيول ويمسكون السهام والنبال ويطلقون النار على الهنود الحمر . ثمخاتوا أول الأمر . وبعد ذلك لم تعد هذه الخيول تخيفهم وكانوا يظنون أن الحصان وراكبه كائن واحد .

ولما تشجع الهنود الحمر وأطلقوا سهامهم على الأوربيين سقط منهم الكثيرون على الأرض . واندھش الهنود الحمر كيف أن هذا الحيوان — أى الحصان وراكبه — يمكن أن ينشطر نصفين بهذه السهولة !

(وعندما اكتشف كوك أيضا جزر هاواى كان يضع يديه فى جيب البنطلون فكان أهل هاواى يعجبون لذلك اذ كيف يخفى يديه فى بطنه ويخرجها . ولما راح يدفن السجائر ، أدھشهم كيف أن النار فى أحشائه ولا يموت .. ولما قتلوا رجاله البيض فزعوا لذلك . ولكنهم تشجعوا حتى قتلوا كوك نفسه) .

والشاعرة المكسيكية الراهبة خوانا كروث تقول سنة ١٦٨٨ عن الأوربيين الذين غزوا بلادها بالحديد والنار : من هؤلاء الوحوش الذين جاءوا عبر المحيط يدوسون أرضى المقدسة ؟ ويذبحون أجدادى وينهبون لحمهم ، وينهبون ثرواتهم بلا سبب ؟ .. ان أجدادى متحضرين أما هؤلاء القادمون من وراء البحر فوحوش بربرية .. !

واهتدى الإنسان الى حيلة أخرى غير استخدام الخيول ، استعملوا الكلاب المدربة . وأخذوا يطلقونها على قبائل الإنكاس . وكانت الكلاب تمسك بهم وتعوقهم لتصيبهم نيران الاسبان . وعرف الإنكاس حيلة أخرى جديدة . كان الواحد منهم يتغطى بمواد مسمومة فإذا هجم عليه الكلب مات لتوه . أما لماذا لم يمض الإنكاس من السموم التى تنفذ الى ما تحت الجلد ، فذلك ما لم يعرفه أحد بعد .

ويصف لنا المؤرخون الاسبان كيف راوا قصر الملك مونتزوما الثانى « ملك المكسيك » قال أحد المؤرخين : وكان قصره قطعة

من الجحيم . تعيش الاسود والتمور فيه، وترى الطيور الصارخة .
والطيور المفردة والطيور الجارحة .. وفيه اخطر من هذا كله :
انواع مجيبة من الافاعي التى لها ريش . وكانوا يضعون الافاعي
فى الصناديق ثم يلتون اليها بلحوم الكلاب وكان من عادة الملك اذا
زاره الضيوف او الأوربيون الجدد ، أن يقدم لهم الطعام وسط
هذه الوحوش . وكان حريصا على أن يجعلها جائعة فتعوى وتنبج
وتصرخ — أما الشعابين فيكون لها فحيح قريب رهيب .

وفى الرسائل التى وجهها كولبوس الى الملوك الكاثوليك فى اوربا
سنة ١٥٠٣ ، وكان فى ذلك الوقت فى جامايكا يقول : ان فى هذه
البلاد اسودا وقطعا ضخمة فى حجم الانسان نفسه .
وفى هذا العالم الجديد لا أحد يشرب اللبن أو يذوق لحم الحيوانات
— الاغنياء والنبلاء ورجال الدين فقط — أما بقية الناس فلا قدرة
لهم على هذا الترف العظيم .



وعندما استولى البرتغاليون على البرازيل أطلقوا عليها اسم
أرض الببغاوات . وان كانت كلمة « البرازيل » فى اللغة البرتغالية
تعنى نوعا من الخشب الثقيل الذى يخرجون منه الصبغة الحمراء .
ولكنهم كانوا يسمون هذه البلاد بجنة الطيور . وكان من عادة
البرتغاليين أن يدرسوا ويسجلوا ملاحظاتهم على كل الطيور
والحيوانات والنباتات التى تلفت عيونهم . بينهما كان الأسبان
مشغولين فقط بالبحث عن الذهب .

وعلى الرغم من أن الثمار فى العالم الجديد كبيرة الحجم ، فان
الحيوانات كانت صغيرة الحجم . وهذا العالم الجديد لم يعرف
الفيل الهندى الحبشى ولم يعرف التمساح النيلى الكبير . وانما
فى العالم الجديد تماسيح صغيرة . ولم يكن يضايق المستعمرين
الجدد سوى الحشرات التى تلتسع . وسوى الافاعي التى تمص
دمهم فى الليل .

أما الهنود الحمر فهم يأكلون كل الحيوانات فيما عدا حيوان آكل النمل .

وبعض القبائل تأكل الانسان نفسه وعندها أسباب كثيرة لذلك . أما أن يكون ذلك بدافع الانتقام . . أو بدافع المحبة . . فنجد القبيلة تأكل شخصا من قبيلة أخرى ، ومعنى ذلك أن دمه واحد . وجسمها واحد . والروح واحدة . وتقام لذلك طقوس هائلة بالطبول والرقص والبخور .

من عادة هذه القبائل اذا أسرت عدوا أن تكرمه فتعطيه الطعام الذى يجعله أسمن . بل أن بعض القبائل عندما كانت تأسر الأوربيين كانت تحبسهم وتتقدم لهم أفضل الطعام وتتقدم لهم بنات القبيلة ليكون زواج واطفال . أما الذكور — فلأنهم أولاد الرجل — مياكلونهم . أما الإناث — فلأنهن بنات المرأة — فلا يأكلهن أحد . ثم لابد من أكل الذكر حتى لا ينتقم لوالده .

وقد روى للعالم كله مثل هذه القصص رجل أوربى وقع فى الأسر . ورفضوا أن يأكلوه رغم ما تقدموا له من طعام ، لأنه كان جلدا على عظم !

وقاوم الأوربيون هذه الوحشية ، فأصدروا القوانين التى لا تحرم قتل الانسان ، وانها تحرم أكله . وبينما صدرت هذه القوانين كان بعض الأوربيين يبيع للهنود الحمر سكاكين أكبر لكى يتمكنوا من ذبح الانسان بسهولة !

ولم تتوقف هذه الأعمال الوحشية الا عندما انتقلت الأبقار والجاميس والأغنام من أوروبا لكى تكون فداء للانسان من الانسان . . فماتت هذه الحيوانات من أجل أن يعيش الانسان يربها ويطعمها ويذبحها بعد ذلك !

كل عصر له خرافاته الخاصة!

كانت الملكة كاترين ممدتشي شديدة القلق .
وهذا طبيعي جدا ، فهذه ليلة زفافها . وكانت
إذا نظرت الى إحدى الوصيفات تسال عن شيء ،
ترد عليها الوصيصة وهي تضحك أو وهي تغمز
بعينها ، وفي كثير من الأحيان كانت الملكة تسال
قائلة : هل جاء الخاتم الـ ... وقبل أن تكمل
سؤالها يجيء الرد : نعم جاء الخاتم ذو الأربعين
فصا ..

وتسال الملكة : والصندوق الـ ..
فترد وصيفة أخرى : جاء الصندوق البيضاوى وبه كل
المجوهرات حتى الخنجر الذهبى المرصع بالماس .
وتقول الملكة : وهذا الذى يسمونه « عطر الحياة الأبدية » هل
هو أيضا .. ؟
— نعم يا مولاتى جاء وبكميات كبيرة تكفى لاسعاد ألف عروس
فى ألف ليلة .. !

— و —

— نعم جاء وهو الآن تحت المخذة ..

— و ..

— نعم يا مولاتى .. وأنا التى وضعت به بنفسى فى كأس الشمباتيا
التي سوف يشربها الملك قبل أن يدخل الى غرفتك .. اطمئنى فقد
اعددنا لسعادتكها الليلة كل شيء ..

— وهل نسيت ذلك الذى أهنته لى الامبراطورة لأشاوله قبل
النوم بلحظات .

— موجود يا مولاتى ..

ولم تكن الملكة كاترين دميتشى تريد أن تعرف كل هذه الاحتياطات
من أجل ليلة العمر مع أحد ملوك فرنسا . وانها كانت قلقة على
شيء آخر هام جدا .. ولكنها تخشى أن تبوح باسمه أمام الوصيفات
الايطاليات والفرنسيات .. وأخيرا تشجعت وقالت : هل جاء
الكاردينال .. ؟

وصرخت الوصيفات فى نفس واحد : طبعا يا مولاتى ..

وظهرت السعادة على وجه الملكة وأحس الجميع أن هذا الذى
جاء أهم من كل شيء سمعته حتى الآن . أما هذا الكاردينال فقد
حمل رسالة خاصة من ممها كليمنت السابع بابا الفاتيكان .

وقد وعد بها بهذه الهدية قبل زواجها . ولما حضر الكاردينال
ادخلوه نورا للفرقة الصغيرة المجاورة لسرير الملكة . ورمع
الكاردينال عباءته القرمزية ووضع علبة ذهبية كبيرة ، وفى داخل
العلبة الذهبية مسحوق نادر .

ان هذا المسحوق هو معالجة طبية لجزء من قرن خلعه من
رأس « وحيد القرن » الذى يبلغ من العمر سنتين ويومين !

هذا المسحوق مهم جدا . فالملكة اذا أحست بالسم قد وضعوه
لها فى طعامها ، فانها بسرعة تضع المسحوق على شرايها او
طعامها . وهذا المسحوق قادر على أن يمتص السم وتعيش الملكة .



وكان ذلك فى القرن السادس عشر فأوربا كلها تؤمن بأن تسرن
وحيد القرن قادر على شفاء الناس من أكثر الأمراض خطيرة .
ولذلك فهو هدية من بابا روما — وهى هدية أغلى من كل الهدايا
وأهم .. !

وحوانات أخرى سيطرت على الحياة الطبية فى أوروبا بعد
اكتشاف أمريكا . أكثر هذه الحيوانات خرافية .

ومن الملاحظ أن الانسان الأوروبى اتجه الى أمريكا ، بينما
الحيوانات الأمريكية قد اتجهت الى أوربا . وإذا كان كولمبوس قد
أهدى أمريكا ثمانية من الخزائير ، فان أمريكا قد أعادت الى
الخزائير الأوروبية طعامها ، بل أن أمريكا هى التى انقذت خزائير
أوربا . . فعندما كانت هناك أزمة اللحوم أو الطعام عموما فى أوربا،
انتقلت الذرة الى أوربا ، ولم تكن تعرفها قط . وانتقل سكر القصب
أيضا . صحيح أن أوربا هى التى نقلت قصب السكر الى أمريكا ،
ولكن أمريكا هى التى صنعت سكر القصب بكميات هائلة، مستخدمة
العبيد من أفريقيا فى هذه الصناعة الجديدة . وقد أدى ظهور السكر
فى أوربا الى كساد عسل النحل والنحل نفسه . وهذه هى أول مرة

في التاريخ نجد السكر الذي هو ناتج نباتي يطرد العسل الذي هو ناتج حيواني .

ثم ان الذرة والبطاطس وغيرها من الاطعمة قد ادت الى انقاذ حياة الملايين من الطيور والحيوانات التي اعتاد الناس في أوروبا ان ياكلوها . ولم تكن البطاطس هذه معسومة تماما في أوروبا . . وقد رأينا في القرن السابع عشر الامراء يتهادون بالبطاطس على انها شيء غريب عجيب . بل ان بعض الأطباء في ذلك الوقت قد امتى بتحريم اكل البطاطس لأنها تؤدي الى الامراض الخبيثة !

وظهر الديك الرومي في أوروبا ، قادما من أمريكا بكميات كثيرة . وربما قيل ان الديك الرومي ليس جديدا على أوروبا ، فالانجليز يسمونه الديك التركي . والانجليز عرفوه عن طريق الشرق الأوسط . ولكن النوع الذي جاء من أمريكا كان أضخم واكثر تنوعا ، وكان لظهور الديك الرومي اثره الكبير في الحياة الأوروبية . . في حفلات الامراء والنبلاء والملوك . ومن يرجع الى انب البسلاط في أوروبا يجد الديك الرومي صاحب الصفحات الأولى والعبارات الأولى على السنة الرجال والنساء . كان يقال مثلا : جميل الديك الرومي واجمل منه أن ينظر اليه الانسان في عينيك !

يقال هذا الكلام عادة لفتاة جميلة . ويكون رد الفعل التقليدي أن تحنى الجميلة رأسها ، وأن يتقدم صاحب الكلام ويحنى رأسه على يديها ويقلها . . ويمضي الكلام عن الديك وبقية الأطعمة . وينتهي مثل هذا الكلام عادة بأن تكون هذه الجميلة قد وقعت في غرام هذا الذئب الذواق للطعام والجمال !



ومع هذه الحيوانات الواردة من أمريكا ظهرت أمراض كثيرة .
فى مقدمتها أمراض الزهرى والسلان التى نقلها كولبوس ورجاله
الى أوربا — هذه حقيقة مؤكدة !

واطلق الانجليز عليها : الأمراض الفرنسية . والفرنسيون
وصفوها بأنها : أمراض انجليزية !

وفى مذكرات كولبوس نجده يقول مثلا : وفجأة شعرنا بظهور
دمامل .. وفجأة شعرنا بنوع غريب من النزيف . ولا نذكر طعاما
معينا ادى الى ظهور هذه الأعراض الغريبة !

ولم يكن كولبوس يعرف هذه الأمراض السرية ، فهى لا تجيء
بعد الأكل وانما بعد المعاشرة لنساء الهنود الحمر !

وحاول أحد بحارة كولبوس أن « يتفلسف » فوصف هذه
الأعراض ، ولكنه عندما أراد أن يجد لها سببا معقولا قال : بسبب
النبيذ الفاسد على الريق !

ولكن أهم ما ظهر فى الفكر الاوربي الانبى والحيوانى ان هذه
الرحلات الى العالم الجديد قد أدت الى ظهور حيوانات غريبة الأحجام
عجيبة الألوان . هذه الحيوانات يؤكد كل الفاس انهم رأوها
بنفسيهم . وانهم لم يسمعوا عنها من أحد . وكل كتب القرون الـ ١٥
و الـ ١٦ و الـ ١٧ قد فاضت بهذه الكائنات الغريبة . فمعثرات
المغامرين الكبار يقولون انهم رأوا الثقب الذى له رأس انسان ،
او الانسان الذى له رأس ثقب .. واتهم حاولوا صيده . واتهم
قتلوه ، ولكن جاءت ثئاب أخرى وحملت جثته ودفنتها فى ضوء القمر !

واكثر الناس رواية لهذه القصص هم البحارة . وهم يتفننون في وصف هذه الحيوانات المائية أو البرمائية (وأذكر اننا عندما ذهبنا الى البصرة بالعراق مهد « ألف ليلة وليلة » أعلن كثيرون من الانباء انهم شاهدوا عروس البحر . . شاهدوها واقفة وجالسة ، وانهم يقسمون على ذلك ؟ !) وكل بحارة القرن السادس عشر قد أقسموا على ذلك أيضا . وتؤكد بعض الكتب أن هناك نوعا من الأفاعى طولها ٥٠٠ قدم . وان هذه الأفاعى تلف حول السفن لمسحقتها وتبتلع ركبها واحدا بعد واحد . لماذا امتلات هذه الأفاعى بالطعام يستطيع الطفل الصغير أن يقتلها بقطعة حجر ! ولكن أين يكون هذا الطفل وكيف يمكن أن يقتلها ؟

ان الكاتب اولاس ماجنوس قد أصدر كتابا في سنة ١٥٥٥ يصف فيه الكائنات البحرية المخيفة . وقد خصص صفحات طويلة لهذه الأفعى الكبيرة

وفي القرن ١٦ ظهرت كتب تتحدث من عريس البحر — سمك على شكل رجل . وهذا السمك لا يأكل الا الزنوج والهنود الحمر . .

أما عروس البحر فلا تأكل الا البيض . . ويقال لا تحب من لحوم الاوربيين سوى لحم الاسبان ! واذا كان عريس البحر يأكل عيون الغريسة فان عروس البحر تأكل قلوبهم . . تماما كما أن سمك القرش يأكل الزراعين والساقين . . وهناك نوع خاص من السمك يقفز من البحر وبقدرة غريبة يستقر على جسم الإنسان . ويلتصق به ولا يأكل الا نهود النساء — الفتيات الصغيرات بصفة خاصة !

وربما كان هيروdot المؤرخ الاغريقى هو أول من وصف لنا طائر

« العنقاء » وقال أن هذا الطائر ينطلق كل خمسة قرون من شسبه الجزيرة العربية الى مصر الجديدة حيث مات أجداده . ويظل يبكى على أجداده في مصر الجديدة خمسة قرون ، ثم يعود بعدها الى شسبه الجزيرة العربية ، في مكان ما منها :

وتقول الكسب الأوربية في القرن ١٦ أو مؤلفيها رأوا العنقاء هذه . وأن العنقاء قد لفت حول عنقها شعبان ضخم . هذا الشعبان اذا نظر الى اسنان تحول الانسان الى حجر . . أو ما يشبه الحجر . ويسرعة ينقض الشعبان على الانسان يمتص دمه . أما العنقاء فتكون قد سلبته عينيه ! وقد صور الفنان الايطالى تشليني هذه المعاني وروى هو نفسه قصصا من هذا النوع ، ويقسم أنه رأى ذلك بعينه — كلهم يتسبون على ذلك ويطلبون منا أن نصدقهم !

حتى الفنان العظيم دافنشى يؤكد في مذكراته أنه رأى بعض هذه الحيوانات ، التى لم نعثر لها على اثر بعد ذلك . . ودافنشى ليس عبقرى مخرفا ، وانما هى حالة نشاط مجنون لخيال فنان عبقرى تجعله يرى ما يرى . . انها « حالة سريالية » أى حالة يطير فيها الفنان الى ما فوق الواقع — كما يقول عنه العالم النفسى الكبير فرويد . .

وشىء من هذا قد أصاب الفنانين والمفكرين بعد اكتشاف أمريكا . .

وقد ظهر عند الاطباء جنون جديد لعلاج كل الامراض . أو نوع من الطموح الطبى . فتوهموا أن هناك مواد نادرة لعلاج الامراض . من ذلك مادة في مخ الغزال . اذا عثرنا عليها ، كان الشفاء في أيدينا . . وأحيانا يستخرجونها من الحصوات في كلية الغزال . هذه المادة أطلق

عليها الفيلسوف العربى ابن سينا مادة : البادزهر . وهى شفاء من كل سم ومن كل مرض .

ومن العجيب أن الفيلسوف العربى ابن سينا ، قد شخص الكثير من الأمراض . وجعل مادة البادزهر شفاء لكل داء .. وهذه المسادة نادرة جدا ، ولذلك فكانت تساوى وزنها ذهباً .. أو أضعاف وزنها ذهباً . ولا أحد يعرف ان كنت تشفى حقيقة من كل داء . فالذين كانوا يتناولونها لم يقولوا لنا شيئا !

وظل هذا « الوهم » سائدا مئات السنين .. ولكن استطاع أحد الأطباء فى بلاط الملكة كاترين دمديتشي أن يثبت لها أن مسحوق قرن « وحيد القرن » ليس ترياقا يشفى من كل مرض . فقد وضع السم لديك ، ثم أعطى الديك هذا المسحوق السحري فمات الديك رغم ذلك .. ولكن أحدا فى بلاط الملكة لم يصدق هذا الطبيب « المخرف » .

ويقال أن البابا كليمنت السابع عندما قارب الوفاة تلفت حوله يسأل الكرادلة ان كان أحد قد وضع له السم — فمانحوا وبكروا وقالوا : أعوذ بالله ومن يجرؤ على هذه الخطيئة !

ولكن البابا كان يعلم طبيعة الانسان ، ان واحدا من الحواريين حول المسيح قد سلمه لاعدائه .. فليس غريبا أن يقتله واحد من الذين حوله .. وكان أحد الكرادلة أسرع الجميع الى مهم ما يدور فى رأس البابا فأسرع واتى بمسحوق القرن .. ووضعه فى كوب من الماء .. ثم وضع كمية أخرى .. وظهرت السعادة على وجه البابا .. وشرب الكوب ومات .. وقد اهتدى الأطباء بعد ذلك عندما أراحوا

ان يعرفوا سبب وفاة البابا ، الى أن السبب الحقيقي هو مسحوق
القرن السحري !

ومات البابا وسره معه .. ولكن الخرافات تعيش بعد ذلك اطول
عمرا من البابا ، لانها تنبع من جهل الانسان بما لا يعرف ورغبته في
ان يعرف بسرعة . وكل عصر من العصور له حقائقه الجديدة ،
واوهامه الجديدة .. فلا عصر بلا خرافات !



ذهب كل أرض ندوسها الأغنام!

يقال ان احدى اميرات الصين قررت ان تسعد شعبها . فظلت تفكر فى احسن الطرق . ولم تهد الى شيء . يقال نامت وقامت وهى سعيدة جدا . ماذا رأت فى نومها ؟ رأت دودة صغيرة تمشى بين اوراق الشسجر . ثم تاوى الى بعض الاوراق عندما يخرج من فيها خيط ناعم . . ونظل الدودة تفعل ذلك حتى يتكون من الحرير كفن تموت فيه هى التى دفنت نفسها . ثم بعد ان تموت تصحو مرة اخرى . . لتموت بعد ذلك . . وذهبت الأميرة الى احد رجال الدين تروى قصتها . طمانها رجل الدين قائلا : ستكون لك حماة قاسية القلب . تحاول ان تدفنك حية . ولكنها هى التى ستموت فى النهاية !

ولم تقتنع الأميرة بتفسير رجل الدين . غذهبت الى كبير الكهنة . وقال لها : ان الذى رايت فى نومك حقيقة . اذهبي الى الغابات وابحثى عن هذه الدودة ففيها سر الصين كلها !

وعثرت الأميرة على دودة القز ..

وأصبح دود القز سرا ملكيا منذ أكثر من أربعة آلاف سنة ..
وكانت للصين أعياد للحريير . يتهاذى فيها الناس دود القز وبعض
شرائق هذه الدودة العجيبة ..

وانتقل السر من قصور الملوك الى بيوت الشعب . وظلت الصين
تضن بهذه الدودة على كل الشعوب الأخرى وكان يكنى أن يقال أن
مواطننا أخذ معه بعض الدود خارج الحدود ليصدر قرار بإعدامه
نورا .

وتسللت الدودة الى كوريا .. ومنها الى اليابان . ومن اليابان
أصبحت صناعة الحرير ونسج خيوطه من أهم مخصصات الأسرة
المالكة .. ويقال أن الإمبراطورة إذا غضبت لسبب ما ، وكثيرا
ما كانت تفعل ذلك مما أدى الى قصف عمر زوجها ، فاتها تأخذ ديدان
القز معها وتظل تتأمل قدرة الله ..

ويقال أن إحدى الإمبراطورات كانت تنظم الشعر . ومما قالته :
« حياتى كهذه الدودة .. هادئة ناعمة راضية . وفى النهاية ماذا أنا
الذى أعمل وأنا الذى أغطى بأكفان من الحرير وأموت فى صمت
فالصمت حياتى والصمت مماتى .. ولاأحد يدري بذلك » مفهوم طبعا
أنها تريد أن تقول انها تتعذب وتعمل وتموت دون أن يشعر أحد
بوجودها — زوجها وأولادها طبعا . والشكوى من الرجل والأولاد
قديمة وتتجدد فى كل بيت ومن كل زوجة وأم !

ولم تعرف أوربا الحرير هذا الا بعد ذلك بألوف السنين .. فملايس
الإغريق والرومان بسيطة جدا . وعندما عرفوا الحرير كان ذلك شيئا
نادرا . ولم يقدر على شرائه الا الملوك والإباطرة . وفى نفس الوقت

كانوا يرون أن هذه الملابس الناعمة لا يصح أن يرتديها الرجال .
لأنها ناعمة لينة . ولا يصح أن ترتديها النساء لأنها تكشف الجسم .

وفي القرون السابقة على المسيحية لم يكن الرومان والافريق قد عرفوا الملابس الداخلية وأنها ظهرت هذه الملابس الداخلية عندما أقبل الرجال على النساء . وفي بلاد الافريق أيام الفلاسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو ، كان المثل الأعلى للجمال هو جسم الرجل والرجل نفسه . وفي هذا العصر انشغلت المرأة عن أرضاء الرجل . ولكن بعد أن اتجه إليها الرجل ، بدأت المرأة تخفى وراء ملابس داخلية وخارجية .. وكلما التفت الرجل الى المرأة أكثر عرفت الملابس الضيقة التي تكشفها وفي نفس الوقت تغطيها أيضا . فمع الميول الجنسية الشديدة عرفت المرأة الأتمشة الحريرية .. ولكن نساء الطبقة الغنية فقط . فقد كان الحرير غالى الثمن ..

ان الامبراطور يوليوس قيصر قد اشترى قمائشا حريريا ليزين به احد المسارح . ولكنه لم يجرؤ على ارتداء ملابس حريرية . لا يسمح بها لنفسه ولا لغيره . بل اتنا نقرا في احدى المحكمات من يقول :
ولكن كيف اصدق رجلا يرتدى ملابس حريرية .. انه ليس رجلا !

أما الامبراطور الشاذ جنسيا واسمه هليوجيبالوس السورى ، فقد ارتدى ثوبا من الحرير الأحمر في احدى الحفلات . والتفت اليه الناس بدهشة . ويبدو أن الامبراطور لم يلفت النظر بدرجة كافية فانسحب من الحفلة وارتدى الثوب على اللحم وراح يتمرغ على الأرض أمام النبلاء .

ولم يكن هذا الحرير الذى عرفته أوروبا في أوائل العصور المسيحية

قد جاء من الصين . انه نوع ردىء من الحرير . ولكنه غالى الثمن ..
اما الحرير الصينى فلم يظهر الا بعد ذلك بآلف سنة . ووصل الى
أوروبا من طرق مختلفة ..

فالامبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلادى قد اتفق مع
اثنين من الرهبان على أن يخفيا الحرير فى ملابسهما . وجاء الراهبان
وقد حمل كل منهما عصا مفرغة ، أخفى فيها بيضات الحرير . ودخل
الحرير الى بلاد الامبراطور وتولت زوجته الغانية الفاتنة المفاجرة
ثيودورا صناعة الحرير . فقد كان لها فى قصرها عشرات الحجرات
أعدتها لعودة القز . وكانت الامبراطورة تغزل الحرير . أو تأتى بمن
يستطيع ذلك . ويقال أن الامبراطورة ثيودورا قد تعاونت مع أحد
أمراء الحبشة على زراعة أشجار التوت فى تركيا القديمة . ونجحت
الأشجار وانتشرت صناعة الحرير فى ذلك الوقت . واحتكرت
الامبراطورة غزل الحرير وحرمته على كل الناس . وكانت الامبراطورة
تستعين بالمغنيات فقط فى تربية وغزل الحرير .

وكان من عادة الامبراطورة ثيودورا كلما فرغت من عمل ثوب
حريرى أقامت حفلة خاصة للهالك . وأتت بالراتصصات والمغنيات
ورقصت هى أمام الامبراطور فى ثوب من الحرير ثم أتت بثوبها وألقت
به فى برميل النبىذ .. وراحت تمشى عارية تعصر النبىذ فى أهواه
الضسيوف !

وكانت تسمى تلك الليلة « الحرير من النبىذ » .. أو « النبىذ من
الحرير » .. وكانت لهذه الامبراطورة أيام أخرى كثيرة . ولكن أروعها
هى ليلة : عصر الحرير !

وكانت هناك امبراطورة أخرى اسمها نيودويسيا . هي أول من ابتكر مسابقات الجمال في العالم .. او اخنيار ملكة الجمال . فقد كان لها ابن جميل وكانت تريد أن تختار له أجمل الفتيات . فكانت تدمو كل أسبوع أجمل عشر فتيات لبختار واحدة منهن . الفتيات جميلات طبعاً وقد ارتدت كل منهن فستاناً من الحرير . ويرحن ويجنن على ايقاع موسيقى . ومع الليل والموسيقى والشراب ترتفع اطراف الفساتين لتكشف كل منهم على أماكن الجمال . ويختار الفتى بنت الحلال ، ومن الغريب أنه لم يكن يفعل ذلك . ولم تكن الفتيات يضحكن بما لايفعل الأمير . فقد أسعدهن جداً أن يقع عليهن الاختيار وأن يتعريهن أمام أمراء وشبان آخرين ..

كل ذلك بعد أن تكون كل واحدة قد خلعت أكثر ملابسها الحريرية التي تدل على أنها من أسرة قادرة على شراء فساتين من الحرير الصيني !

وأصبح العالم كله يتحدث عن طريق الحرير ، أو طريق تجارة الحرير الذي يبدأ من بكين ماراً بالهند وإيران وتركيا .. وسوريا . وقد انتقل الحرير من شمال أفريقيا الى أوروبا في القرن الثامن عن طريق العرب . فالعرب أدخلوا صناعة الحرير الى إيطاليا وجزيرة صقلية والى اسبانيا . صحيح ان دودة القز لم تكن قادرة على الحياة في الأجواء الباردة . فماتت بالملايين . وكذلك أشجار التوت لم تتحمل البرودة والجديد فُخِبت . ولكن استطاع الإنسان أن يتغلب على هذه الصعوبات .

وقد شهدت أوروبا الملكة اليزابث وهي ترتدي جورباً من الحرير،

صنعتة احدى وصيفاتها . اسم الوصيفة أصبح ماركة للقمصان الانجليزية : مونتاجى . وكانت ملكة انجلترا تستورد خيوط الحرير من اسبانيا . وظلت انجلترا تستورد الحرير من اسبانيا فى أشد الظروف قسوة ، وفى نفس الوقت كانت انجلترا تحرم تصدير الصوف الى الخارج . . وبينما كانت اسبانيا تحتكر دودة القز كانت انجلترا تحتكر أغنام الصوف .

وفى سنة ١٥٩٨ أعلنت الملكة اليزابث فى احدى الحفلات الرسمية أن لديها ستة أزواج من الجوارب الحريرية . ويبدو أن هذا خبر شخصى جدا . ولكن الملكة أرادت أن تقول أن هذه هى البداية . . وسوف تظهر جوارب أخرى كثيرة ، ولم تظهر الا بعد ذلك بوقت طويل !

فى ذلك الوقت كان أحد المهندسين الإنجليز واسمه « لى » يعانى من أزمة حب شديدة . انه يحب فتاة جميلة . ولكن اذا ذهب اليها تنشغل عنه تماما . فيظل هو وحده يتكلم . وهى لا ترد . واذا ردت فأنها لا ترفع رأسها لكى يرى عينيه . أن عينيهما تركرتا على شيء فى يديها . أنها تغزل خيوط الصوف لعلها تصنع جوربا أو شالا . . ولكنها لا ترد . هو يحبها . وهى أيضا . ولكن الحب كلام ، ولا كلام بينها . أو هو الذى يتكلم وهى التى تسمع دون أن تقول شيئا . وانكسر قلب هذا المهندس . واختلى عن العيون سنة . ثم عاد يطلب مقابلة الملكة اليزابث وأذنت له . وقدم لها جهازاً من اختراعه يعلى المرأة من غزل الصوف بيديها . لانه لا يريد حبيبته أن تفعل ذلك . وان تتحدث معه بعض الوقت . وقالت الملكة : كنت أظنك قد اخترعت شيئا لغزل الحرير .

وقال المهندس : اعمل ذلك حالا !

اختفى المهندس سنة ليعود الى الملكة بجهاز جديد لغزل الحرير حتى لا تنسغل عنه حبيبته . ولكن الملكة لم تفرح بذلك . لان هذا الجهاز سوف يجعل الحرير في متناول كل الناس . وهى تريد الحرير خاصا بها وبالاسرة المالكة . ثم ان مغازل الحرير او الصوف سوف تؤدي الى تعطيل الوف الأيدي العاملة . فذهب الرجل الى فرنسا يعرض اختراعه الجديد . ولكن فرنسا كانت مشغولة في الأحداث التي أعقبت اغتيال الملك هنري الرابع . . وزاد حزن الرجل وعاد الى حبيبته فوجدها تتكلم وتنتظره . . انها الآن لم تعد تغزل لا الصوف ولا الحرير — لقد فقدت بصرها !

وفي عصر لويس الثالث عشر عرفت فرنسا التتشف والبهذلة في اللبس . وكان هذا الملك متشددا ، مخرب مغازل كثيرة في معظم المدن الفرنسية . . وتشرذ الدود على الشجر . وماتت الشرائق وطرد الحرير من بلاد الاتاكة !

ولكن أعيدت كل هذه الصناعات بعد ذلك . وأعلن الكاردينال ريشليو : انه من الحماسة أن نحرم على أنفسنا ما أراد الله لنا من جمال — أعيدوا الدود الى الشجر ، والحرير الى الأزياء !



واذا كانت « دودة القز » هذه قد زحفت من آسيا ، فان « الأغنام » أيضا قد جاءت من آسيا ، ولكن في عصور قديمة جدا . وربما كانت

الأغنام أكثر الحيوانات هجرة من مكان الى مكان .. ففى كل عصور التاريخ كان هناك رعاة ، لان الأغنام قد سبقت الانسان .. ولكن الأغنام التى ظهرت فى أوروبا كانت ضئيلة الحجم وكان شعرها خشنا جافا . أما الأغنام الجيدة فهى التى جاءت من آسيا ، ومن شبه الجزيرة العربية بصفة خاصة ..

وظلت هذه الأغنام يختلط بعضها ببعض حتى كان هذا النوع الأسباني الشهير باسم مرينو . وهذه الأغنام وصلت الى أسبانيا تماما كما وصلت دودة القز عن طريق شمال امريكا .. وبوصول الأغنام الى أسبانيا بدأت حرب الخيوط بينها وبين بريطانيا .. خيوط الحرير وخيوط الصوف .. احتكرت أسبانيا الحرير ، واحتكرت بريطانيا الصوف . وبدأت معركة السيادة على الأسواق .. ومعركة السيادة على البحار . واهتدت بريطانيا الى أنه من الأفضل أن تنقل الأغنام من بلادها الى المستعمرات . فانتقلت الأغنام الى المراعى الأكثر غنى فى مستعمراتها . وفى عصر حرب الخيوط ، أكلت الأغنام الأرض المزروعة .. بل إن الناس فى بريطانيا كانوا يقتلعون الأشجار ويتركبن الحشائش غذاء للأغنام التى تعيش عليها بريطانيا . بل إن رجال الدين الانجليز كانوا يخطبون فى الكنائس يطلبون من الله أن يرفع عنهم لعنة الأغنام التى أكلت الأشجار وحولت المدن الى مرعى تأكل عليه .. وكانوا يقولون : أن الله خلق الأرض للانسان فتركها الانسان للأغنام . فاستحق الانسان لعنة الله !

وكان الناس يقولون : ذهب كل أرض تدوسها الأغنام !

ولما اهتدت بريطانيا الى أماكن أغنى وأدنا خارج جزيرتها ، انتقلت اليها الأغنام . وعادت الزراعة الى الأرض . وعادت الأرض الى الانسان !

واخترع الانسان الآلة لتعاون دودة القز وتعاون الأغنام ..
ثم عاد الانسان يخترع اجهزة أخرى لتأخذ مكان الديدان والأغنام،
عندما اخترع الخيوط الصناعية ..
ولكن لا تزال هذه المنتجات الطبيعية — خيوط الحرير وخيوط
الصوف وخيوط القطن — أروع وأجمل ..
ان دودة صغيرة ضعيفة قد طردت أمامها ملايين الأغنام . فما أكثر
ما تفعله دودة في حياة الانسان .



الحاديحية لتعليم الإنسان كيف يكون عصانا نبيلًا !

لم يفهم القاضي طبيعة الخلاف بين رجل
وزوجته . وعاد يسأل الرجل :

ولكن لماذا أصبح هذا الخلاف حادا الى هذه
الدرجة . اليسست هي زوجتك !

يقول الرجل : بلى واحبها !

تقول الزوجة : كذاب يا حضرة القاضي ! كان
يجبني فيما مضى . اما الآن فلا . . ضحك على
حتى جعلتني أترك أهلي وديني . وبعد أن تمكن
منى ، وصلنا الى ما نحن عليه .

يقول الرجل : ولكن ما الذى نحن عليه . . انه خلاف اخترعته .
وهى التى طلبت أن أجىء اليك وأن تكون مشاكلنا فضائح . لماذا
أصبحت لفضائح ضمنت أنا أمام الراى العام . ولكن لن أغير موقفى .

يقول القاضي : كنت تحبها ؟

— نعم . ولا أزال .
هى تقول : كان يحبني !

القاضى : فى وقت من الاوقات كلن هناك حب .. ومفجأة تغير كل
شئ .

الاثنان يقولان فى نفس واحد : نعم ! .

القاضى : منذ متى ؟

الاثنان : منذ أسبوع .

القاضى : وانتما متزوجان منذ متى ؟

الاثنان : منذ أسبوع !

والقضية ليست عاطفية . وانما جلس هذان الزوجان من أبناء
البرتغال يحلمان بعدد الأطفال الذى سوف يكون . قالت الزوجة :
أريدهم جميعا من البنات . وقال الرجل : بل من الأولاد ..

واتفق الاثنان على أن يكون ثلاثة من الأولاد واثنان من البنات .
وجلس الزوجان يحلمان ويفكران فى أحسن الأسماء . وقالت الزوجة :
أنت الذى تحسن الكلام والتعبير . وهذا هو الذى جعلنى أموت فبك
هياما .. أنت تختار الأسماء . أنا آتى لك بالأولاد والبنات وأنت
الذى تسمى هذه الذرية الصالحة أن شاء الله ..

ومفجأة صرخ الزوج : وجدت الأسماء ..

وسمعت الزوجة الأسماء وصرخت . ولعلبت خديها . وثسقت
ثوبها .

وقالت : الطلاق .. لا حياة معك . أنت رجل مجنون !

أما لماذا هو مجنون فقد اختار هذه الأسماء لأولاده : النمر ..
الفيل .. الخريت — للذكور . أما الإناث : الغزالة .. النسفاة ..

ولم يكن الرجل يداعب زوجته . ولا يريد أن يطلقها . وإنما هو
« ابن عصره » . وفي ذلك العصر انشغل أبناء أوربا بالحيوانات
القادمة من الشرق . وراوا فيها أجمل وأروع ما خلق الله .

صحيح أن كولبوس اكتشف أمريكا ولكنه فتح أبواب الشرق : إلى
أفريقيا وآسيا .. وإلى الهند .. وأصبح كل الذين يرتادون الطرق
إلى الشرق السحري ، أهم من الذين يزحفون على أمريكا ، بل إن
الرحلة فانسكو داجابا أهم من كولبوس .. وأفريقيا أهم من أمريكا
.. وهزيمة الأسطول التركي في المياه اليونانية ، أروع عند الإسبان
من كل معاركهم وفتوحاتهم .. وأصبحت هدايا قبائل أفريقيا أعظم
وأغلى عند أهل البرتغال من كل ما يجيء من مستعمراتهم الكبرى :
البرازيل ..

وفي القرن السابع عشر أعلن أديب إسبانيا العظيم سرفانتس : إن
مدينة لشبونة هي مركز الدنيا . إليها يجيء الذهب . ومنها يخرج
الرجال إلى مجاهل الشرق الساحر الباهر ..

وأصبح من مظاهر الثراء عند الناس في أوربا أن يستعرض كل
منهم ما لديه من حيوانات غريبة .. فكان الذي يمشي في شوارع
مدريد يرى الحيوانات من نوافذ البيوت .. ويرى الطيور الملونة ..
وبسرعة تحولت القصور إلى حظائر للحيوانات الأمريكية ..

ومن الغريب أن هذه الحيوانات لم تظهر في لوحات الفنانين . ولكن
في حالات نادرة ظهرت بعض الطيور بألوانها الزاهية .

وكانت أشهر الحيوانات التى لفتت الأوربيين وشغلت الصيادين:
الأسد والفيل والنمر والضبع والنعام والخرتيت .

وكان الإمبراطور الألماني فريدرش الثانى (١١٩٤ — ١٢٥٠) من
أكثر الناس حبا للحيوانات . وكان يقيم لها حديقة ملحقة بقصره .
وحقائق الحيوانات عادة استعارتها أوروبا من ملوك الشرق .

وبعد ذلك تعود الناس فى أوروبا أيضا أن يجدوا حدائق للحيوانات
ملحقة بقصور الملوك والتبلاء . وربما كانت أشهر حدائق الحيوان
فى أوروبا يملكها البابا بيوس العاشر (١٨٣٥ — ١٩١٤) وهو واحد
من أسرة مدينتى الشهيرة العريقة . وكان هذا البابا يحب الحيوانات
ويرعاها ويدعو الى الرحمة بها والعطف عليها . وكان يعطف على
الفنانين . « فالفنان حيوان يحب الحيوان . لانه يحب الحياة وجمال
الحياة وحكمة الله » .



وحدث قبل ذلك عندما زار البابا بيوس الثانى (١٥٠٤ — ١٥٦٤)
أحد النبلاء من أسرة مدينتى أن أقام له موكبا فخما . وجعل الحيوانات
تتقدم هذا الموكب . ووقف الناس يتخرجون على هذه المخلوقات
العجيبة . وكان عدد هذه الحيوانات كبيرا . ولكن لم تكد الأسود
ترى بعضها البعض حتى أفلتت من قيودها . وتحولت الى أشلاء
ودماء . . الا زرافة . هذه الزرافة كانت هدية من أحد سلاطين
ممالك مصر الى أسرة مدينتى . ويقال أن أحد الشعراء قد
ارتجل قصيدة عندما جاءت هذه الزرافة الى مدينة تلورنه .

يقول في قصيدته : طال كل شيء عليك . عنقك وسيفك
الأربع وأذنك وأنفك .. أما عينك فهما مسروقتان من
وجه حبيبتى .. أما لونك فمستعار من براكين صقلية .. أما
مقامك العالى فلا يعيبه الا أن رأسك صغير وعقلك أيضا .. ولكن
ليس من الضروري أن يكون الجميل عاقلا .. يكفى أن يكون الجمال
والجميل أكبر لصين لكل العقول » .

وهناك يوم في تاريخ الانسان أو في تاريخ المغامرات أو في تاريخ
الحيوان لا ينساه أحد عندما أرسل ملك البرتغال مانويل هدية الى
بابا الفاتيكان بيوس العاشر . الهدية : فيل واثنان من النمر وضبع
قد ركب حصانا عربيا . أما الخرتيت الذى أرسله الملك مانويل فقد
فرقت به السفينة في البحر الأبيض .. ويقال أن الخرتيت ظل يضرب
السفينة حتى خرقتها واندفعت المياه . والتى الخرتيت بنفسه في
البحر ..

ومشى الموكب في شوارع روما .. والناس يتفرجون على أعاجيب
الهدية الامريكية . ودقت أجراس الكنائس .. ووقف البابا يشير
الى أن تضرب المدافع .. وانطلقت المدافع ووقف الفيل على رجليه
الخلفتين ورفع زلومته الى أعلى يحيى البابا والكرادلة أمراء الكنيسة
.. وبسرعة تقدم أحد الحرس الملكى البرتغالى بثلاثة جرادل من
الماء المعطر .. ووضعها أمام الفيل .. ومد الفيل خرطوميه وملاه
بالماء وراح يرش البابا والكرادلة والناس يصرخون من الفرحه ..
وكان يوما مشهودا في تاريخ الحيوان ، والعلاقة بين عرش البرتغال
وكنيسة روما !

وأرهب رجال الدين أنفسهم في شرح ما حدث . تملوا : ان الفكرة

هى أن يدرك الانسان بوضوح أنه مهما كانت الحيوانات قوية ، فإن الانسان هو الأقوى بذكائه . أن هذه الحيوانات قادرة على سحق أقوى الرجال ، ولكن الحيلة تغلب القوة . والفكاء يقهر الوحوش . .
فهذه الحيوانات كلها قد احتال عليها الانسان وأتى بها من غابات لتكون ذليلة ذلولاً أمام أصغر الأطفال . ثم أنها مخلوقات الله . ومن الواجب العطف عليها ومحبتها !



وأول مظهر من مظاهر الحب والعطف والاعجاب كان بالحصان . ان تاريخ الحصان والانسان طويل . فالحصان في العصور الوسطى كان « أداة » عسكرية يركبه الجندي المغطى بالحديد ، ويتغطى الحصان بالحديد ، ويدخل الاثنان المعارك حتى الموت - الحصان هو الذى يموت غالباً . وكان من الصعب على الانسان أن يرى ملامح الحصان فهو مثل دبابة ذات أربع أرجل . ولكن أحداً لم يلتفت الى جمال ورشاقة هذا الحيوان النبيل . فهو وسيلة لشيء ، ولم يكن غاية . فلما أخذت فكر فيه ، أو التفت اليه . . أو نظرت الى تركيبه الجسمي الجميل أو الى خطوته . . وانما كان الحصان مصفحة أو قذيفة يركبها المقاتل .

ولكن بعض النبلاء الإيطاليين في القرن السادس عشر ثبّه فجأة الى أن هذا الحيوان الجميل . يقول النبيل الإيطالى مديريكو جريسوني في مذكراته : « كل شيء حدث فجأة . وكأنتى لم أر الحصان فى حياتى قط . . لقد نظرت اليه . . وتأملتة . . وأحسست كأنتى نبى مكلف باتقاز هذا الحيوان من الانسان . . فهذا الحيوان شكله جميل ،

وخطوته قوية ناعمة . وحركته رشيقة .. وهامته مرموعة .. انه واحد من النبلاء هجر حياة الانسان واحتبس في هذه القلعة الفخمة من اللحم والشحم . ان هذا الحيوان أسير، وأنا الذى سوف أحرره»

وبدا النبيل جريسونة يعلم الحصان كيف يخطو . وكيف يقفز من فوق الحواجز .. وافتتح مدرسة لتعليم الخيول . أو على الأصح ليعلم الناس كيف يعاملون الخيول، بما تستحقه من التقدير والاحترام والحب ..

وانتشرت اخبار هذه المدرسة . وجاء النبلاء . وجاءت الخيول وتعاقد الانسان والحيوان في اطارات من الحركة الجميلة . ويمكن أن تسمى هذه الحركة الفروسية : أى أن يكون الانسان فى سمو الحصان وفى جماله .. وان يكون شهما نبيلًا . محبا للحياة والحيوان والانسان ..

ومن بعده جاء رجل ايطالى آخر اسمه بنياتلى . هذا الرجل هو الذى وجه الدعوة الى بلاط الملوك والامراء وهو الذى وجد الشجاعة ليقول : « مولاي » صاحب الجلالة يجب الا يكون القصر الملكى زريبة للخيول . وانما يجب أن يكون مقرا شتويا وصيفيا لعدد من الاصدقاء الأوفياء لهم أربع أرجل وذيل وعنق وبشرة حريرية لامعة .. يجب أن يكون النبلاء والامراء اصدقاء للخيول ، أى اصدقاء لطراز من الكائنات تعلمت منها معنى الشرف والشهامة والشجاعة والجمال والاثانة .. مولاي صاحب الجلالة .. ان كل قصر يقسم خيولا تاكل وتشرب من أجل أن تموت فى القتال ، ليست الا مجزرة الازريبة ملكية .. مولاي أنت حر فى اختيار أصدقائك وأصفيائك .. ولكن

يجب ، يا مولاي ، ألا تنسى هذه العبارة التي تعلمتها من الخيول : قل
لى كيف تعامل حصانك أقل لك من أنت .

وجاءت الخيول بالمشات والنبلاء بالآلوف الى « أكاديمية تعليم
الانسان كيف يمشى كالحصان » فى مدينة نابلى الإيطالية . وكان
بنياطلى يعلم الخيول كيف تمشى على الايقاع الموسيقى . وكب
ترقمس وحدها . . أو قد امطأها أحد النبلاء . . أن عصرا من احترام
الانسان للانسان أو للحيوان قد بدأ . . وكانت البداية هذه المعاملة
النبلية لحيوانات أكثر نبلا هي : الخيول !



ولاسباب متعلقة بمزاج الشعب الأسباني ، لقيت الثيران نوعا
آخر من المعاملة . فمصارعة الثيران قديمة جدا لدرجة
أن علماء الآثار يجدون نقوشا على الكهوف القديمة لثيران قد أصابها
السهم . رهى تنزف وتجرى . . والانسان لم يظهر فى هذه النقوش .
اما لأنه من المفهوم أنه هو الذى أصابها ، أو لأن رسام النقوش أراد
أن يقول أن الثيران كانت أسرع منه فى الهرب لدرجة أنه لم يستطع
أن يلحق بها فيظهر فى هذه النقوش !

ويقال أن هذه الثيران متعددة الأصول . بعضها ثيران أوربية
وحشية . . وبعض هذه الثيران جاء من أفريقيا . . ومن مصر . وبعض
الثيران تشبه الأبقار الفرعونية القديمة .

وقمص ، الثيران ونوادرها فى تاريخ أسبانيا والبرتغال كثيرة جدا ،

ولانتزال .. يقال أن الملك الفونسو السابع ، أحد ملوك البرتغال أقام مصارعة للثيران بمناسبة تنويجه . ولم يكتف بالدماء التي سالت في هذه الحفلة ، فقرر أن يتولى هو إطلاق السهام على عشرين ثورا حتى قتلها والجواهر سعيدة بهارة ملكها !

وعندئذ ولد للملك الاسباني كارلوس الخامس ابنه فيليب الثاني سنة ١٥٢٧ قرر الملك بهذه المناسبة السعيدة أن تقام مصارعة للثيران . وان يكون هو فارسها الأوحده . وظل يقتل من الثيران حتى همسوا في أذنه بأنه لم تبق في المملكة ثيران . قال : انن تؤجل الحفلة يا سادة الى أن تجيء ثيران أخرى من بلاد أخرى !

ويقال أن السياسي الإيطالي الكبير الاسباني الاصل شيزاره بورجيا (١٤٧٦ — ١٥٠٧) قرر أن يتسلق في إحدى الليالي . وكان له عشرون ثورا في إحدى القلاع .. فظل يطلق عليها السهام حتى قتلها في ليلة بدأت بغروب الشمس حتى مطلعها . فنقلوه الى فراشه مرهقا وهو يقول : لقد كان عملي شاقا هذه الليلة !

وكان من عادة النبلاء في أسبانيا أن يصارموا الثيران وهم على ظهر الخيل . حتى اذا هاجمتهم الثيران أنلحوا في الهرب منها . وفي عصر الملكة ايزابيلا غطيت قرون الثيران . ولكن الجواهر لم تسعد بذلك .. فاهتدى الاسبان الى طريقة جديدة تجعل قرون الثيران حادة محببة لكي تكون مفزعة لمصارعي الثيران والمتفرجين ..

وفي البرتغال كانوا يضعون طبقة من الجلد على قرون الثيران .. وعلى الرغم من أن مصارعة الثيران نوع من الرياضة العنيفة ،

فان شكلها اقرب الى الصيد منه الى الرياضة.. فالمصارع لا يداعب
الثور بعنف ، وانما هو يصيده ، ويقتله في النهاية .. فهم يضعون
الثور في حظيرة مظلمة لبضعة ايام ثم يفتحون الحظيرة فجأة ويخرج
الثور الى النور . ثم يجيء من يمسك له غطاء أحمر داميا .. ثم من
يضربه بالرماح .. ثم يصيب كتفيه ويسيل دماؤه .. كل ذلك لكي
يثور الثور . فاذا ثار وهاج ، تقدم الفارس أو « المتادور » —
ومعناها الجزار — وراح يعاكس الثور ويدور به حتى يدوخ . فاذا
داخ انقض عليه .. ومن العجيب أن الثور يخرج من الحظيرة مرهقا .
وكانه يعرف ما سوف يحدث له ، فانه لا يريد أن يشترك في صراع مع
أحد .. بل انه يريد أن يهرب من النور الى الظلام ، غير أن باب
الحظيرة قد أغلق .. وليس له إلا أن يقاوم ، وهو مرهق تماما ..
فكان المصارع قد خرج يصارع حيوانات مكدودة . ولكن الجباهير
تصرخ .. وأحيانا الأعمرة النارية .. ولابد أن يقتله ، سواء صارعة
أو لم يصرعه .. لان الجباهير لا ترضى بما دون الدم وموت الثور .
والرقص والغناء للبطل الذي قتل الثور أمام ملايين العيون في كل مكان .

وأصبحت مصارعة الثيران مهنة . حرفة .. غالية الثمن ..
ومربحة . وأصبح للثيران تاريخ . وهم يحرصون على اختيارها
وتربيتها . وهم لا يطلقون سراح الثور بعد المعركة ، ولا يحيلونه الى
التقاعد ثم يأكلون لحمه بعد ذلك .. لابد أن يموت !

وحاولت أسبانيا كثيرا أن تشغل الناس بمصارعة الديوك ..
ولكن هذه المصارعة موجودة في المستعمرات الأسبانية القديمة ..
نجدها في الفلبين ، وبعض الجزر الآسيوية .. وهذه المصارعة تلقى
نفس الاهتمام ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يقيم مصارعة للثيران لأنها
غالية الثمن .. ولكن هناك مقامرات على الديوك التي تشترك في

المصارعة او فى القتال .. ويضعون الامواسى والسكاكين القاطعة
فى ارجل الديوك . فلا يكاد يبدأ الشجار بين الديوك عندما ترتفع فى
الهواء وتضرب الخصوم بأرجلها ، حتى تسيل الدماء ..

وبقيت مصارعة الثيران هى « الرياضة » العنيفة التى يقبل عليها
الأسبان .. ويعرفون تاريخ ثيرانها وابطالها .. هؤلاء الأبطال الذين
اتاروا الفزع بين المتفرجين : وفازوا بالمال والمجد فى النهاية ، من
مئات المسنين ، وحتى اليوم !



من يعرف الإنسان كثيرا يحترم الحيوان أكثر !

• على باب إحدى خلايا النحل وقف رجل انجليزي في دهشة • وانتهت دهشته بان صرخ ، فقد لسعته نحلة • وعاد الى البيت ليقول : شيء فظيع • كذب كل ما قاله الشمراء • الحقيقة شيء آخر • ان هؤلاء الشمراء قد اخروا الحضارة الانسانية الوف السنين • لو استطيع ان اجمعهم في مكان واحد واطلق عليهم النحل • لو استطيع تلك لأرحمت الانسانية كلها ! • •

ولم يستطع هذا الكاتب مندفل أن يحشر الشمراء في خلية واحدة ويستريح منهم • ما الذي حدث لهذا الكاتب الانجليزي سنة ١٧٢٠ ؟ لقد رأى إحدى خلايا النحل • ووجد بها حركة ونشاطا عظيما • ونجاة وجد النحل يتزاحم على دبور ، طردوه • ثم عاد الى الخلية • طردوه وعاد مرة ثانية وأخيرا تكاثرت النحل عليه • وسقط الدبور ميتا !

واندهش الرجل كيف يحدث هذا في مملكة النحل • كان رأيه مثل

الشعراء انها مملكة تصنع العسل بالدموع . مملكة تكرم المرأة وتقبلها حاكمة عليها .. وان خلية النحل تطعم الملكة لتكبر الملكة ويتحول الجميع الى خدام لها .. كل ذلك يتم في هدوء وسلام .. والنتيجة عسل . ولكن هذا الحادث الاليم جعله يعاود التفكير في احوال هذه الخلية .. وأصدر الكاتب الانجليزى كتابا عنوانه « خلية النحل او كيف تتحول الرذائل الشخصية الى فضيلة عامة » يقول:

هذه الخلية قائمة على الظلم . فالنحل المشغال يعمل . وهناك انواع اخرى من النحل لا تعمل . وانهم تدور حول الملكة وتحميها وتتابعها . النحل المشغال يجمع الرحيق من كل مكان ويفرزه ولا يذوقه . والملكة لا تقوم بأى دور سوى أن تأكل وتشرب وتبيض ويقول في كتابه ايضا أن النحل طلب من آلهة الافريق أن تعاونه ولكن الآلهة تعبت من انتقاد النحل من نفسه وخربت الخلايا وماتت الملكة واحترق النحل المشغال . أما الدبابير فقد أوت الى جذع نخلة وعاشت أياما لثموت بعدها بقليل .

وهاجت الحكومة الانجليزية ولعنّت هذا الكتاب واتهمت المؤلف بأنه يريد امساد الاخلاقيات العامة .. وانه يهاجم النظام الملكى .. وانه يريد أن يشوه كل شىء جميل فى هذه الدنيا .. وانه هو الذى يقوم بدور الدبور وانه سوف يلقى نفس المصير .. ولم يلقى الرجل نفس المصير ، وانما عاش الكتاب بعد ذلك مئات السنين كصورة جميلة لمحاولة اصلاح الانسان !

وبعد ذلك بسنوات ظهر تسييس ايرلندى اسمه سويت . وقد وضع فى جيبه نسخة من كتاب مطبوع تحت اسم مستعار ، اسم

ابن أخيه . الكتاب اسمه : « رحلات في بلاد بعيدة لجيلفر » ، كان طبيبا
أول الأمر ثم بحارا لعدة سفن بعد ذلك . . « ومن مغامرات جيلفر
هذا أن سفينته قد رست عند أرض سكانها من الخيول أن الخيول
أذكى وأشجع وأعقل وأكثر نبلا . ولكنها تجد صعوبة في الكلام . وفي
هذه الأرض سمع عن حيوان منحط غبي . وأن هذه الخيول
تحاول أن تروضه وأن تعلمه ولكن يبدو أنه لا أمل في ذلك . . هذا
الحيوان الذي تسميه الخيول « ياهوه » ليس إلا الإنسان نفسه !

كان جيلفر يريد أن يقول : أن الإنسان ليس أسمى الحيوانات .
وانما هو حيوان من نوع ردىء ولكنه لن يتأكد من ذلك إلا إذا سافر
إلى بلاد أخرى .

وعلى الرغم من أن رحلات جيلفر من أروع الأعمال الأدبية
والفلسفية ، فإن هذه الرحلات قد أصبحت قصصا للأطفال ذات
دلالة أخلاقية . أو ذات مغزى فلسفى . . ولكن رغم ذلك من الأعمال
الأبقى والأمتع .

وقبل هذه المقارنات الساخرة بين الإنسان والحيوان ، أو بين
الإنسان والحشرات ، وجدنا في عصر النهضة تساؤلا استغرق مئات
السنين : لماذا نجد الإنسان يقتل الإنسان ، أن الحيوانات لا تفعل
ذلك ؟ أيهما الحيوان : الإنسان أم الحيوان ؟

وكانت الاجابات كثيرة .

ومن بين الاجابات في عصر النهضة ان الإنسان حيوان لانه قليل

الدين . ولو عرف الدين ، لارتفع بالايهان عن مستوى الحيوان . ولكن
الانسان حريص على كثره ، فأصبح هذا الحيوان الكريه . وان
الانسان قد حلت به لعنة الخطيئة الاولى . خطيئة آدم في الجنة عندما
اكل من الشجرة التي حرمها الله عليه وعلى زوجته .

ثم ظلت المقارنة بين الانسان وبين الحيوان فترة طويلة . فاذا
أراد الانسان أن يفهم نفسه نظر الى هذه الحيوانات . لان هذه
الحيوانات ليست الا نوعا من الانسان عاجزة عن التعبير ولانها
عاجزة عن التعبير فهي عاجزة من الكذب واخفاء مشاعرها . فهي
أصدق من الانسان . أي أن الحيوان هو الانسان قبل أن يتعلم
الكذب . فالحيوان أفضل من الانسان .

واكن المعنى في كل عصر النهضة الاوربية هو هذه العبارة
البليغة التي قالها الفنان بأوبوتس من ألوف السنين : الانسان
ذنب لأخيه الانسان
Homo homini Lupus .

وحتى عندما قال الفيلسوف العظيم أرسطو : أن الانسان حيوان
سياسي
Zoon Politikon
لم يكن بذلك يرفع من قدر الانسان وانما أراد أن يقول أنه حيوان
لايستطيع أن يعيش بمفرده . ولكن لابد أن يعيش مع الآخرين وبهم
والحيوانات تفعل ذلك أيضا !

فقط عندما ظهر الساخر الفرنسي الكبير مونتني بدأ الفكر الانساني
كله يتجه ناحية أخرى . فهذا الفيلسوف الفرنسي يقول : لا أظن
أن الانسان أفضل من الحيوان . انه أخط من الحيوان . واعتقد

اننى تجنيت على الحيوان عندما وصفته بأنه منحط . فالانسان هو الذى قال انه أسمى من الحيوان . وهو قال ذلك لأنه مغرور فقط .

فلا توجد صفة واحدة عند الانسان لا نجد صفة افضل منها عند الحيوان فالحيوان أقوى وأشجع . واكثر تضحية من أحل الزوجة والابن . أن ذكور الذئاب تغدى انائها وصغارها بالموت في مقدمة القطيع ودفاعا عن الجميع . . وان الحيوانات أكثر نبلا من الانسان . . ان الطيور تفرغ بطونها في بطون صغارها وتكاد تموت من الجوع . . ان الاسد يصيد الفريسة ثم يتركها لبقية الحيوانات في المغابة ويجد المتعة الكبرى في أن يرى الجميع تفعل ذلك . . أرونى حاكما يفعل ذلك من أجل شعبه !

ثم أن الحيوانات محبة للسلام . انها لا تشن الحروب . ولا تعتدى على أحد . كل ما تريده هو أن تظل في مكانها تأكل وتشرب في هدوء . . الا اذا هاجمها أحد . ويكون هذا الاحد هو الانسان عادة . فهو الغاشم المعتدى والحيوانات هى الضحية !

واذا اشتبكت الحيوانات مع الانسان في عراك فلبعض الوقت ، وبعد ذلك تهدأ أو تسكن كأن شيئا لم يحدث ، وكأن دماء لم تسيل ، وكأن صغارا لم تمت .

وتوجد حيوانات يساعد بعضها البعض . . يقول مونتني : انه رأى عددا من الطيور المهاجرة قد تقاربت وتلاحقت لانها تحمل طائرا مهيبض الجناح . ورأى هذه الطيور تقوم بعملية نذكلك لبعضلات الطائر . . فهى تشد ريشه بمنقارها . . ثم ترخى هذا الريش مرة

بعد مرة .. ثم تبلل جراحه بريقتها .. يوما بعد يوم .. حتى تمكن الطائر من الارتفاع في الجو .. ولما لم يستطع أن يطير ، عادت لحملته على أجنحتها وركبت الهواء !

ويروى الفيلسوف مونتني أن هناك حيوانات لها فكاهة الإنسان . ولها خبئه أيضا . ولكن الإنسان قد تفوق على الحيوان بخياله وقدرته على الإبداع ..

والفضل الوحيد للفيلسوف الفرنسي مونتني هو أنه لفت العيون والانتباه إلى الحيوان وإلى الإنسان .. وإلى تقريب المسافة بين الاثنين .

وأهم من ذلك يقول مونتني : كل ما عملته هو أنني سحبت الإنسان من أفقه ووضعته في أنفاس الحيوان وتركته هناك . ثم نظرت إلى الناس جميعا لأقول لهم : تعالوا نختبر فكاهة جميعا : أين هو الإنسان وأين هو الحيوان !

ومونتني هو أول من وضع أسس « علم النفس الحيواني » أو علم نفس الحيوان .

وكثير من أفكار الفيلسوف الفرنسي مونتني ليست جديدة ولكنه استطاع بسخريته الشديدة ونكاته الحاد أن يضعها في عبارة جميلة .

ولكن هل للحيوان « نفس » كالتي للإنسان ؟ هل الإنسان فقط

هو الذى له نفس وله روح .. أى أن الحيوان بلا نفس ولا روح
وانها مجرد حياة : أن يولد ويكبر ثم يموت دون أن يدري من هذه
الدنيا شيئا ؟

مفكرون كثيرون قالوا : الحيوان ليس له نفس .. الانسان فقط
هو الذى له نفس عاقلة . انه يتكلم . يكتب . يتخيل . أما الحيوان
فليس له نفس . وإذا ضربته على رأسه لمن يقول : آه .. وما دام
لم يتوجع هكذا فليس له احساس !

وهناك فرق كبير جدا بين كلب يقف أمامك يلعب بذيله يريد منك
قطعة لحم ، وبين طفل ينظر اليك يريد نفس الشيء .. الطفل فقط
هو الذى يعرف معنى اللحم والفرق بين اللحم والعظم !

وجاء فيلسوف المائى كبير اسمه ليينتس يقول : لا فرق بين الشاعر
والحمار .. كل واحد منهما جسمه مكون من ذرات . هذه الذرات
هى بذور الحياة نفسها . فالانسان هو هذه الأشياء الصغيرة .
والحيوان كذلك . ولكن ذرات الانسان أو « بذور حياة » الانسان
أحسن أو اعقل من (بذور حياة) الحيوان .. ولكن كل انسان
وحيوان مكون من بذور الحياة أو ذرات الحياة . أو من الحياة
البشرية أو الحياة الذرية .

ولما ظهر الميكروسكوب ونظرنا الى الخلية الحية الميتة .. أو
الحيوان المتوى للانسان والحيوان كانت النتيجة واحدة .. فتحت
الميكروسكوب توجد حياة تروح وتجيء هذه الأشياء الصغيرة الحية

هى « فتافيت الحياة » وكل شىء فى الدنيا يبدأ من هنا .. ولا فرق بين الخلية لائنسان أو حيوان أو نبات .. فمالك واحد . والله اراد أن يكون كل شىء واحدا . هذا الكل الواحد ذليل على قدرة الله .. فمالك أمام الله صغير جدا .. فالائنسان ليس أكبر من الحيوان ، والحيوان ليس أرفع من النبات .. الكل ليس إلا كلمات أو مفردات فى قاموس الكون الأعظم من تأليف الله جل جلاله !

ومن ستة قرون فى أوروبا وصفوا الحيوان بأنه آلة .. مجرد تكوينات فوق بعضها البعض تروح وتجىء .. انظر الى الكلب .. أنه ظلك .. يمشى وراءك ولا يفكر فى هذا الذى يفعله .. والقطعة .. والحيوانات المتروسة تراك متهرب .. أو تراك متهجم عليك دون أن تقدر أن كان الذى فى يدك عصا أو مخفج .. انها آلات مندفعة .. فلا عقل لها !

وأصبحت كلمة « الآلة » صفة للحيوان ، واهانة للائنسان طبعاً . حتى تقدمت صناعة الآلات فى القرن الثامن عشر .. وأصبحت الآلات دقيقة ومعقدة . وقائمة على كثير من النظريات الهندسية . هنا فقط أصبحت كلمة الآلة شرفاً للائنسان إذا وصفناه بها . بل الائنسان يتمنى لو كان آلة دقيقة مضبوطة . تعمل بانتقان ولا تحابى أحدا . وأصبح المجتمع كله جهازاً ضخماً ، أو يجب أن يكون كذلك .. ولذلك لم يعد الحيوان آلة . ولم يصبح الائنسان آلة ، وإنما هو يحلم بأن يكون فى استمرارها ونزاهتها !

وكانت فلسفة القرن الثامن عشر رداً عميقاً عملياً على فلسفة رجل فرنسى اسمه « لا متركى » . هذا الرجل يقول أن الائنسان

والحيوان كليهما آلة . وأنه لا فرق بين انسان وحيوان . وإنما الحيوان كان من الممكن أن يكون انسانا لو أعطى الفرصة . . تماما كما أن الخادم كان من الممكن أن يكون السيد ، وأن يكون السيد خادما لو تغيرت الظروف . إذن : أعطوا الحيوان الفرصة لكي يكون انسانا ايها الناس !

ويقول لامترى أيضا : التروود : مثلا ما الذى ينتقصها ؟ الكلام ! لو روضناها لو حريتها لقالت كثيرا كالانسان !

ويقول أيضا : أن هناك أنواعا مختلفة من الحشرات اذا حطمتها دبت الحياة في كل جزء من أجزائها . . الدودة تقسمها نصفين . . كل نصف يتحرك وكأنك لم تفعل شيئا . . ولكن الانسان اذا قطعت يده أو ساقه . . ماتت اليد والساق . . واذا انكسر رأسه أو نزعتم قلبه مات . . ومعنى ذلك أن حياة الانسان أضيق نطاقا . . وأنه أسهل كسرا وموتا من أحقر الحشرات .

والذى قاله هذا الفكر الفرنسى ليس دقيقا . ولكنه أثار الكنيسة وأغضب المجتمع السياسى في فرنسا واستدعاه الامبراطور الالماني فريدريش الاول وطلب اليه أن يبقى بعيدا عن الغضب الفرنسى على كل المستويات . والفكر لامترى لا يعرف أن عددا كبيرا من العلماء حاول يائسا أن يعلم التروود كيف تنطق ، فلم يفلحوا . فالتروود عاجزة تماما عن الكلام .

ثم أن ما تحتاجه الدودة من مراكز عصبية بسيطة يجعلها تتحرك

يمينا وشمالا بنصفها أو ربعها .. ولكن الانسان جهاز شديد التطور
وشديد التعقيد .

وكانت وفاة هذا الفيلسوف نكتة ضحكت لها أوروبا وشمنت فيها
الكنيسة وقتا طويلا . أن وفاته تذكرنا بوفاة الخديو المصرى
اسماعيل فقد جلس هذا الكاتب مع بعض اصديقه . وكانت أمامه
فطيرة محشوة بالفتحاح وزجاجة من الشمبانيا . وكان يملأ فمه من
الشمبانيا وتراهن مع اصديقه انه يستطيع أن يدخل الفطيرة فى
فمه دون أن تسيل قطرة شمباتيا من بين شففيه .. وفعلها مرة وفى
المرة الثانية ، مات مختنقا اما الخديو اسماعيل فكان يضع زجاجتين
من الشمبانيا فى فمه وقد استلقى على ظهره وجعل يفرغ الزجاجتين
فى وقت واحد — ومات هو أيضا !

ولكن المشعور العام فى أوروبا فى العصور الحديثة : أن الحيوان
أكثر نبلا من الانسان — منتهى اليأس من الانسان !

ولم يكن الفيلسوف الالماني المتشائم شوبنهاور مبالغا عندما فكر
قبل أن يموت بقليل أن يلقي بأمواله فى البحر ولما سئل عن ذلك
قال : ان احدا لا يستحقها من بعدى !

ولما سئل مرة أخرى : ولا حتى كلبك !

فنعض واقفا : أنا الكلب حقيقة . فقد نسيت هذا الذى اخلص
لى فى كل الظروف !

ثم اوصى بأمواله كلها الى كلبه !

والفيلسوف الالماني نيتشه كان يحب الفتاة اليهودية سلومي وكان
ينافسه في حبها العالم اليهودي فرويد والشاعر الالماني ريلكه ..
ولم يتفق الثلاثة على شيء لانهم جميعا مختلفون تماما .. واخيرا
قرروا ان يقيموا لها حفلة تكريم .. فأتوا بعربة واركبوها العربة
واعطوها كراباجا .. ثم سحبوا العربة .. كأنهم خيول او حمير لها !

وعندما ذهب الفيلسوف نيتشه الى مدينة ميلانو الايطالية رأى في
ميدانها العام حصانا جميلا .. فراح يجرى وراءه ويصرخ ويعانقه :
يا ابنل كائن يمشى على اربع او على الثنتين !



هو يسقط الكابتن يطي!

« لو كان يقول أى شىء » — ولم يقل
حيوان الكابتن أى شىء . وإنما ظل الكابتن
كوك الذى اكتشف استراليا وعشرات الجزر
يتأمل هذا الحيوان العجيب الذى ليس له نظير في
القارات الأربع . وكتب في مذكراته يقول : له
راس غزال وله ذيل طويل وإذا مشى فانه يقفز
كالضفدعة .

ثم مضى الكابتن كوك في وصف هذا الحيوان . كيف يأكل وكيف
يشرب . ورغم قدرته الهائلة على الملاحظة فانه لم يتنبه الى أن
هذا الحيوان يحمل صفاره في جيب في بطنه . ولم يعرف ان هذا
الحيوان الذى يصل طوله الى عشرة أقدام عندما يضع صفاره فان
الواحد منها يكون طوله بوصة فقط !

ولم يكن هذا هو الحيوان الوحيد في استراليا أو القارة الجديدة ،
وانما هناك حيوانات أخرى انقرضت مثل هذا الحيوان الذى كان
بصيده البدائيون لياكلوا لحمه ويصيده الأوروبيون ليسلخوا

جلده .. والبداثيون هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم . ويقال أن سبب هذه التسمية أن هذا الحيوان عندما يولد فانه ينطق كلمة : كائج .. وعندما يموت فآخر كلماته كلمة : رو ..

ومعنى ذلك أن البداثيين يريدون أن يقولوا أن الحيوان يولد لموت ! — هذه العبارة قالها الفلاسفة الوجوديون في خمسينات هذا القرن وصنعنا لهم طويلا لاكتشافهم هذه الحقيقة المؤلمة !

وعندما زرت حديقة الحيوانات في مدينة سيدنى باستراليا لم أجد إلا ثلاثة من الكانجرو . وسألت أن كان هذا الحيوان قد أصبح نادرا . فكان الرد نعم . حتى أن جزيرة في محفل خليج سسالت لمنسنت اسمها « جزيرة الكانجرو » أصبح الآن اسمها : جزيرة الكانجرو سابقا .. أو جزيرة الس .. حيوان الذي كان هنا !



وأهم ما جاء في مذكرات الكابتن جيمس كوك في سنة ١٧٧١ هذه العبارة : انشغلنا جدا بهذه الحيوانات الغريبة والطيسور المعجبية ومن أين جاءت وكيف جاءت .. ولكن لم يتسع وقتي لهم أشياء كثيرة فمن الأشياء التي لاحظتها أن حيوان الكانجرو هذا إذا مرض امتنع عن الطعام ، وانزوى وحده وأبعد صغاره عنه .. وأحبانا تجيء انثى أخريات وتتولى كل واحدة إطعام هذه الصغار .. وإذا أحس هذا الحيوان بأنه سوف يموت ، فانه يحفر الأرض بقدميه الاماميتين .. وكلما كانت الحفرة عميقة كان اقترابه من الموت .. لماذا مات فانه يتبرغ في حفرة .. ولا يسكن تملها الا وقد

انهال عليه التراب كله . . كأنه حفر قبراً ثم دفن نفسه فيه تماماً . »

والكابتن كوك يكرر ما شغل العلماء والاطباء من الؤف السنين .
فهم جميعاً كانوا ينظرون الى الحيوان بهيام ويقارنون بينه وبين
الانسان . وعندما يريدون أن يعرفوا الانسان فيفتحون بطن الحيوان .
يريدون أن يعرفوا جلد الانسان فيسلخوا جلد الحيوان . يريدون أن
يعرفوا ما الذى يفضحه قلب الانسان فيفتحوا قلب الحيوان . . ان
العالم الفرنسى هارفى عندما اهدى الى الدورة الدهوية كان ذلك عن
طريق تأملاته وتشريحاته للحيوانات . . والعالم الكبير مالبيجى عرف
النففس عند الحيوان عندما اخذ يكتم انفس الحيوان . بل انه قد
اهتدى الى الكريات الحمراء عندما رأى ذلك فى حيوان القنفذ . وكان
يظن أن هذه الكريات هى أنواع من الدهن . . ثم انه نقل دم الكلاب
بعضها الى بعض ، قبل أن ينقل دم الاغنام الى الانسان .

وعندما اهتدى الانسان فى أوائل القرن الثامن عشر الى الجهاز
العصبى كان ذلك من طريق تعذيب الحيوانات بالابر والنار ،
ليلاً ونهار . . هنا أدرك الأطباء والعلماء ، أن الاجهزة التى تحرك
الانسان هى نفسها التى تحرك الحيوان . . وان للجميع اعصاباً
وان هذه الاعصاب تمسك كل اعضائه وعضلاته . . وتؤثر على
وظائفه — يكفى أن ننظر الى هذه الحيوانات !



ولا شىء يدل على طموح الانسان ورغبته المستمرة فى العلو
والتخلص من متاعب المساكنات بين الناس وبين البلاد ، مثل
عجابه بالطيور وخفتها ورشاقتها فى الحركة وركوب الهواء . . كل

النقوش القديمة تدل على هذا الاعجاب بالصقور والنسور . ولكن الانسان نفسه لم يعجب بالذباب مع انه اعجوبة الحشرات . لان الذباب مرتبط في ذهنه بالغذارة وبأنه يضايقه عند النوم والاكل . وإذا نظرنا الى تكوين الذبابة لوجدنا انه يفوق في اعجازه تكوين النسر . ان جناح الذبابة تحفة هندسية حيوية . ان سرعة الذبابة في الطيران والانتقاض تذهل اعظم المهندسين . فسرعتها لا تتناسب مع طول الاجنحة ومع جسمها . ولكن احدا لم يلتفت الى ذبابة . وانما كان الانسان مشغولا بالطيران . . وعند الاغريق ، وفي اساطيرهم الرائعة حكاية دياولوس . . كان فنانا قادرا على صناعة الكثير من الادوات التى استخدمها الفلاح والطبيب والمهندس . وهو الذى اخترع شراع السفن . هو ايضا الذى اخترع الدفة والسفارة والمصيدة . وكان عبقرية عظيمة . يكره ان يناقسه احد . ويبدو ان له ابن اخت سوف يكون اعظم ، فالتقى به من النافذة ومات الشاب قتلا . وهرب العبقرى الشرير الى احدى الجزر . وصنع لاحدى الملكات سجنا لا يمكن ان يهرب منه احد ، لكثرة سراديبه . ولكنها لم تأمن اليه . وخشيت ان يهرب ويصنع سجنا مماثلا في جزيرة أخرى وللملكة أخرى . فحبسته في هذا السجن . واستطاع ان يصنع لنفسه ولابنه الصغير ايكاروس جناحين من الريش الطويل والصلق الريش بالشمع . وهرب الاب وابنه . . ويقال ان ابنه ارتفع في السماء فاذاابت الشمس الشمع من جناحيه وسقط الابن ميتا . . اما الاب فنزل في احدى الجزر . ويقال انهم وجدوه ميتا ووجدوا حبلا طويلة في عنقه . . ووجدوا في هذه الجبال عشرات من النسور . . يبدو انه كان يريد هذه النسور ان تحمله . . ان تطير به الى مكان بعيد . ولكن النسور حملته بعض الوقت وشدته جاذبية الارض ، فهات وماتت النسور !

وقد حاول احد علماء الانثلس واسمه عباس بن فرناس ان يطير

هو أيضا . وكانت محاولته في القرن التاسع الميلادي . وغطى جسمه بالريش وألقى بنفسه من جبل .. وحمله الريش قليلا .. ثم سقط ميتا وارتفع الريش في الهواء ..

ولم تبت فكرة الطيران عند الانسان وانما تجددت في كل العصور .. على القرن الثامن عشر في فرنسا ، حاول كثيرون أن يستخدموا بالونات الورق في الطيران . ولم يفضلوا على الورق بالون الحرير . وارتفع الورق وهبط على مدى قريب . وفي سنة ١٧٨٣ ارتفع من باريس بالون ورق . وهبط البالون بعد مسافة عشرين كيلو مترا . ولم يكد الملاحون يرون البالون الطائر ، حتى ظنوا أن القمر نفسه قد سقط من السماء ، واقتربوا منه . ومزقوه . وربطوا البالون المحطم في ذيل أحد الخيول ، وراحوا ينقلونه بين القرى ، احتفالا بالنصر . فأصدرت الحكومة الفرنسية بياناً تصف فيه هذه التجربة وتؤكد أهميتها للإنسانية . وأنه لا خوف على أحد ولا ضرر له في ماله وماله .

وفي ١٩ سبتمبر ١٧٨٣ ارتفع بالون أكبر ومن الورق أيضا . وكان صاحب البالون أكثر خيالا وأغلب طموحا . فعلق في البالون صندوقا من الخشب . وفي الصندوق خروف وحجاجة وبطة . وارتفع البالون ، ومضى تحمله الريح بعيدا . ثم هبط . ونزلت الحيوانات منه سالمة .. وبعد ذلك بسنوات ركب البالون بعض المغامرين وعبروا به المائس . واتجه الانسان الى أساليب وحيل جديدة في صناعة الاجنحة الهندسية لكي تطير به من مكان الى مكان أبعد وأسرع من الطيور نفسها . ويكفي أن ننظر الى ماركات شركات الطيران العالمية لنجد أن هذه الماركات ليست الا مبالاة رائعة في تصوير معنى الطيران والطير . فكل هذه الماركات تشير الى خفة الحركة ورشاقها

وسلامتها هبوطا من الجو وصعودا اليه .. كأنها طيور آمنة مطمئنة
لا خوف عليها ، ولا خوف منها على أحد !

لما لعجاب بالطيور وتقليدها ومحاولة فهمها ليكن فهم الانسان
هو هدف العلماء من الوف السنين . وليست الطيور وحدها التى
يريد الانسان أن يتخذها وسيلة لفهم الانسان . وانما كل الحيوانات ،
ومن أقدم العصور كان الملوك يهدون أطباءهم أناسا مجرمين
ليجربوا فيهم المشارط والسكاكين . فالملك كان يفتح السجون للطبيب
الخاص ليختار واحدا من هؤلاء النزلاء ليشرح جثته ويعرف ما هى
هذه الحياة .. ما القلب ما الكبد ما الامعاء .. ما المعدة .. وكان
يحدث ذلك فى مصر الفرعونية وفى مارس القديمة ..

وكان رجال الدين فى كل العصور يحرمون قتل الحيوان بقصد
البحث العلمى . وانما يرون القتل للصيد أو للأكل ممكنا .. أما
اسالة دم الحيوان وتقطيع أطرافه ، مهما كان الهدف نبيلًا فثمة
حرام . ولعل الفنان العظيم ليوناردو دافنشى قد هرب الى روما
لهذا السبب . فقد كان يريد أن يشرح جثة خنزير أو بقرة ليعرف
تكوين السيقان والرأس . وكان يعلم أن رجال الدين يرغبون هذه
النظرة العلمية الواقعية للأشياء . ولا يرون فيها الا خروجًا على
الدين ..

وعندما انتشر القتل بالسهم كان الملوك ، وخصوصا لويس الرابع
عشر ، يطلبون الى الأطباء أن يذوقوا الطعام قبلهم .. وأحيانا يموت
الأطباء ، ثم لجأ الملوك الى استخدام المجرمين واللصوص الذين
يعتقلونهم فى مكان خاص بالقرب من القصور .. وأخيرا اهتدى

الاطباء الى وسيلة لانتقاذ ارواحهم هم ، ماتوا بالحيوانات يطعمونها
ما يقدمونه للملك .. وكان السم أحيانا شديدا فيتلوى الحيوان
تحت قدمى الملك .. فيرفض الملك الطعام أياما من شدة الخوف ..



ومن حوالى مائة سنة فقط ، ظهر شعور انسانى يغمر أوروبا
كلها ويدعو الى الرقى بالحيوان والرحمة به . فهو أيضا يتألم ويتعذب
مثلنا . والذي برحم الانسان ، هو نفسه الذى يرحم الحيوان .
والذى يقسو على الحيوان هو نفسه الذى يعذب الانسان . ولذلك
يجب ان نتواصى بالرحمة بهذه المخلوقات لنكون رحماء بأنفسنا ..
والاطفال يجب ان نعلمهم حب الحيوانات ليجبوا بعضهم بعضا .

بل أننا رأينا الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو يدعو الى أن
نعلم الاطفال الرحمة بالحيوان حتى اذا كبروا كرهوا القسوة على
أحد من الناس ..

وقبل روسو بعشرين قرنا اقام الملك الهندى اشوكا أول مستشفى
للحيوانات المريضة ، وجعل علاجها اجباريا . وكان يقول : لا أصدق
أن أبا يحب أطفاله ، اذا رأى كلبا مريضا ولم يساعده بلقمة أو قليل
من اللبن .. لا أصدق أن الأم لا تأكل بنيةا ، اذا رأت هرة تلد ثم
القت عليها بالتراب ، لأنها تتشاعم من منظر الحيوان وهو يلد !

وفى أيام الحروب كانت تقام الحظائر للخيول . ولكن اذا مرض
حصان قتلوه . حتى لا تنتقل عدواه الى بقية الخيول !

حتى كانت سنة ١٧٤١ . في هذا العام أقام رجل فرنسي اسمه كلود بوجيلا مدرسة يعلم الناس فيها كيف يعالجون الحيوانات . مدرسة للطب البيطرى . صحيح كانت هناك محاولات مماثلة وضيقة النطاق في هولندا أو سويسرا أو بروسيا . ولكن هذه المدرسة الفرنسية اكتسبت شهرة عالمية . وجاءها طلاب الطب والعلاج من كل مكان . وكانت هذه المدرسة تنصح الطالب : بأن يكون انسانا في معاملة الحيوان .. وان يؤمن ايمانا مطلقا بأن هذا الحيوان ، لاسباب لا نعرفها ، عاجز عن الكلام .. أى عاجز عن الشكوى من العطش والجوع أو الألم .. وان هذه الحيوانات تحب من يحبها — والكلب اكبر دليل على ذلك . وأن في هذه الحيوانات شهامة ونبلا — الحصان اقوى دليل على ذلك ..

وظهر من هذه المدرسة عدد كبير من الاطباء لمعالجة الحيوانات التي تنفع الانسان : الحيوانات التي ناكل لحبها أو نبيع جلدها أو تجر العربات أو تحرس له العربة والحصان والبيت ..

ولا تزال في العالم عشرات الالوف من مستشفيات الحيوان .. والوف المجلات للحيوان .. ومئات الشركات تعد الطعام الخاص للحيوان والطيور . وعشرات من اصحاب الملايين يتركون ثرواتهم للحيوان — حبا في الحيوان ، أو كرها في الانسان !

ويوم ارتفعت الكلبة لاىكا في احدى سفن الفضاء تدور حول العالم نارت جمعيات الرفق بالحيوان . تقول : وحشية .. جريمة ..

مع ان في المعامل في كل مكان الوف الحيوانات تموت جوعا للانسان . ولكن هذه القلوب الرحيمة بالكلبة لاىكا نسيت الانجاز العلمى

المعظيم الذي رفع الكلب تمهيدا لارتفاع عشرات من رواد الفضاء ..
مماثلت الكلبة لايبكا ودفنت في قبر من نوع غريب ، قبر يدور حول
الناس وعلى ارتفاع مئات الكيلو مترات من الارض وبسرعة عشرات
الآلاف من الاميال في الساعة ..

وكانت هذه الجنازة العجيبة التي اشترك فيها كل سكان الارض :
جنازة حارة والميت كلب !



لونا الزئبق قليلًا تُدركنا السحافة !

* في القرن الثامن عشر تأكد لدى الناس تلك
المعنى الذي جاء في الكتاب المقدس : ان الناس
ولدوا لينتموا على آتاهم ولدوا .. فقد كانت
الحياة قاسية : ارهاق ومرض وموت بعد ذلك .
ولا يتسع وقت الانسان ليسال نفسه : صحيح
ما معنى هذا كله ؟ ماذا اخذت ؟ ماذا اعطيت ؟
ما الذي يتبقى منى لاحد من الناس . والجواب
عادة : لا شيء ! كان الناس ولدوا ليكونوا بعد
ذلك : لا شيء ، كما كانوا قبل ان يولدوا — انها
نظرة مثل الحياة ومثل مداخل المصانع الجديدة:
سوداء ! ..

وفي سنة ١٣٨٤ أعلن البابا كلينس السادس ان عدد الاوروبيين
الذين ابادهم « الموت الاسود » ذلك المرض اللعين قد بلغ ٤٢ مليوناً!
ولم يكن المرض هو الحاصد الوحيد للأرواح . لانه اذا لم يكن
مرض اخترع الانسان الحروب . واذا لم تكن حروب اخترع الانسان

الكرامية التى تؤدى الى القتل — اثنان من اولاد آدم قد فعلا ذلك
وكان عدد سكان الأرض أيامها ستة اشخاص !

كما أن حرب المائة عام هدت حيل فرنسا .. وحرب الثلاثين عاما
مزقت قلب ألمانيا ..

وفى انجلترا جاءت حرب الخمسين عاما لمطاحت بالكثير من
الرجال والشباب ..

ولم تفت هذه الظاهرة عددا من المؤرخين ، الذين وضعوا سائلا
على ساق وقالوا : ان هذا يحدث كل عشرين سنوات ، ويجب أن نتوقع
ذلك ، فالنساء يلدن والرجال يحصدون ماوضعتة النساء .. وبذلك
يظل عدد سكان العالم رقما ثابتا . انها حكمة السماء منذ نزل ثمانية
من البشر من سفينة نوح فوق جبل أرات !

ولكن ما هذا الذى يجرى بين الناس .. انهم يتزايدون رغم ذلك ،
والطعام لا يكفيهم ، ولا بد أن يجد الانسان وسيلة ليكون هناك طعام
من النباتات ومن الحيوانات .. ليكون هناك كساء وغطاء
ومشروبات ومساكن ليوالى الانسان زيادة عدده ورفاهيته ، ويهوت
من أبنائه أقل عدد ممكن .

وفى احدى القصص التى ظهرت فى أواخر القرن الثامن عشر يقول
الكاتب : لم نعرف بالضبط كيف يجيء هؤلاء الاطفال ، أن الرجال
مادة يخطنون فى عدد اولادهم الشرعيين وغير الشرعيين .. ولكن

الامهات لا يخطئن ، ويستحيل عليهن ذلك . فالام تحمل طفلها تسعة شهور ، ولكن الرجل يحمل ذلك الطفل ساعة أو أقل من ذلك كثيرا ، فالرجل لا يدري به ولكن الام تعرف ذلك جيدا ولن يتحمس الرجال لان يكون عندهم أولاد أقل . . ولكنها المرأة هي التي يجب أن تفعل شيئا — ن نساء الاغريق ضربن أزواجهن لان الرجال يفسدون الفراش دون أن يضعوا في شعورهم شيئا من العطر ، أو على أجسادهم شيئا من الزيت الذي يكسب الرجل حيوية وقدرة على امتاع المرأة . . فلتفعل المرأة شيئا .

والمعنى هو أن الكاتب يطلب الى المرأة أن ترفس الرجل حتى لا يقربها وحتى لا يزيد عدد الناس في كل مكان . . ومن حقها أن تفعل ذلك فهي التي تتعب وهي التي تتعذب . أما الرجال فلا يشعرون بشيء . . وهذه القصة الانجليزية تذكرنا بموقف قديم قبل ذلك بألف سنة . عندما اختلف أبو الاسود الدؤلى مع زوجته على الطلاق وحضانة الأطفال قالت الزوجة أمام القاضى : أنا تعبت أنا حملت أطفالى . أنا أولى بهم . . قال الزوج : أنا حملت الطفل قبل أن تحمليه أنت . قالت الزوجة : أنت حملته في ظهرك خفيئا ، وأنا حملته في بطنى ثقيلًا .

وحكم القاضى للزوجة بحضانة الأطفال !

واستطاع تسييس انجليزى أن يحدد بالضبط مشكلة تزايد السكان في العالم انه التسييس مالثوس . وكان ذلك سنة ١٧٩٨ عندما أصدر كتابا بلا امضاء . . انه يقول : ان الطعام في العالم يتزايد بصورة حسابية : ١ — ٢ — ٣ — ٤ بينما يتزايد عدد سكان العالم بصورة هندسية ٢ — ٤ — ٨ — ١٦ وهكذا .

ومعنى ذلك أن الطعام لن يكفى الإنسان ، وأن الإنسان يعيش ويكبر ليموت جوعا ، إلا إذا توقف الإنسان عن النمو ، أو إلا إذا ضاعف طعامه وشرابه بنفس السرعة ، ويبدو أن هذا غير ممكن فالمطلوب من الإنسان أن يتوقف عن التكاثر .

وهذا القسيس يقول : وليس من مصلحة الإنسان أن يوفر الطعام الكثير لأنه كلما زاد الطعام تزايد عدد الناس فكان الطعام يؤدي الى النتيجة غير المطلوبة . . فالأفضل هو ألا نزيد الطعام حتى يموت الناس من الجوع . ويكون الجوع هو أول منظم للنسل ومحدد له ، أو يبحث الناس عن طريقة لانقاص عددهم .

يقول القسيس مالثوس : صحيح أن الأرنب والسلحفاة لو دخلا في سباق فمن المؤكد أن الأرنب هو الذى سوف يصل الى الهدف أسرع . لا شك فى ذلك ولكن لو طلبنا من الأرنب أن ينام قليلا فى الطريق فإن السلحفاة سوف تصل قبل الأرنب ، أو تصل معه فى وقت واحد !

وسارعت الهيئات الدينية بتفسيرات جديدة لتحديد النسل ، فالإنسان حيوان تحكمه الغريزة ، ولذلك لا يستطيع أن يحدد عدد صغاره . ولكن الإنسان يتصرف بالعقل ولذلك يجب أن يستخدم عقله ، وقال القساوسة فى أوروبا فى ذلك الوقت : الطهارة بآرجال . . الطهارة . فالذى يعف عن الجنس هو الذى يجد الرغيف مجزاء العفة أن تجد الطعام والشراب . . والنزوات عقابها الجوع !

أما رجال الصناعات وأصحاب رعوس الأموال فقد انزعجوا ، لأن

تحديد النسل معناه أن يصبح عدد العمال أقل . ماذا قل عددهم
ارتفعت أجورهم ، وإذا ارتفعت أجورهم نقص ما يكسبه أصحاب
المصانع والمتاجر . . ولذلك وقفوا ضد القسيس مالثوس الذي
يدعو الى تخريب بيوت المال في أوروبا كلها !

وقال السياسيون المحافظون : بل يجب أن يحدد الناس نسلهم،
والا زاد عدد الجوع ، ماذا زاد عددهم قاموا بثورة كثورة فرنسا،
وطاحوا بالملكية في إنجلترا . وقتلوا الأوضاع واختلت الموازين
والقيم الاجتماعية . . ولذلك لمنظريه القسيس مالثوس هي أعظم
ما اكتشفه الإنسان في كل العصور !

وأخذت الجامعات تلقى عليه نياشينها العلمية ، وتطلب اليه أن
يحاضر فيها ، فهو الذي وضع أسابعه على داء البشرية ، وأقوى
قوى التاريخ الإنساني !

ولو نظرنا الى عالم الحيوان لوجدنا شيئا مخيفاً ، ففي عالم
الأسماك مثلاً : نجد أن أنثى سمك الرنجة تضع أربعين ألف بيضة
بينما تضع سمك موسى تسعة ملايين بيضة والسمكون تضع
ثمانية وعشرين مليون بيضة . . وسمك البحر الأمريكي يضع
مائة مليون بيضة ، وهذا يتكرر خمس مرات في السنة .

وفي عالم الحشرات : نجد أن ملكة النحل تضع في السنوات الثلاث
الاولى خمسة ملايين بيضة .

أما الضفدعة فإنها تلحق ٥٤ ألف مليون بيضة في السنوات الثلاث

الاولى من حياتها ، وربما كان هذا هو السر في أن عدد الضفادع في العالم يتوازن دائما — هناك الكثير في كل مكان في أى وقت !



وهناك مسافة كبيرة جدا بين عدد البيض وعدد البيض الذى تم اخصابه .. وهذه المسافة تصبح أوضح وأكبر في الانسان ، فعدد الحيوانات المنوية عند الرجل طول حياته تقدر بالوف الملايين وعدد البويضات عند المرأة مئآت الآلاف .. ولكن لأبد من حيوان واحد من الرجل لبويضة واحدة من المرأة ليكون هناك طفل .

ولان المرأة لاتقوى على حمل أكثر من طفل فان هذه الحيوانات المنوية والبويضات لا ضرورة لها .. وفي عالم الحيوان والحشرات نجد أن الذكر ليست له أهميته . فماذا قتل أو أكلته الانثى فان الطبيعة لاتخسر شيئا بالمرءة ، بل ان الملايين من البويضات المخصبة تحل محله بسرعة ، فالذكر ليس شيئا هاما لكى تستمر الحياة .

ولو كانت كل الحيوانات المنوية عند الرجل تلتحم بكل بويضات المرأة لكان عدد سكان الأرض ضعف هذا العدد بالوف الملايين من المرات . ولكن انثى الرجل هى التى تحدد النسل . ومن المعروف ان المرأة لاتستطيع أن تحمل أكثر من عشرين مرة في العمر كله .. وهذه هى الحالة النادرة ، ولكنها عادة لا تتجاوز الثلاثة أو الأربعة الا قليلا .. وهذا ينطبق أيضا على كل الحيوانات الاخرى التى يأكلها الانسان !

والأغنياء وحدهم هم الذين انشغلوا كثيرا بعدد أطفالهم وبالجوع .
فهم لا يريدون لأطفالهم أن يجوعوا . أما الفقراء فإن الجوع
لا يشغلهم . لأنهم الجوع نفسه ، والفقراء كلما أشند بهم الجوع ،
احسوا باقتراب الموت ، وأصيبوا بحالة فهم جنسى ، فيزداد عددهم
.. لهذا زاد عدد الفقراء الذين ازدادوا فقرا !

ولابد أن ينشغل الناس عموما بالبحث عن موارد للطعام ، لتوسيع
رقعة الأرض المزروعة عشباً ، أو بالهجرة الى بلاد أخرى ،
الآيرلنديون هربوا من أرضهم القاحلة الى أمريكا ، الإنجليز رفضوا
أن يتركوا أرضهم ، ولذلك زاد عددهم وزادت مصانعهم ، ولكن حدث
شيء غريب : زادت الاتمة أمام الناس ، فكانوا يجدون الكساء
ولا يجدون الغذاء وماتوا عن أنفسهم : أننا وجدنا الشيء الذى يدفع
الجلد ، ولا يدفع المعدة !

ولكن الإنجليز وجدوا الأيدي الكافية لإدارة مصانعهم ، وكانت
هذه المصانع للنسيج ، ولم يتوافر لديهم نفس هذا العدد من مصانع
الطعام .

بدأ الإنجليز — مثلاً — يستوردون طعامهم من الخارج ، أما
ملايسهم ، فمن الداخل .

وبعض أصحاب الأغنام أرسلوها الى الأرجنتين حيث الجو أفضل
وإطعام أوفر ، وبعضهم أرسل مئات الأغنام التى أصبحت مئات
الآلوف ، الى أستراليا .

وكانت المشكلة هى نقل هذه الحيوانات بعد أن تعبت وسمنت
الى أوروبا ، ولكن أكثر هذه الأغنام كان يموت فى الطريق وكانت
أمراض الحيوانات تنفشى بسرعة — وتهلك سفناً بأكملها .

وفي ذلك الوقت اخترع رجل استرالى سفينة تنقل لحوم الاغنام والابقار الى أوروبا ، وكانت السفينة تقوم بتبريد اللحوم ، وكان ذلك انقلابا فى صناعة التغذية ولكن الناس فى أوروبا لم يستسيغوا اللحوم الباردة .. وكانت هذه اللحوم طعام الفقراء . أما الأغنياء فيفضلون اللحوم الحية .. يرونها ويذبحونها ..

ولكن رجلا فرنسيا اسمه تلييه سنة ١٨٧٧ اخترع « ثلاجة » وكانت الثلاجة على شكل سفينة ، فهذه السفينة تنقل اللحوم مجمدة من الأرجنتين الى فرنسا وانجلترا . وكانت رحلة السفينة تستغرق مائة يوم ، وتظل اللحوم مجمدة سليمة . وكان ذلك هو اعظم اختراع انقذ أوروبا كلها من الجوع . وانتشرت الثلاجات العائمة فى الموانئ الأوروبية والموانئ الأمريكية ، وانحلت مشكلة اللحوم الى حين وبقيت اللحوم المجمدة طعام الفقراء !

وإذا كانت الثلاجات قد أنقذت الفقراء فان الآلات الحديثة التى ظهرت فى ذلك الوقت قد خربت بيوت الفقراء والآلات البخارية التى استخدمت فى المواصلات وفى المصانع قد استغنت عن الأيدى العاملة ، وكان أصحاب المصانع حريصين على الآلات لأنها تخلصهم الأيدى العاملة وتوفر لهم المال ، وظل العداء قائما بين الآلات وبين الأيدى العاملة .. ولا يزال ..



وفي ذلك الوقت من أوائل القرن التاسع عشر ظهر سباق الخيل . وكان الانسان لا يريد أن يصدق أن القطار أسرع من الحصان ، ولذلك بدأ الانسان ينظم مسابقات الخيول ، وقبل تنظيم المسابقات كان يحرص على اقتناء أحسن سلالات الخيول . واحسنها بالفعل تلك

التي جاءت من أصل عربى ، وهناك خيول أخرى مولدة : أضخم وأثقل وأطول سيقانا وأضخم عنقا ورأسا ، ولكن أفضل الخيول جميعا هى العربية الرشيقة .

وفي الوقت الذى أخذت إنجلترا بلعبة سباق الخيول ، اتجهت أسبانيا الى مصارعة الثيران ، حتى ثيران أسبانيا هى الاخرى قد جاءت من الشرق . بعض هذه الثيران مصرى فرعونى .

والقرن التاسع عشر يعرف اسماء عدد من الخيول قد غيرت الحياة الاجتماعية ، فهناك الحصان الشهير « دارلى » الذى كسب ثلاثين سباقا وثمانين كأسا فضية ، ولم يسبقه حصان واحد . بل أن أبناءه من الخيول وهى معروفة الاسم ، قد بلغ عددها ٣٤٤ حصانا ، قد عادت الى أصحابها بمليون جنيه ! .

وأصبح من المألوف جدا فى أوروبا كتابة تاريخ حياة الحصان ، أصله ومن أين جاء ، وأولاده بالاسم ، وأماكنهم وأحجامهم ، والسباقات التى اشتركت فيها .

وفي إنجلترا تأسس نادى الجوكى سنة ١٧٥٠ ، وبعد ذلك بثلاثين عاما بدأ اللورد دربى السباق المشهور المعروف باسمه حتى الآن . . وكان هذا السباق متعة كبرى وفرصة دولية لتشارك أجمل وأقوى الخيول فى السباق والمراعاة .

وربما كان نابليون بونابرت هو أول من اخترع فكرة ارض السباق، وأن تكون الأرض ناعمة وأن يكون الطريق أمام الحصان سهلا . فقد أرسل له أخوه لوسيان خطابا يستأذنه فى إقامة سباق العربات . ولكن نابليون اعترض على سباق العربات التى تجرها الخيول لأنها لعبة أفريقية قديمة ، وأن العربية تعوق الحركة وأن الاغريق كانوا

ينسابقون بالعربات لانهم كانوا يحاربون من فوق العربات وبها . .
أمام على أيام نابليون فكانوا يحاربون من فوق ظهور الخيول ،
فالسباق بالخيول هو مناسبة للتدريب على القتال ولذلك . أمر
نابليون بعمل أرض للسباق وتسويتها وتغطيتها بالعشب فيتمكن
الحصان من الانطلاق ، وإذا سقط من فوقه الفارس فلا تكون أصابته
خطرة !

وانتشرت لعبة السباق في أوروبا كلها ، وأصبح الأغنياء يتباهون
بان لديهم أحسن الخيول وأكثرها عددا وبأن لديهم اصطبلات فخمة . .
وإذا كان الأغنياء قد انشغلوا بتربية الخيول فإن الفقراء قد وجدوا
لهم لعبة أخرى : السيرك . . ففي السيرك تلعب الخيول والحيوانات
الأخرى . . . فالسيرك متعة أرخص ، وفي نفس الوقت فرصة لأن
يتفوق الفقراء على الأغنياء بالبراعة والصبر في مواجهة الأسود
والنمور وركوب الخيول . . والتصفيق للاعبين الماهرة : أى للفقراء
من أمثالهم . .

وعندما يتعب الفقراء من الفرجة على السيرك ، فإنهم يذهبون
الى حديقة الحيوانات ، ففيها الحيوانات من كل نوع جاءت من آخر
الدنيا لتكون جاهزة لتسليةهم في أى وقت !

« وبعد ذلك يذهب الناس الى بيوتهم سعداء بما رأوا ، وبأنهم
قد عوضوا ما فاتهم من امتلاك الخيول ، بالنظر اليهم والاعجاب
بأصحابها . . وينامون في الليل ، ويولد الأطفال في الصباح » —
كما يقول الكاتب الإيطالي البرنو مورافيا .

لنرى احدى قصص مورافيا يجيء الرجل الذى يعد السكان
ويسأل : كم عدد الأطفال عندكم ، فتقول الأم : عشرة .

ويقول موظف التعداد : تقولين عشرة ؟ .. ياه ! عشرة ؟
ويرد الزوج : نعم يا سيدي عشرة .. ليس عندنا راديو
ولا تليفزيون ، ولذلك فنحن ننام في ساعة مبكرة !
— معقول .. ويهضى الرجل ينق أبواب البيوت الأخرى عينه
على الباب والعين الأخرى على السطح ، ليرى ان كان عندهم
تليفزيون !
وفي نفس الوقت تتزايد الحشرات بالآلاف الملايين ويصرخ الانسان
من الجوع في آسيا وأفريقيا !



نظرية التطور ! د الاعتبار الحيوان

كانت محاكمة العصر كله . فقد اجتمع العلماء ورجال الدين وكثنت الراهبات يمسكن المناديل ويثرن بها الى تلك القس الوسيم الرشيق الذي جلس متحفزا ليدافع عن الدين عن كل سطر جاء في الكتاب المقدس . عن أن الانسان الأول كان اسمه آدم . وأن البشرية كلها قد جاءت من سلالته . . . وإمام هذا القس واحد من العلماء اسمه هكسلى جاء يدافع عن نظرية تقول أن الحيوانات تتطور . . . وربما كان الانسان أصله قرد . وليس ذلك بعيدا فالتشابه شديد جدا بينهما .

دخل العالم الكبير وجلس في مواجهة القس . فقال له القس متسائلا مستكبرا : أريد أن أعرف منك ان كان جدك لامك أو لايك قردا ؟ . .

وضحك الحاضرون وهنأوا بعضهم البعض . ولكن العالم الكبير

قال له : يشرفنى أن يكون جدى من الناحيتين قردا .. ولا يشرفنى أن يكون واحدا مطلق يستخدم ذكائه وعقله فى مناقشة قضايا علمية لا يفهم فيها شيئا !

وانتهت المناقشة فجأة بانتصار العالم الكبير هكسلى . أى انتصار لمسلية دارون التى كانت قد هزت الفكر والحياة فى أوروبا كلها فى منتصف القرن التاسع عشر !

وعندما سمع دارون هذه المناظرة قال : كان من السهل جدا أن أموت لمجرد أن أتصور أن أحدا سوف يحاكمنى هكذا ..

فلم يكن دارون ذلك الرجل القوى القادر على المناقشة والمناورة . وإنما كان رجلا هزيلا مريضا .. فعندما سافر فى رحلته الشهيرة لمدة خمس سنوات إلى أمريكا وأستراليا كان عمره ٢٢ عاما . وكان أضعف المسافرين . وكان يعمل فى هذه البأخرة العلمية باحثا فى الحيوانات والنباتات . ولم يكن أحد يتصور أن تشارلز دارون هذا من الممكن أن يكون شيئا هاما فى التاريخ . ولم يخطر على بال أحد أن دارون هو كولبوس الجديد .. فإذا كان كولبوس قد اكتشف قارتى أمريكا ، فإن دارون قد اكتشف قارات من المعلومات العجيبة فى تاريخ النباتات والحيوان والإنسان . بل أن كل العلماء راحوا يدرسون من بعده تاريخ الحجارة والتراب .. لأن كل شيء له تاريخ وكل شيء على الأرض قد تغير وتطور .. فالتطور هو قانون الأشياء كلها ، كما أنه قانون الحيوانات كلها كما قال دارون .

وفى هذه الرحلة التى غاب فيها دارون عن بلاده قد درس عينات

كثيرة جدا من النباتات والحيوانات .. واهتدى الى مجموعة من الأفكار .. ولكنه لم يجرؤ على أن يعلنها . فهو أولا ما يزال صغيرا ، ثم أن هذه الأفكار مختلفة تماما عن الأفكار السائدة أو «المسيطرة» للهيئات العلمية كلها . ولذلك عندما أرسل لبعض أصدقائه من اكتشافاته جامت عباراته خائفة مرتجفة ، كأنه يعترف بجريمة ارتكبها ، ولم يكن ذلك قصده . وإنما وجد نفسه أمام شيء جديد مختلف . وكان لابد أن يقول .. وقال .

وفي سنة ١٨٥٩ أصدر دارون كتابه عن « أصل الانواع » ..

وكان هذا الكتاب نقطة تحول في التاريخ الانساني والحيواني .

ولم يكن دارون أول من تحدث عن التطور تماما كما أن خريستوف كولمبس ليس أول من اكتشف أمريكا . وإنما تحدث عن تطور الكائنات كلها أناس كثيرون . بل أن عددا من الفلاسفة والعلماء تحدثوا عن التطور قبل دارون . وقبل أن يعرفوا أنه أصدر كتابا يشرح فيه خطوات تطور الحيوانات بعضها الى بعض حتى اقتربت من الانسان .

وربما كان الفيلسوف الألماني هيغل هو أول من رسم خطوط التطور لكل شيء في الكون وأول من قال ان الأشياء تتطور بعضها . الى بعض . وان الله قد وضع خريطة وصلاح تصعد عليها الكائنات وفقا لهذه الخريطة . وأن التطور من حالة الى حالة هي سنة الكون كله ..

وربما كان الفيلسوف الألماني شوبنهاور هو أول من قدم للانسانية

نظرية التطور التي تحدث عنها دارون . وكان شوبنهاور أمتع وأوضح من دارون . ولم يشك شوبنهاور لحظة واحدة في أن الإنسان أصله قرد . قال أن أبناء آسيا أصلهم أورنج تان . . وأبناء أفريقيا أصلهم من الشيمبانزى . . ومات شوبنهاور بعد صدور كتاب دارون بعام واحد دون أن يقرأ منه أو عنه سطرًا واحدًا . !

وكانت هناك نظريات كثيرة تفسر هذه التغيرات في تكوين الحيوانات نفسها . . لماذا رقبة الزرافة طويلة مثلاً ؟ يقول عالم فرنسي اسمه لامارك : أن الزرافة تنحدر من سلالة كانت تعيش في غابات . وكانت الغابات أشجاراً طويلة . فاضطرت الزرافة إلى أن تمد عنقها الوف السنين لكي تأكل الأوراق من قمم الأشجار . . وطال عنق الزرافة لهذا السبب . . ومعنى ذلك أن الحيوانات « تتكيف » مع البيئة . أو يجب أن تتكيف مع البيئة والا ماتت من الجوع . فالبيئة هي التي تؤدي إلى تغير تكوين الحيوانات . أو حرص الحيوانات على أن تعيش هو الذي يرغمها على أن تتغير وأن تتغير والا ماتت !

ونحن الآن لسنا بعيدين عن دارون وفلسفته . فهو يرى أن الحياة صعبة على الجميع . وأن الحيوان يجب أن يقاوم العقبات . ومن هذه المقاومة تتولد صلابته . ومن الصلابة يكتسب القوة . ومن القوة يكتسب التغلب على البيئة . . فإذا تغلب عليها عاش . . وإذا لم يفلح في ذلك مات . وكل الحيوانات التي ماتت هي حيوانات قهرتها البيئة وغلبتها الظروف . وأول معالم الحياة هو الكفاح . والكفاح من

صفات الاقوى. والاقوى هو الذى يبقى . فالبقاء للاقوى . والاقوى هو الاصلح للحياة . . فالبقاء للاصلح . والحيوانات التى تعيش هى أصلح الحيوانات لان تستمر . فماذا استمرت دخلت فى صراعات جديدة . وهذه الصراعات الجديدة تحتاج الى أسلحة جديدة والذى يجدد سلاحه هو الذى يبقى . والذى يلى سلاحه هو الذى يفنى . واذا كان الحيوان ينتقل من مكان فى الصيف الى مكان آخر فى الشتاء ، أو العكس فهو يختار الجو المناسب لحياته . . فالانسان يختار ظروفه المواتية له . . ولكن الطبيعة كلها تختار الحيوان الانسب . والانسان الاقوى . فالاختيار الطبيعى هو اختيار الأحسن . والأحسن هو الاقوى والاقدر على أن يتكيف ويتواءم وأن يتلاءم ويتطابق مع ظروف حياته المادية والاجتماعية .

انتهى تفكير دارون بعد أن حشد له الوف الأمثلة من ملاحظاته الدقيقة جدا التى استغرقت أكثر من عشرين عاما !

وقد ارسل دارون خطابا لصديق له يقول : فى يوم وأنا انظر الى القمر يتوارى وراء السحب جاءتنى هذه الفكرة وكأنها صاعقة لمعت فى رأسى وهزتنى . واندعشت كيف أننى لم أعرفها من قبل . لقد أدركت بوضوح أن الحيوانات لا يمكن أن تكون من أصل واحد ثابت . لا يمكن أن تكون قد قطعت ملايين السنين من الغابات والجبال تحت المطر فوق الجليد ، وفى الكهوف على السفوح فى حرب مستمرة ، دون أن يتغير فيها مخابلها أو أنيابها أو أظفارها أو فراءها . . مستحيل . هذا ما اهدتيت اليه !

ولم يتصور دارون لحظة واحدة انه بهذه العبارات المتواضعة

قد زلزل العلم والدين .. فالعلم لم يكن يرى شيئاً من ذلك . وإنما يرى العلماء أن القرد أصله قرد .. أما الدين فيرى أن القرد أصله قرد ، وأن الانسان أصله آدم وجواء .. ولا علاقة بين القرد والادميين !

وفي يوم كان دارون يتناول طعام افطاره عندهما دخل الخادم بخطاب .. فتح الخطاب . انتفض واقفا واجما . ثم ألقى بنفسه على المقعد حزينا .. ولكن لم يستمر كذلك كثيرا . فقد أدرك أن حياته كلها في خطر . وأن سنوات بحثه وملاحظته كلها توشك أن تأكلها نيران المدفأة أمامه .. فالخطاب يقول له : أن رجلا اسمه والاس يعيش هنا في جزيرة الملايو . الرجل عالم جليل فقير . مريض .. لقد حبسته الملاريا من أن يواصل رحلته الى أوروبا . هذا الرجل يناجر في الفراشات النادرة . ويبيع الحيوانات الجميلة لعدد كبير من الهواة والباحثين في أوروبا كلها .. فهو قد أرسل أكثر من عشرين ألف نوع من الفراش والطيور الى الهيئات العلمية . وهو يعيش من الصيد والتجارة . ولكن من المؤكد أن لديه كل مزايا العالم الكبير .. وقد هداه البحث الى شيء جديد .. والرجل يقول أن أساس كل شيء في الحياة الانسانية والحيوانية هو التطور . وأن الحيوانات تكافح من أجل أن تبقى . والحيوانات التي تبقى هي الأقوى ..

وكلام آخر كثير هو بالحرف الواحد ما قاله دارون !

ومن الغريب أن الرجلين قد خرجا بهذه الأفكار بعد أن قرأ كل منهما ما كتبه القس الانجليزى مالثوس عن تزايد السكان الذى سوف يؤدي الى جوع الانسان وفنائه . وكل واحد من الرجلين قد ذهب في طريق ليصل الى نفس النتيجة !

وليس هذا هو الحادث الأول من نوعه فى التاريخ . فكثيرا ما اهتدى العلماء الى نظريات واحدة فى وقت واحد ، دون أن تكون بينهما صلة ما .. فقبلها بمائتى سنة اهتدى العالم الانجليزى نيوتن والفيلسوف الالماني ليبنتس الى منهج فى الرياضيات واحد .. والى نظريات فى «التفاضل والتكامل» متطابقة تماما . وسارع كل منهما باعلان نظريته الجديدة .. فكانت النظرية هى هى عند كل من الاثنين .

واهتدى دارون الى حل سعيد حتى لا يتهم الرجل الآخر بأنه سرق افكاره . وحتى لا يتهمه والاس بأنه هو الذى سرقه . فقرر دارون أن ينشر كتابه الذى ألفه فى ٢٣١ صفحة على نفس البحث الذى كتبه والاس هذا . ونشر الكتابان معا . ولكن قدر لدارون أن يكون هو صاحب الاسم وصاحب النظرية وصاحب الثورة ايضا .. ولم تساعد الظروف والاس هذا ، فقد كان فقيرا وكان بعيدا عن لندن . ولم يكن لديه هذا الصبر على المتابعة .. ولذلك أصبح دارون هو صاحب نظرية التطور أو التطور نفسه اما والاس فهو « الصدفة » .. أو هو من عجائب الصدف . ودخل تاريخ التطور الانساني على أنه نكتة : اذ كيف أن رجلا مريضا فى احدى جزر الملايو يهلوس طول الليل ويمسك القلم ويدفعه امامه على الورق طالما نازلا كآته ثعبان يهتدى الى افكار رجل آخر فى لندن مريض ايضا يظل يهرش طول الليل حتى يسيل دمه ، تماما كما كان يفعل نابليون .. ربما وجد علماء الدراسات الروحية فرصة عظيمة ليقولوا : ان الرجل المريض كان فى حالة شغافية جعلته يقرأ افكار دارون وينقلها حرفا حرفا .. بل سطر سطر .. مع أن المسافة بينهما عشرات الالوف من الاميال .. ثم أن الرجلين لايعرف أحدهما الآخر !

شيء غريب هذا الذى حدث .. فعندما كان الانسان فى اوائل القرن التاسع عشر يفخر بأنه اخترع الآلة . وأن هذه الآلة قد أغنته عن الحصان والحمار ، جاء علم الحياة وعلم السلالات يؤكد أن الحيوان هو أصل الانسان . لماذا كانت العلوم الميكانيكية تريد أن تفخر بأنها نقلت الانسان من عصر الاعتماد على سيقان الخيول وأعناق الأبقار وظهور البغال ، فان علوم الحياة قد أعادت الحيوانات الى مجدها .. بل انها هبطت بالانسان الى ما دون الحيوان .. بل انه ليس الا حلقة فى سلسلة تطورات الحيوان .. وانه ليس بعيدا أن نُنظر الأجيال القادمة الى الانسان على أنه حمار أو حصان .. وذلك عندما يتطور الانسان الى كائن آخر أفضل .. المهم فى نظرية دارون انها حركت كل شيء ودفعته الى الامام .. او جعلت من الواجب أن يندفع الى الامام .. لأن الذى لا يتحول يتجمد . والذى لا يتطور يتدهور والذى لا يتقدم يموت .. وأن هذه ليست ميزة خاصة بالانسان ، وانما الحيوان قد سبقه الى ذلك . فلا فضل كبيرا للانسان على الحيوان .. أما الآلة فهي من اختراع الانسان .. والآلة أبسط وأتفه من أى حيوان .. فالحيوان تحفة فى الخلق . وهذا ما ذهب اليه رجال الدين ، الذين حاولوا أن يجدوا لهم مكانا جديدا تحت شمس هذه النظرية . لماذا كان دارون قد هدم مفهوم الكتب المقدسة لأصل الانسان ، فان رجال الدين بسرعة قد استفادوا من النظرية الجديدة وتكيفوا معها حتى لا يتصلب الدين ورجال الدين ويفوتهم قطار التطور .. ولذلك كان رجال الدين أول من قفز الى القطار الجديد وركبوه حتى لاتضيع من تحتهم ومن أيديهم أهم أسرار الكون .

ولما توفي دارون يوم ١٩ أبريل سنة ١٨٨٢ أعلن رجال الدين أن

هذا الشيطان يجب الا يدفن في مقابر المعظماء • ومن الخير له وللشعب
الانجليزى ان ينفذ ما اوصى به وهو ان يدفن في حديقة قصره الريفى • •
ولكن سرعان ما عدل رجال الدين عن هذا الموقف الجامد ورحبوا
بان يدفن الى جوار عظيم آخر هو نيوتن • • فكلاهما عظيم فى الحياة
وفى الممات وكلاهما خطوتان فى تطور علوم الطبيعة والحياة ! •



خلقنا الله بحياة لتفضى علينا بإنقاذ!

✽ المواصلات الحديثة قربت المسافات بين المدن والدول والقارات . وأصبح من السهل أن يتحرك الإنسان وأن ينقل أمراضه من مكان إلى مكان بنفس السرعة . . فالإنسان يركب السيارة والمباخرة وينقل معه ميكروبات أو حشرات تحمل الميكروبات والموت إلى أي مكان . مثلاً في القرن السابع عشر انتقل مرض اسمه (الجذرة المخية) وهو مرض يصيب كل الحيوانات ، وينتقل إلى الإنسان . اسمه باليونانية انثراكس . والتسمية دقيقة . ولذلك ترجمه الألمان بأنه (الفحم) والفرنسيون وصفوه بأنه الكاريون .

لأن المرض عبارة عن احتراق داخلي للحيوان . ولم يعرف أحد كيف ينتقل من حيوان إلى حيوان أو إنسان أو العكس . قالوا : أنه عفريت يركب الإنسان والحيوان ويشعل فيه النار من داخله . قالوا : لعنة من السماء حلت بالإنسان فنقلها إلى الحيوان . وقالوا : غضب الهى على الاثنين . .

ولكن الاطباء عندما نظروا تحت الميكروسكوب وجدوا ميكروبات على شكل عصي .. ووجدوها في الطحال . ولم يذهب احدا الى أبعد من ذلك .. حتى ظهر عالم المائى مجهول كان يعمل في غرفة ضيقة جدا في برلين .. هذا الرجل اسمه روبرت كوخ عبقرية فذة في الفهم والصبر وبعد النظر . وفي سنة ١٨٧٦ عرف كوخ أشياء كثيرة واكدها بهدوء . وظل كوخ هذا يطارد الميكروبات في أمعاء المصريين ومعدة الهنود وبراقيث اليابانيين ويعوض الأمريكيين .. وعرف الدوسنتريا ، وعرف الحمى الصفراء وعرف التيفوس والمalaria .. وكان كوخ هذا رجلا حكما وكان يقول : ان هذه الكائنات الصغيرة تحدثني بعبارات دقيقة جدا .. وأنا أحاول ان أسمعها بوضوح . وأنا أؤمن بأنها لا تكذب . بل اننى اعتمد على ذلك كل الاعتماد . ولهذا سوف أصل الى شيء ..

ومن الاكتشافات التى أذهلت كوخ هذا انه عندما وصل الى أواسط أفريقيا اكتشف أن خبابة « تسي تسي » التى نصيب بالنوم حتى الموت كل من تلمسه ، بها دم تمساح . وبعد ذلك اكتشف أن التمساح هو أكبر خزان لميكروبات النوم ، وان لديه مناعة تامة ضد الإصابة بهذا المرض . وأعجب من ذلك انه عثر على تماسيح لاتنام الا نادرا !



واهتدى كوخ أيضا الى أن فئران السفن هى التى تنقل الأوبئة من بلد الى بلد ..

فانفئران السودان جاءت من الشرق فى سفن الصليبيين ..

فكان أوروبا قد لقيت ما تستحقه من عقاب .. جاءت تنشر الموت
والتعصب ، وعادت سفنها مليئة بالفئران تنشر فيها الطاعون
والابوثة التي اكلت عشرات الملايين من الناس — الكوليرا مثلا !
ثم جاء الفأر البنى اللون ..

ففى سنة ١٧٣٢ وقع زلزال عنيف .. ومنزعت ملايين الفئران
واتجهت الى احد ضفاف نهر الفولجا عند مدينة استراخان ..
ولأسباب لا نعرفها الآن بوضوح قررت الهجرة .. وعبرت النهر
وغرق منها مليون فأر على الأمل .. ولكن بقية الفئران وصلت الى
الشاطئ . وواصلت زحفها الى الجنوب الى اوكرانيا .. ثم الى
الغرب الى بولندا . ثم الى بوهيميا .. ثم الى الشمال قليلا الى
بروسيا .. حتى وصلت الى سنة ١٧٤٠ .

وفى سنة ١٧٥٣ توقفت عند أبواب باريس ودخلت .. ونكاثرت
بسرعة ..

ووصل الفأر البنى الى أمريكا فى سنة ١٨٥١ .. واحتل
بجدارة المكان المتواضع الذى شغله الفأر الأسود وراح ينقل
بهمة ونشاط أمراض التيفوس وكثيرا جدا من أمراض الفم
والقدمين ..

* * *

الى جانب شخصية العالم الالماني روبرت كوخ ظهرت شخصية
استولت على القارة الأوروبية كلها : باستور .. ذلك العالم

الفرنسى النحيف المشلول احدى الساقين .. هذا الرجل لم يكن الناس ينظرون اليه على انه طبيب أو باحث وانما على انه رجل دين يعالج الناس بالمعجزة . فهو انسان طيب . أو رجل مبارك . وهو نفسه كان يعتمد على احساس داخلى بأنه سوف ينجح .. وأنه سوف يشفى المرضى باذن الله . لماذا ؟ لا يعرف ؟ كيف ؟ لا يعرف . ولكن هذا يحدث له ومعه وبسببه كثيرا جدا .

هذا الرجل هو من ذلك الطراز من الناس الذى لا يخاف الناس .. أى لا يخاف أن تكون له أفكار خاصة مختلفة عن أفكار الناس .. وأن له احلاما أخرى يكذبها الواقع . ولكنه وحده الذى يصدقها .. انها حياة قاسية جدا : أن يكون الانسان وحده مع أفكاره . أو أن يكون الانسان مثل خرستوف كولبوس وكل الناس يسخرون منه ولكنه مؤمن بأنه على حق .. أو مثل نوح عليه السلام بينى سفينة على الأرض . والناس يمرون به ضاحكين ولكن نوح كان يؤمن بأن السماء سوف تمطر وأن الطوفان سيجتاح كل الناس وسوف ينجو هو بأهله من الغرق .. وعلى الرغم من أن نوحا هذا قد أنقذ الناس والحيوانات ، فانه لم يفلح فى أن يقنع ابنه بأن يركب معه .. فنجى الناس وغرق ابنه .. وكذلك العالم الكبير باستور الذى عالج الكثيرين من الناس وشفاهم ، لم يفلح فى علاج اقرب الاقربين اليه .. وماتوا .. ولكن الملايين شفاهم أو أنقذهم قبل أن يصيبهم مرض .

واستطاع باستور ومعهدده أن يحتفظا بهذه السمعة العالمية المحترمة .. من أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم .. بل انه حدث أخيرا جدا أن أصيب بالتسمم بعض زبائن مطعم فى مدينة

لابلاتا بالأرجنتين . مات منهم عشرون . فأرسلوا عينات من الطعام ومن المصابين الى معهد باستور في باريس . وبسرعة جاء عدد من العلماء . واتفق مئات آخرين . . وحدث أيضا أن انتشرت الحمى البابونية في إحدى مزارع تصب السكر في جزيرة مدغشقر (جمهورية مالاغشى) . وبسرعة طار عدد من أطباء المعهد وأوتلوا سريان الطاعون بين المواطنين . أهم من ذلك أن العام كله يتوقع من هذا المعهد أن يأتى بالمعجزات . .

ويمكن أن يقال أن ملايين الناس في العالم اليوم أحياء بسبب هذا المعهد الفرنسي الذى أنشئ سنة ١٨٨٨ . ويوم إنشائه وقبل باستور نفسه يتسائد على واحد من أولاده ويبكى من شدة الفأثر . . وقد حرص باستور على أن يكون هذا المعهد أهليا مستقلا . . وقد شارك في بناء هذا المعهد بأمواله : أطفال من الهند وبلادها من الصين ومرضى في أمريكا . . وملوك وإباطرة . . وظل هذا المعهد هيئة علمية مستقلة تماما . .



أما الأحداث التى يذكرها العالم لهذا الرجل العظيم باستور فلا عدد لها . . ولكن الرجل كان يؤمن بأن هناك كائنات صغيرة جدا . . هذه الكائنات - البكتريا - هى مصدر الشر والخير للإنسان . بعض هذه الكائنات تضره وتنتقل اليه المرض . وبعضها تلغمه وتقوم بعمليات التخمر في الطعام والمشروبات . . وهو يؤمن بأن بعض هذه الكائنات اذا ارتفعت درجة حرارتها ماتت . وبعضها اذا جعلناه ضعيفا ، وحققنا به انسانا مريضا فانها تلهب حماس القوى الداخلية في الجسم الانسانى ليقاوم المرض الدخيل . .

ونحن عندما نقول أن اللبن « مبستر » أى أننا قد برصفناه ثم
سخناه ، كما كان يفعل باستور . وبذلك ماتت الميكروبات وانتقنا
حياة مئات الملايين من الأطفال في العالم من الإصابة بالسل !

ومن المواقف الحاسمة في تاريخ باستور وفي تاريخ العالم كله
أيضا :

انتشار مرض الكلب — بفتح الكاف وكسر اللام . فالتاريخ
لا يذكر لنا الا حالة واحدة فقط أصيب فيها انسان بهذا المرض ثم
قدر له أن يعيش لأن كل المصابين ماتوا ، وكان لابد أن يموتوا ..

حتى كان ذلك اليوم الحاسم في التاريخ .. أنه يوم « ٦ يوليو
الرائع » سنة ١٨٨٥ . جاء طفل في السادسة من عمره .. الطفل
اسمه يوسف ميستر . مهم جدا هذا الطفل . وهذا الاسم . الطفل
قد عضه كلب مريض أربع عشرة مرة في أماكن مختلفة من جسمه
.. وكانت محنة . فباستور لا يعرف ما الذي يعمل . ان هو
عالج الطفل ومات شحبت فيه أعداؤه وقالوا : قاتل .. ألم نقل
لكم من وقت طويل ؟ ..

واذا لم يعالجه كان فشله أوسع انتشارا من نجاحه .

ولكنها العبقريّة هي التي ألهمته أن يحققه أربع عشرة مرة ..
لماذا هذا الرقم ؟ لا يدري . ولكنه الرقم الذي يتم عنده الشفاء ..
وشفى الطفل . وانتشر هذا الخبر في أوروبا كلها على أنه معجزة
المعجزات .. وشاء باستور أن يجعل هذا الطفل اعلانا حيا لنجاحه

.. فجعله بوابة للمعهد .. بل انه بعد وفاة هذا البواب ، اقاموا له تمثالا — وما يزال — فى مدخل المعهد كأكبر نجاح حققه باستور لنفسه وللعالم كله ..

وبعد ذلك جاءه من روسيا ثلاثون فلاحا عضتهم ذئاب مسعورة .. جاعوا الى باريس ولا يعرفون من اللغة الفرنسية الا كلمة واحدة : باستور .. وعالجهم وأنقذ من الموت عشرين واحدا منهم .. أما سبب وفاة الآخرين فلأن الذئاب قد عضتهم قبل ثلاثة اسابيع . وقد جاعوا اليه متأخرين .

والوف آخرون من كل أوروبا جاعوا الى باستور يطلبون علاجاً لأمراض أخرى لا يعرفها. ولكنه تمنى ذلك وتمنى لهذا المعهد الذى أنشئ حديثاً أن يكون أملاً لكل المرضى . والا يرد مريضاً .. ولا يخيب أملاً فى الشفاء .. وهذا المعهد يعيش على الاتصال التىبيتكرها ويصنعها ويبيعها للعالم كله لحقن المرضى .. وسلامتهم بعد ذلك ..

يقال أن مريضاً سأل باستور : كيف عرفت طريقك الى هذه الكائنات الصغيرة ؟

فأجاب : أنا لم أعرف طريقها ، هى التى عرفت طريقى ... واعترضتنى وعطلتنى .

— كيف ؟

— انها اصابتنى بالشلل فى احدى ساقى .. ولا اعرف ان كنت
سوف امشى لاجد علاجاً للذين اصابوا .. أو لاجد وقاية للملايين
حتى لا يصابوا ..

— ولكنك انقذت الملايين ..

— هذا رقم كبير ..

— فعلا انقذت الملايين ..

ولكن هناك ملايين آخرين يجب انقاذهم .. ملايين لم يولدوا
بعد .. هذا هو الذى يشغلنى !

وقبل باستور سئل العالم الالماني العظيم روبرت كوخ عندها
جاء الى مصر فى اواخر القرن التاسع عشر :

— يا دكتور كوخ انت مكتشف عظيم فمضحك ليقول : مكتشف
عظيم لكائنات حقيرة .

— هل ترى انها حقيرة فعلا ؟

— لاشيء حقيرا فى هذا الكون لكل شيء خلقه الله بعناية ليؤدى
دوره بملتهى الاتقان .. آه لو رايت هذه الميكروبات كيف تعمل على
اداء مهمتها .. كيف تدافع عن نفسها .. كيف تتسلل الى الجسم
الانسائى وتتحصن .. ان نشاطها ونشاطها ونظامها يحسدوها
عليه كل المهندسين والعسكريين .. ولكنها كائنات ضارة .. وهى

في نفس الوقت كائنات لها نظام عجيب يبعث على الدهشة والايان
بعملة الله .. صحيح انها ضارة جدا ولكنها اجهزة دقيقة جدا ..
وهذا هو الذي يبهرنى .. وانك احاول دائما ان اهرب من الوجود
في اسرها .. واتوقف بسرعة عن الاعجاب بها الى العمل على
الوقاية منها ..

.. وكانت بداية رائعة للحرب ضد الكائنات الصغيرة جدا من
اجل القضاء على بقية الكائنات !



هذه الكائنات النازية لم تهبط الجيوش

جمع الملك لويس الخامس عشر رجاله
ونلت اليهم يقول : ماذا يجب أن نكتب في هذه
الرسالة ليعرف عدونا روح الشعب الفرنسي .
واختلف الرجال حول الملك . كل واحد يقول
عبارة تليق بعظمة فرنسا ولكن الملك رأى شيئاً
آخر . وأشار بيده . وجاء رجل وقال له :
هذه العبارة انقشها على مدفعي .

وضحك الرجال حول الملك . وكأننا أراد الملك أن يخرجهم
جميعاً . فتساءل : ماذا تقولون ؟ ولم يقل أحد . وقال الملك :
انقش هذه العبارة على مدفعي : انقلت باب المناقشة وفتحت
النار !

ثم جاءت الجمعية الوطنية الفرنسية يوم ١٩ أغسطس سنة
١٧٩٠ ومسحت هذه العبارة !

ولكن مثل هذا النقاش بقي دائراً دائماً في كل مكان : هل
هى الحرب ؟ هل هو السلام ؟ أيهما الوسيلة لاقتناع الآخرين . .

أو ارغامهم على الانتناع والنتيجة : موت عشرات الالوف .
مئات الملايين من الناس في كل العصور !

ولكن لماذا الحرب ؟

قبل أن تجيب على هذا السؤال بالنيابة عن شعبك ، أسأل :
لماذا الحرب بينك وبين الناس . لماذا وصلت الى نتيجة ماضربها
في عدد سكان شعبك والشعوب الأخرى . والنتيجة مقنعة لانها
هى الجواب الصحيح !

ولكن هل هذا هو نوع الحرب الوحيد الذى عرفه الانسان !
الجواب طبعاً : لا ... فهناك حروب من نوع آخر .. حروب
بلا جيوش ولا أسلحة ولا نار ولا شرار ولا خطب ولا زعماء ،
ولا نياشين ولا أنواط .. حروب أقوى من كل الحروب ، بل
هى الحروب التى أوقفت الحروب وأعادت الجيوش من منتصف
الطريق .. ولم يجد الانسان وسيلة واحدة لايقاها .. هذه
الحروب هى حروب الانسان ضد قوى طاغية باغية جبارة ..
ضد الميكروبات والحشرات والحيوانات التى تنقل الميكروبات
الى طعام الانسان وشرابه وملابسه وتقهره في معركة غير
متكافئة الميكروبات هى الأقوى دائماً ..

ومن أقدم العصور يحدثنا مؤرخ الاغريق هيرودوت أن الملك
الفارسي اكزركيس دخل منطقة تساليا بجيش من ٨٠٠ ألف رجل
.. ونفذت الأخيرة ثم جاء الجوع فأسقط رجاله ضحية لمرض
لا يعرفونه .. فمات من رجاله نصف مليون جندي .. وعاد الملك
كسير الرأس الى بلاده !

أما قوات اثينا ، فقد هاجمها المرض ، وأطاح بجيشها وأرقدته على الأرض . ودأست الجيوش بعضها البعض . . ومات ألف فارس وأربعون ألفا من الجنود .

وفي عام ٤١٤ قبل الميلاد حاصرت قوات قرطاجنة مدينة سرتوسة واكتسحتها الأوبئة وانحسرت المعارك قبل أن تبدأ .

ولا أحد يعرف مصير روما والحروف البونية لو وجد القائد هاتيبال قوائمه في صقلية كما تركها قوية ولم يستبد بها المرض .

ثم الحروب الأهلية في روما سنة ٨٨ ق.م وانتصار ماريوس المؤكد قد اضاعه انتشار مرض لا يعرفون اسمه في ذلك الوقت وقضى على عشرين ألفا من رجاله .

وفي عام ٤٢٥ ميلادية تقدمت جيوش الهون الى القسطنطينية . . ولكن وباء استشرى بينها فعادت الى قواعدها في وسط أوروبا .

أما الحروب الصليبية فهي نموذج صارخ لما يفعله مرض الأسقربوط الذي يجيء عن نقص في التغذية وحاجة الجسم الى الفيتامينات ، وضعف الجسم وعجزه من مقاومة أى مرض نخيل ففي ١٠٩٨ زحفت الجيوش الصليبية في اتجاه الأراضى المقدسة ، وزحف الجوع وسوء التغذية في الاتجاه الآخر . وكانت هذه الجيوش تضم سبعة آلاف من الفرسان ، مات منهم خمسة آلاف .

وبعد أيام من الزحف على القدس سنة ١٠٩٩ لم يبق من

الجيش الذى يتكون من نصف مليون سوى ستين ألفا .. وفى سنة ١١٠١ أصبح عدد القوات الصليبية عشرين ألفا .. عادوا حفاة حراة يركبون الأبقار والحمر الى أوروبا !

وفى الحملة الصليبية الثانية التى قادها ملك فرنسا لويس السابع كان من نصيبها أن تلقى نفس النهاية . ولم يبق من جيش يضم نصف مليون سوى ثلاثين ألفا !

وحدث شيء آخر فى سنة ١١٩٠ أن جاء مرشد تركى وسارت القوات الصليبية وراءه ، وإذا بالرجل يستدرجهم جميعا الى الصحراء حيث الجوع والعطش ومرض الاستقربوط ، مات مائتا ألف ، أما الباقون فماتوا نصف أحياء .. ومات الكثير منهم فى الطريق حتى عبروا الدردنيل بقايا بشر !

وحدث أيضا أن الامبراطور الألماني فريدريش الثانى قد غادر بأسطوله ميناء برنديزى الايطالى ، فى طريقه الى بيت المقدس .. ولكن فى احدى ليالى ١٢٢٧ أحس الامبراطور بالآلام شديدة واسهال دموى . لقد أصيب الامبراطور بالدوسنتاريا وجاء طبيب الامبراطور .. ما الذى يصنعه ؟ ولكن بعد ساعات أصيب أحد الضباط .. ومئات الضباط والوف الجنود وعاد الملك وجيوشه من عرض البحر !

والاستقربوط ليس مرضا معديا ، ولكن من أمراض الحروب ! وخصوصا القوات المحاصرة والقوات الزاحفة وقتنا طويلا .. وقد أهلك ملايين الجنود فى التاريخ .. وهذا المرض ليس خطيرا فى ذاته فقط ، ولكنه صديق لجميع الأمراض الأخرى . فهو يساعد

على التسلسل الى الاجسام ويضعف مقاومتها .. ويجعل اقامتها
ايسر .. حتى الموت !

وفي الجمعة الاولى من سنة ١٢٥٠ أعلن القديس لويس ملك
فرنسا ، أن قواته تصاب بأشياء غريبة . وفسر ذلك بأن رائحة
الجثث هي السبب . وأن الحديدان التي تاكل جثث القتلى في الانهار ،
هي التي تؤدي الى انتشار الأمراض بينها . أما المرض فهو
الاستقربوط طبعا . وكان يجفف جلد البشرة والساق .. ويجفف
الحلق والشفتين واللثة .. وكان الحلاقون يزيلون هذا الجلد
الميت بالسكين حتى يتمكن الجنود من تناول الطعام والشراب .
وكان الجنود يصرخون كالاطفال . ولكن لا تفسير علميا لذلك
وانسحبت جيوش القديس لويس . ولم يكد يصل الى تونس حتى
مات يوم ٣ أغسطس سنة ١٢٧٠ ومات ابنه يوم ٢٧ أغسطس
.. وكانت آخر كلمات القديس لويس : هؤلاء الكفرة الوثنيون قد
استخدموا ضدنا أسلحة لا نعرفها — أما الكفرة الوثنيون —
الذين يقصدهم فهم المسلمون !

أما القوات الرومانية فقد أحرقت معسكراتها كلها يوم ٦
أغسطس سنة ١١٦٧ لماذا .. يقول طبيب الحملة نفسه . أصيب
الجنود بارتفاع في درجة الحرارة ورعشة وهذيان وآلام شديدة
في الظهر والساقين والبطن . وهذا التشخيص دقيق .. أما
المرض فهو التيفوس !

وهو من أخطر الأمراض وأشدّها فتكا بالجيوش في العصور
القديمة !



ويمكن أن نسجل الصراع بين فرنسا وأسبانيا في كل العصور القديمة بأنه صراع بين المرض والصحة . وأنه في كل مرة تزحف القوات يعود بها المرض . وكان المرض أو الميكروب هو الذى يحدد اتجاه الجيوش ويلوى مسارها وانكسارها والملك الفرنسى فيليب الثالث عاد من حملته على أسبانيا سنة ١٢٨٥ . فقد هزم الوباء جيش الملك وقضى على الملك نفسه !

وربما انفردت الحروب بين أسبانيا وفرنسا بانتشار مرض واحد هو التيفوس ، وهو يجيء من القمل الموجود في ملابس المتحاربين !

وفي أول أكتوبر سنة ١٤٣٩ وصل الامبراطور الالماني البرشت الى مشارف بغداد . وفي يوم ١٣ من نفس الشهر انسحب الامبراطور والجنود . فقد أعدتهم الدوستاريا عن مواصلة السير أو استئناف القتال !

أما الملك شارل الثامن ملك فرنسا وهو يحاصر نابولى الإيطالية فقد أصدر قراره بالعودة . ولم يكن في حاجة الى أن يشرح السبب ، فقد أصيب هو والوف من جنوده بمرض الزهري !

وعندما حاصر الملك شسارل الخامس ملك فرنسا مدينة متس الالمانية تراخى الحصار فقد أصيب هو وثلاثون ألفا من جنوده بالدوستاريا .

أما الامبراطور الالماني ماكسميليان الثانى فقد فقد جيشا من مائة ألف جندي كان موجها ضد السلطان سليمان . وكان في نية الامبراطور أن يزحف على المجر ولكن حدث شيء سنة ١٥٦٦ جعل الامبراطور يعدل عن قراره . . فقد دبت المعارك بين القوات . .

وسحب كل واحد سلاحه على الآخر : سخونة وهذيان . فللجنود
قد أصابهم التيفوس وعذل الامبراطور عن الحرب !

اما حروب الثلاثين عاما في أوروبا ، فقد تميزت بسيادة التيفوس
على كل المتحاربين . بل أن القوات الألمانية قد زحفت من اتجاهين
على مدينة نورمبرج في سنة ١٦٣٢ ، ودون اتفاق بين الطرفين
انسحبت الجيوش من هنا وهناك . والسبب : الاسترپوط ،
والتيفوس والدوسنتاريا .

والملك الانجليزى تشارلز الاول كان في نيته أن يزحف على
لندن . وعارضه البرلمان . وتوقف بعض الوقت ، ثم توقف نهائيا
بعد أن أصابه التيفوس . فتوقف عن الحركة تماما .

وعندما انتصرت قوات الامبراطور فريدريش الاكبر على قوات
الامبراطورة ماريا تريزا النمساوية زحف على ولاية بوهيميا ..
ولكن على غير ما توقع النمساويون ، عاد الامبراطور منسحبا
اما السبب فيرويه لنا الدكتور لوكوف طبيب الامبراطور : لم يكن
الامبراطور معتدل المزاج في هذا اليوم ، كان عصيبا جدا ، وكان
رجلا كافرا . ولا يؤمن بوجود اله أو معجزة أو أن الدعاء الى
السماء من الممكن أن يحقق شيئا ما .. وكان الناس حول
الامبراطور يصلون له . وكان الامبراطور عاقلا . فقد امتنع عن
الطعام . وكان يحتفظ بأنواع من العقاقير جاءت اليه من الشرق
ولابد أن أحدا قد نصحه بأن يتناولها كلما مرض . وتناول الذي
لا أعرفه . وشفى الامبراطور من الدوسنتاريا .. ولكن الالوف
من جنوده قد خلعوا ملابسهم وتفرقوا في الغابات بسبب الإسهال
الدموى الشديد .. وقرر الامبراطور وهو حزين تماما أن نجح
لشياعنا ونعود . ولا داعى للحرب !

وقد لعبت الدوستاناريا دورا هائلا في انتفاذ الثورة الفرنسية —
هكذا يقول الطبيب الساخر هانس تسنسر في كتابه «الفران
والقمل والتاريخ» . يقول : في سنة ١٧٩٢ قرر الامبراطور
فريدريش ملهلم الثاني اعداد جيش من خمسين ألفا للرحف على
قوات الثورة الفرنسية والقضاء عليها . وراجع الامبراطور الخطة
مع قواده .. وسألهم ان كان النصر مؤكدا . قالوا : نحن متحدون
وهم متفرون . نحن اقوياء وهم غلاسلة ..

وقرر الامبراطور الرحف . وتقدمت القوات . ولكن مجاة
تفرقت القوات كل جنسدى في مكان .. وكان الجنود يساقون
المسباط في البحث عن مكان يتوارون فيه . فقد اذابهم الدوستاناريا
.. وكان منظرا غريبا مجيبا .. كل هذه القوات قد تدمرت على
شواطئ الراين تعاني من آلام هذا المرض المفاجيء ا

وفي سنة ١٨٠١ أرسل نابليون قائده الجنرال لكلاك ومعه
٢٥ ألف جندي لاضمار ثورة نشبت في هاييتى . ونزلت القوات
الفرنسية الى شواطئ الجزيرة . وتراجعت امامها القوات
الزنجية . ثم تلامت الحمى الصفراء تحصد الفرنسيين وقطعت
منهم ٢٣ ألفا .. ولم يبق حتى من هذا العدد سوى ثلاثة آلاف
فرنسى عادوا الى فرنسا سنة ١٨٠٣ ا

يقول كوركوب طبيب نابليون : لو كان نابليون قد توقف بعض
الوقت في بولندا . واعاد تنظيم قواته . وراعى الاجراءات الصحية
ما كان هذا مصيره امام موسكو . ان المرض قد هزمه قبل الجليد
وتبل القوات الروسية . المرض اولا . والجليد ثانيا والارهاق
ثالثا والروس رابعا .

يقول كوركوف أيضا : لقد انسحب نابليون من موسكو ومعه
مائة ألف جندي .. أما الباقي نموتى ومرضى ومتجمدون وقتلى .

أما المارشال الفرنسي ناي فقد أمره نابليون بأن يصعد ..
وصعد المارشال حتى لم يبق معه سوى عشرين جنديا وضابطا
.. وهؤلاء الجنود ماتوا بالدوسنتاريا والتيفوس .. بل أن هؤلاء
الجنود قد أكلوا جلود الأحذية .. وأكلوا لحوم البشر .. كان
الجندي ينكس على الجندي الآخر ويبحث في جسمه من مكان لم
يصب بشيء ويأكله .. ويرتمى إلى جواره مسبوما أو مريضا .
ثم ميتا بعد ذلك !



ان العلم الحديث قد كشف للإنسان أن هناك كائنات أصغر
منه وأقوى منه .. ليس الحيوان الطيب هو الذى أجمل من
الإنسان وأكثر فضيلة .. وهو الذى أحق بالعناية والاحترام ..
وانما هناك كائنات أصغر وأحقر وانفه مما يتصور .. هذه
الكائنات الضئيلة هى التى قضت عليه وأبادته وجعلته يشمر أنه
أصغر وأتفه .. وعلى ذلك يجب أن يتواضع الإنسان قليلا أو كثيرا
.. فليس هو السيد المطاع الأمر الناهى القادر على كل شيء ..
أو القادر على كل شيء الا شيئا واحدا : هذه الحشرات أو هذه
الميكروبات التى لا يدربها .. ويجب أن يتفرغ لها ، فهى لا تكف
عن التكاثر والاتحاد دفاعا عن حياتها .. ويوم ينقرض الإنسان
سوف تكون هذه الكائنات وارثة للأرض وما عليها ومن عليها !

دروءا عن الناس والكلاب نظريّة !

اديبية فرنسا كوليت هي التي قالت : لو لم
اكن انسانا لتمنيت ان اكون حيوانا . ولما
سئلت : اى الحيوانات تختارين ؟ قالت : ان
اكون قطّة تلعب مع كلب في قفص قرود على
جبل الأسود . ولما سئلت مرة اخرى : ولكن
لماذا ؟ قالت كوليت : فقط ان اعيش بغريزتي
بلا خوف . . بلا حدود بلا حدود بلا تدخل من
احد من رجال القانون او الدين . . من هذه
الأكاذيب التي يسميها الناس : حضارة
الانسان . .

اننى لا ارى الانسان أسعد من الحيوان . . اننى لا ارى
الطائرات أخف من الطيور . . اننى لا ارى الرجال أشجع من
الأسود ولا اكرم منها . . اننى لا أصدق ان الانسان هو أجمل
وانكى وأقوى هذه المخلوقات على الارض . . اننى كلما عرفت
الحيوان ازدت احتراماً له ، واحتقاراً للانسان . . أسعد لحظات
عمري هي التي اشعر اننى فيها مثل قطّة أو مثل كلب . . وأن كل

الذين حولى ليسوا من البشر .. ولذلك أجد سعادتي الكبرى فى أن
أغمض عيني حتى لا أرى آدميا واحدا .. وأعيش بخيالى مع ما لا
عدد له من الحيوانات .. اننى عندما افتح عيني أجد الانسان ،
وعندما أطبقهما أجد الحيوان — ولذلك سعادتي الكبرى أن أقفل
مبني والباب والنافذة وأسحب الغطاء على رأسي وأمسو كالهرة
السعيدة بأنها تجردت من انسانيته المريعة ! » .

وكلام كثير آخر جميل تقواه كوليت التى ألفت كتبنا هناوينها :
السلام منذ الحيوانات .. كيكي اللذيذة .. سبع محاورات مع
الحيوانات ..

ولكن أحب الحيوانات الى كوليت : القطه .. لماذا ؟ لديها الكثير
جدا الذى تقوله من نعومة القطسة ونظافتها .. ورشاققتها ..
وتسللها فى الليل دون أن يشعر بها احد .. كأنها فكرة أو كأنها
شبح أو كأنها مريض .. أو كأنها شيء يلير دون أن تدركه جاذبية
الأرض ..

لتقول كوليت أيضا : لا أعرف لماذا هم فى الشرق يعتقدون أن
القطه لها سبعة أعمار .. وأنها من الممكن أن تموت أكثر من مرة
.. أو من الممكن أن تعيش أكثر من مرة .. أن القطه — وهى
شرقية الأصل — يجب أن تعيش مائة عام .. لكل ما يحتاجه
الانسان فى الدنيا ، هو أن يكون ناعم الحركة والملبسة والفكر ..
لأن تعاسة الانسان هى خشونته .. خشونة الكلمة والمعل !

وهذه القطط دخلت أوروبا مع الحروب الصليبية . وكانت
حيوانا غريبا . ولكن بسرعة عرف الأوروبيون مصلاتها : أنها

تهجم على الفئران تأكلها ويكفيها ذلك غفرا . وقد كانت عند الفراعنة حيوانا مقدسا . وكان العرب هم الذين نقلوها الى أوروبا والاسلام قد طلب من الناس الرحمة بالقطعة بسل أن الرسول عليه السلام يروى : أن امرأة فخلت النار بسبب قطعة حبستها : لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من فضلات الأرض .

ومع اكتشاف الميكروب وطرق العدوى بدأ الناس يخافون من القطط والكلاب أو من الكلاب فقط . لان القطعة تنظف نفسها بلسانها فلا تترك ذرة تراب في فموة جلدها . ولكن العلماء يؤكدون أنه رغم هذه النظافة المؤكدة فإنها تنقل الميكروب أيضا . بدأ الناس يشعرون بالخوف من القطط والكلاب ويحترسون في معاملتها وفي الاقتراب من اظافرهما وانيابها وفمها . . ورغم تحذيرات الاطباء فإن الناس مضوا يحبون القطط والكلاب ويطعمونها ويقبلونها . وأكثر الاطباء يحذرون من القبلات بين الرجال والنساء ويرون أن الفم أقل مكان في الجسم كله نظافة وطهارة . وأن العدوى مؤكدة عن طريق الفم . فهل سمع الناس هذه النصيحة ؟ طبعا لم ولن يسمعوها . ويقول اطباء آخرون : (ان الفم يتغير طعمه ويصبح اللعاب قاتلا للميكروبات عند القبلات الحارة . وأن القبلات التي تنقل الميكروبات هي الباردة التي لا احساس فيها) .

وليس كل القطط مفيدة : أى تقتل الفئران ، انها القطط الضالة أى أن القطط التي تفيد الانسان هي التي لا تستفيد من الانسان .



ولكن عرف الانسان ان القط حيوان نظيف ، ولكنه غبي وعنيد . . وليس مفيدا مثل الكلاب . فالكلاب يسهل عليها أن تتعلم . فتكون للحراسة والصيد ولانتقاذ الجرحى في الحرب والسلام . .

وقد حصلت الكلاب على نياشين عسكرية . وصعدت سفن الفضاء .

وعاش الناس الوف السنين يتغنون باخلاص الكلب لصاحبه ووفائه حتى الموت : فكثيرا ما عاشت الكلاب تحت اقدام اصحابها ، حتى اذا مات الصاحب امتنع الكلب عن الطعام حتى الموت . وفي القرآن الكريم قصة اهل الكهف الذين ناموا في كهفهم وظل كلبهم نائما بالباب اكثر من مائتى سنة . .

وكان نوم الكلب واسمه « تطهير » رمزا للوفاء الطويل ، والانتظار الذى لا يعرف الملل !

وكان من عادة الناس فى الريف المصرى أن يكتبوا على خطاباتهم كلمة « تطهير » — حتى لا يضيع الخطاب !

حتى جاء عالم روسى اسمه بافلوف فجرد الكلاب من ولاءها ونزع من السعادة الانسانية كلها حبها لاخلاص الكلاب . . أو حبها لاخلاص فى الكلاب . وخرج بنظرية تقول : لا الكلاب عندها اخلاص ولا الانسان عنده وفاء . . وانما كل ما هنالك مجموعة من الأفعال والأفعال المنعكسة المترابطة . . مثلا : اذا اتينا بالكلب وقدمنا له الطعام وفى نفس اللحظة رحنا ندق جرسا . فان لعاب الكلب يجرى مع رؤية الطعام وصوت الجرس . . واذا سمع صوت الجرس دون طعام فان لعابه يجرى . . وكل تصرفات الحيوان والانسان مثل هذا الكلب تماما . . فالكلب الذى يرى صاحبه فينام عند قدميه أو يأكل أو يشرب . . ويعتاد على ذلك ، فاذا تغيب الصاحب لسبب ما ، فان هذا الكلب لا يأكل ولا يشرب . . لا حبا ولا اخلاصا . . ولكن مجرد فعل ورد فعل . . فلا اخلاص ولا وفاء لا عند الناس ولا عند الكلاب !

ولكن الناس يرون في الكلاب رغم ذلك ، اخلاصا وحبا وطاعة
عبياء — يفتقدونها بين الناس !

* * *

واذا كانت أدبية فرنسا كوليت قد كتبت كثيرا عن الحيوانات فلا
ينافسها الا أديب بلجيكا مترلنك الذي ألف كتابا عن « حياة النحل » .
وهو لا يقصد النحل بالذات . . ولكن ينظر الى الانسان من خلال
النحل . . ويتمنى لو كان للانسان بعض مالدى النحل من حب
واخلاص وصق وتعاون وانكار للذات . . ولكن احدا لا يستطيع
أن يألف النحل أو يستأنسه أو يجعله طبعاً مثل الكلاب . . ولذلك
بقى النحل مثل كثير من الحشرات والحيوانات التى يراها ولا يقترب
منها أى يعجب بها من بعيد ! .

واستفاد الانسان من طائر قديم واستخدمه فى نقل الرسائل
من مكان الى مكان هذا الطائر هو « حمام الزاجل » وقد استخدم
النراعة هذا الحمام . . واستخدمه الاغريق . ويقال أن البحارة
الاغريق كانوا يطلقون هذا الحمام قبل نهاية الرحلة التى يقومون
بها . ويعود الحمام الى مكانه وفى جناح كل منها أو فى رجلها علامة
وهذا معناه أن البحارة قد وصلوا فى سلام . . وفى ذلك الوقت
لم يكن احد يعرف وضع الرسائل فى سيقان حمام الزاجل .

وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية توقف الاوروبيون .
لاسباب غير معروفة الآن عن استخدام حمام الزاجل الذى انتشر
فى الشرق الاوسط . فقد كان خلفاء بغداد يسهرون فى استخدام
حمام الزاجل . فلا يوجد قصر من قصور الخلفاء أو الولاة ليس به
برج أو قفص . وكثيرا ما يكون قفص حمام الزاجل فى قاعة الاستقبال
فى قصر الخليفة . وكثيرا ما تلقى الخليفة أو السلطان أو والى

مفاجأة تهبط من السماء عليها ويفتحون رسالة الحرب أو السلام
أو الحب ..

وفي سنة ١٥٩٠ عندما حاصر ملك فرنسا هنري الرابع مدينة
باريس ، لم يجد الفرنسيون وسيلة للاتلات من هذا الحصار
الا بحمام الزاجل يطلقونه في سماء باريس يحمل الاخبار ويحمل
اليهم الاخبار .. ويقال أن الانجليز قد استخدموا الصقور واطلقوها
على الحمام ولكن الحمام أسرع في الطيران ، وأكثر طاعة لغريزته
ولكن الصقور لم يكن من السهل ترويضها أو التحكم في طيرانها أو
انقضاضها على حمام الزاجل .

ومن أشهر حوادث حمام الزاجل في القرن التاسع عشر أن
المليونير اليهودي روتشيلد كان يتابع معركة واترلو بين نابليون
ولنجلتون . وارسلوا له اخبار المعركة عن طريق حمام الزاجل .
ولم يكن أحد يشك في أن نابليون هو الذي سوف ينتصر . ولذلك
هبطت اسعار البورصة . وتقدم روتشيلد واشترى كل الاسهم
لأن الحمام نقل اليه أن ولنجلتون الانجليزى هو الذى انتصر . وقد
عرف روتشيلد هذه الأنباء قبل أن تعرفها الحكومة البريطانية .
وارتفعت الاسهم وعاد روتشيلد وباع كل ما عنده . فكسب الملايين !
وفي سنة ١٨٤٠ استخدم الصحفى الالماني رويتر حمام الزاجل
بين فرنسا وبلجيكا ، حيث لا توجد خطوط تليفرافية .

ورغم وجود الخطوط التليفرافية ظل استخدام حمام الزاجل
منتشرا بين الدول وقد ظهر حمام الزاجل بصورة واضحة جدا في
الحرب بين فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ . ومن أشهر الرسائل
التي عرّفها المقاتلون في ذلك الوقت ما بعث به مستشار المانيا
بسمارك فقد أرسل رسالة مع حمامة لأحد قواده . الرسالة تقول:
طبعاً نهمت !

وواضح انه يخشى ان تقع هذه الرسالة فى يد الفرنسيين . ولكن
القائد فهم ما يقصده بسمارك .. ولم يفهم أحد غيرها شيئا حتى
اليوم !

وكان الفرنسيون يضعون حمام الزاجل فى بالونات . ويطلقون
البالونات الى السماء . وبكل بالون قفص . ولا يكاد يرتفع البالون
ويخرج من المناطق المحاصرة حتى يدفع الحمام باب القفص ويخرج .
ويقال أن حمام الزاجل قد حمل أكثر من مليون رسالة الى أهل
مائتى ألف فرنسى .

وعيب حمام الزاجل ان نشاطه محدود . فهو يعود الى المكان
الذى مائى فيه . والذي يحدث هو أن الناس ينقلون الحمام الى
أى مكان ثم يطلقونه فإذا به يعود الى مكانه الاصلى ..

مهما كانت المسافة .. قد تكون ألفا أو عشرين ألف كيلو متر ..
ويستطيع حمام الزاجل أن يطير بسرعة خمسين ميلا فى الساعة
ولا يتوقف عن الطيران حوالى العشرين ساعة ..

ولكن رجلا ايطاليا وجد حلا لهذا النشاط المحدود لحمام الزاجل
فقد قرأ عبارة للشاعر الالماني شيلر تقول : ما لم يتمكن العقل
من السيطرة على كل شيء ، فان الجوع والحب قادران على أن
يتحكما فى تصرفات الناس !

قرأ رجل ايطالى اسمه مالاچولى هذه العبارة وكان يحب حمام
الزاجل ففهمها على هذا النحو : ان تجويع حمام الزاجل هو الذى
يجعله يطيع الاوامر .. وابعاده عن انثاه أيضا .

ولذلك لجأ مالاچولى الى حيلة .. فكان حمام الزاجل اذا هبط
عنده أطعمه كثيرا .. ولكن أبعده عن الانثى أو عن الذكر حتى

لا يكون جنس .. ثم نقله الى مكان آخر حيث يكون الجنس ..
وبعد التمرين اصبح حمام الزاجل بدلا من أن يهبط في مكان واحد ،
فانه يهبط في مكانين .. وكان هذا هو أول تعديل في سلوك حمام
الزاجل !

غير أن العلم الحديث لم يهتد الى تفسير واحد لسلوك حمام
الزاجل . هناك رأى يقول : ان الحمام يهتدى بجاذبية الارض ..
ورأى يقول بضوء النجوم .. ورأى يقول أنها ملوحة الهواء لو
الماء .. ورأى يقول بأن هناك بوصلة في رأس حمام الزاجل يضبطها
ذهابا وايابا .. ولكن لا يوجد تفسير واحد يقنع الجميع ..

وقبل أن تعلن الحرب العالمية الاولى بليلة واحدة كانت الجيوش
تنظم حمام الزاجل وتكشف عليها وتطعمها .. تماما كما تفعل
بقواتها المسلحة قبل دخول المعركة . وفي المانيا وحدها في ذلك
الوقت ثلاثة آلاف جمعية لتربية حمام الزاجل ..

وحاول الكثيرون أن يلقنوا حمام الزاجل دروسا أخرى كما
فعل الهاوى الايطالى مالا جولى .. ولكن لم يصلوا الى نتيجة
معقولة .. ولكن رجلا ايطاليا آخر هو الذى الفى مهمة حمام
الزاجل تماما . ذلك الرجل هو ماركونى الذى اكتشف الاتصالات
اللاسلكية بين الدول .. ولم يعد هناك ما يخيف أحدا او يعوقه ..
فالعالم كله أصبح قريبا جدا .. فلى امكانك أن تتصل بأى مكان
في نفس اللحظة وانت جالس في بيتك !

ولا شك أن ذكاء القط أقل من ذكاء الكلب . وكلاهما محدود
الذكاء . والقدرة على تعلم هذه الحيوانات محدودة أيضا . وحمام

الزاجل ليس ذكيا ولكنه ينطلق غريزيا وبصورة لا نجد لها تفسيراً علمياً .

وربما كان الحصان اذكى هذه الحيوانات جميعاً . فقد استطاع أحد النبلاء الالمان أن يجعل حصانا اسمه هانس أن يكتب بساقه الأرقام . . أو أن يعلمه الجمع والطرح والضرب ، فكان يكتب المئات بساقه اليسرى والعشرات بساقه اليمنى . ولم يحدث أنه اخطأ قط . .

واستطاع النبيل الالمانى فلهم فون دوستن أن يجعل الحصان يكتب كلمات المائتة طويلة . .

واستطاع أيضا أن يروض أحد الخيول العربية على كتابة اللغة الالمانية بدقة . هذا الحصان اسمه « عربى » وكان عربى يخطئ فى كتابة بعض الحروف ويصر على ذلك . ولكنه كتب أكثر من مائة وخمسين كلمة المائتة . .

وجاءت الحرب العالمية الثانية وشغلت الناس عن تلقين الخيول أن تتعلم أو تتكلم . .

* * *

ولكن أثر هذه الحيوانات وهذه الحشرات وهذه الميكروبات فى تاريخ الانسان طويل عريض . . ولكنه لم ينته بعد . وكل ما على الانسان فقط أن يسجل ما يحدث له بسببها ، وما يحدث لها بسببها . . ولكن فى ذهنه دائما انها هى الأقوى رغم أن احدا لا يصدق ذلك ، أو لا يريد !

عندما أعلن حوسولني حرب الديقار ضد الأغنام !

ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان . وإنما يعيش الإنسان بالخبز وأشياء أخرى . وإذا لم يجد الإنسان الخبز ، فلا بد أن يتحدث عن شيء آخر بديل . . . ومملكة فرنسا عندما ثار الشعب عليها يطلب الخبز . قالت الملكة : ولماذا الثورة إذا لم يجدوا الخبز : فليأكلوا البسكويت . وكانت هذه العبارة امطاراً من البنزين على نار الغضب . فما الملكة ظننت أن الشعب يجد الخبز والبسكويت معا . فإذا لم يجد هذا فيمكنه أن يتجه الى ذلك . .

ولم تفهم الملكة أن الشعب لا يجد الاثنين . ومهمة العلم الحديث الآن هي أن يجد الناس الخبز والبديل عن الخبز حتى لا يثور . أو حتى لا يموت .

والناس لا يموتون عادة بسبب الجوع فقط . وإنما بسبب المرض . أو بسبب الحوادث أو بالحروب . ولذلك من الضروري أن يكون عند الناس محددا حتى تكتفيهم موارد الطبيعة . . فماذا لم تكف فعلى

الانسان أن يهز رأسه ليجد حلا لهذه المشاكل الحيوية . وقد وجد الانسان الحل عن طريق الكيمياء . نهى نعووضه عن الذى فقدته . وهى التى تملا فراغ الجيب والمعدة ..

فالانسان مثلا عندما كان يجد السكريات فى عسل النحل اتجه الى تربية النحل ، وعندما عجز عن اطعامه اتجه الى استيراد السكر من القصب ، ثم راح يعتصر السكر من البنجر . وكان ذلك أيام نابليون وفى حروبه .

وظل النحل حشرة هامة جدا فى لىالى أوروبا . فالنحل مصدر الشمع ، والشمع هو رونق الكنائس . وظلت الكنائس هى المستهلك الاول للشمع العسل . وعندما انتشر الغاز ومن بعده الكهرباء لم يعد أحد فى حاجة الى شمع النحل .. وبعد ذلك ظهر السيكرين ليعلم انه ليس من الضروري أن يميت الانسان نفسه من أجل السكر فى القصب وفى البنجر وفى العسل .. وعندما أعلن أن السيكرين خطر على الصحة ، وأنه يؤدى الى الاصابة بالسرطان عاد الناس الى عسل النحل وعندما أعلن أن النحل أيضا يموت من المبيدات الحشرية الموجودة فى الحدائق . وأن السموم موجودة فى الزهور التى يمتصها النحل ، وأن نسبة من السم تنقل الى العسل نفسه ، عاد الانسان لبحث عن السكريات فى الفاكهة . ولكن سموم المبيدات الحشرية قد انتقلت أيضا الى الفاكهة . وعندما حار الانسان ما الذى يفعله قال له الأطباء أن الجسم الانسانى قد تشبع بالسموم فلا خوف عليه . هنا عاد الانسان الى البحث عن السكريات من كل مصدر .

ولم يعد السمن أو الزبدة كافية لاطعام الانسان . وقد ظهرت هذه المشكلة أيام حملات الجيوش الفرنسية فى المناطق الاستوائية . فالجنود يحتاجون الى الزبدة . ولكن الزبدة تنوب فى الجو الحار .

وقد تلقى نابليون الثالث خطابا من أحد قواده يقول له : مطلوب معجزة . أن جنودنا لا يجدون الزبدة فالحر جهنم . والزبدة تتبخر . وأعلن نابليون عن مكافأة مالية كبيرة لمن يجد حلا . وفي ذلك الوقت تصالح أن أحد العلماء الفرنسيين كان مشغولا بالبحث عن حل .

هذا الرجل اسمه ميج مورييس . هذا الرجل اهتدى الى السمن الصناعى . وصنع هذا السمن من مواد نباتية وحيوانية معا . فاستخدم الدهون الحيوانية وبعض الزيوت النباتية . وكان ذلك ميلاد السمن النباتى أو الصناعى . وأنتجت فرنسا هذا السمن على نطاق أوسع . ثم جاءت هولندا فاستخدمت بعض الزيوت النباتية وزيت الحوت وانتجته بكميات أكبر . واشتهرت هولندا بذلك لدرجة أن كثيرا من الدول تطلق على كل أنواع السمن الصناعى اسم : الهولندى ..

واقبل على هذا السمن الصناعى فقراء الناس طبعا . أما الأغنياء فعندهم الموارد الطبيعية الغالية الثمن ..

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية حاول الألمان استخراج الزبدة من الفحم . ونجحت التجربة . ولكن لم يتحمس لها أحد . وانما جعلوها نكتة . ووقفت تجارب السمن من الفحم عند هذا الحد ، ولم يدفعها أحد الى الامام الا بعد ذلك بعشرات السنين فى أمريكا .

وعاد الألمان الى استخراج السكر من الخشب . واستخراج السيكرارين من القطران فى سنة ١٨٧٩ . وكان السيكرارين هذا أشد حلوة من السكر ٥٠٠ مرة وبأسعار أرخص من استخراجه من الخشب .

ولم يفلح العلم الحديث فى استخراج بروتينات الحيوانات فى المعامل . ولذلك عاشت الحيوانات لياكلها الانسان . ولكن هذه الحيوانات دفعت ثمن هذه الحياة غاليا . فلكى يكون طعمها لذيذا يجب أن نذبحها فى سن صغيرة !

واذا كانت بعض الأطعمة لا تكفى الانسان ، فهناك الصوف الطبيعى والحرير الطبيعى والقطن والكتان ، كلها لم تعد كافية لاحتياجات الانسان صحيح أن الأقمشة هى ليست الانواعا آخر من ورقة التوت التى تغطت بها حواء . . والأزياء ليست التنوعا فى شكل ورقة التوت . وقد جاء وقت على الانسان كان كل شىء امامه متوافرا فى الطبيعة . أما فى العصور الحديثة ، وبعد تزايد السكان لم يعد الصوف يكفى للملابس ولا الحرير ولا القطن ولا الكتان . فلما انسان يأكل الأغنام . ودودة القز تعمل حتى الموت ، ولكن الانسان يطلب المزيد . ولذلك كان لابد من أن يجد حلا . والذين حاولوا كثيرون جدا . وربما كان الكيميائى الانجليزى روبرت هوك سنة ١٦٦٥ هو أول الذين حاولوا أن يجدوا بديلا عن الحرير الطبيعى فقد اهتموا الى محلول . وصب هذا المحلول فى اناء به ثقوب رفيعة . ونزل السائل على شكل خيوط حريرية .

واهتموا كيميائى فرنسى الى شىء من ذلك ، وعرض اختراعه فى باريس سنة ١٨٨٩ هذا الرجل شاردونيه . وحاول الألمان شراء الاختراع . فاعتذر الرجل بأنه باهظ التكاليف . وأنه سوف يوالى البحث عن سواى أرخص . وقامت ثورة بين علماء الكيمياء وبين الذين يربون دود القز والذين ينسجون الحرير . وكانت التهمة: أن هؤلاء العلماء يريدون خراب العالم والقضاء على مئات الألوف من الأتوال اليدوية لغزل الحرير الطبيعى !

وعلى الرغم من أن اليابان هي أكبر مصدر للحبر الطبيعى ، فإنها حاولت أيضا أن تجد بديلا عنه حتى لا تتفوق عليها الدول الصناعية أو التجارية الأخرى . أن اليابان أرادت أن تغزو البلاد الأخرى قبل أن تتعرض هي لغزو يخرب بيوتها ويبيد ديدان القز عندها . وفى نفس الوقت كانت مدينة ليون الفرنسية مركز تجمع خيوط الحرير الطبيعى فى أوروبا كلها وحاول العلماء فيها أن يجدوا علاجا للموقف . فاقبل بعضهم على دراسة الحرير الصناعى واستحضاره فى المعامل .

أما الأمريكان فقد كانوا أسرع الجميع فى الاهتمام الى خيوط جديدة اختاروا لها اسما يونانى الشكل : نايلون . وبلغ الأمريكان فى اختراع أنواع من الخيوط ناعمة طويلة . يمكن أن تصل الى الوف الكيلو مترات دون أن تنقطع .

وقبل الحرب العالمية الأولى بالضبط اهتمت ألمانيا واليابان فى وقت واحد الى صناعة الصوف — أى الى الصوف الصناعى . ودخلت اليابان فى حرب مع استراليا أكبر مصدر للصوف الطبيعى فى العالم . وهاجمت دول كثيرة الصوف الصناعى فى ألمانيا واليابان ، باعتباره « جنونا » فازيا أو فاشيا . وأن هذا الصوف كساء الفقراء . وأن هذا الصوف الصناعى اختراع حقير يقصد افساد جمال الطبيعة — أو جمال صوف الأغنام فى استراليا ، حتى تبقى استراليا هي سيدة هذه الصناعة ، وتظل بريطانيا هي صاحبة هذه التجارة . أما العالم كله فيجب أن يرضى بأن يكون زبونا ذليلا !

اذن لقد دخلت المعامل فى حرب مع الأغنام ودود القز :

بل ان الأبقار هي التي دخلت فى حرب مع الأغنام . فقد اهتمتى

العلماء الى ان لبن الأبقار هو أحسن مصدر للصوف الصناعى .

وفى نوفمبر سنة ١٩٣٥ أعلن موسولينى على الشعب الايطالى وعلى العالم : أن ايطاليا سوف تنتج الصوف من لبن الأبقار . وكان هذا الاعلان رداً على تهديد أوربا لموسولينى بأنها سوف تضرب عليه حصاراً شديداً بسبب حربه مع الحيشة . وأقبل علماء الكيمياء على اللبن الأبقار يحولونها الى خيوط صوفية مستخدمين من اللبن مادة الكازين . ومن العجيب جداً أن الفراعنة استخدموا اللبن فى تثبيت الألوان . هذه حقيقة مؤكدة . وانهم استخدموا هذه المواد بنفس الطريقة التى اهتمت اليها علماء الكيمياء ! واستخرج الايطاليون مادة لاينثال . ومن هذه المادة خرجت البدل والبنطلونات الايطالية ، ولا ترال !

وأصبح لبن الأبقار من أهم المواد التى يستعين بها العلم الحديث فى صناعة البدائل أو العجائن ..

كما أن العلم الحديث قد استغنى أيضاً عن المخلفات الحيوانية - الاسمدة العضوية . واهتدى العلم الحديث الى الاسمدة الكيماوية فى تخصيب التربة . وفى تغذية النباتات التى تعيش عليها الحيوانات التى يعيش عليها الانسان .

وهناك بعض المنتجات الحيوانية لم يعرف الانسان لها بديلاً بعد . أو عرف لها البديل ، ولكن ليس بالدرجة المطلوبة . ففراء الثعالب مثلاً لا يزال مطلوباً . وكانت الصين حتى أوائل القرن التاسع عشر أكبر مركز لتجارة الفراء يكل أنواعها حتى أن أمريكا أنشأت خطاً

ملاحيا بينها وبين الصين . ولكن رجلا أمريكا اسمه : استور اقام
مركزا في شمال أمريكا . بل انه انشأ مدينة اسمها استوريا . كلمة
هامة تجدها على ماركات السجائر وغيرها وعلى الفنادق الكبرى .
فهذا الرجل استور قد حول بذكاء تجارة الفراء الى شمال أمريكا
ودخل بها في حريب مع روسيا وجاء الانجليز واستولوا على هذه
المدينة . ثم استردتها أمريكا . وبقي الانجليز سادة هذه التجارة .

حتى وقع حادث عجيب سنة ١٩١٩ عندما ذهب بعض التجار
الكنديين يعرضون نوعا غريبا من فراء الثعلب الفضي . وكان هذا
النوع من الفراء زلزالا في أسواق الفراء . فقد استطاع هؤلاء
الكنديون أن يختاروا عينات من الثعالب وأن يزاوجوا بين بعضها
البعض حتى انتهى التزاوج والتجهين الى نوع فضي نادر . ولكن
بسرعة عرف العالم سر هذا الثعلب . واتبل التجار على تربية الثعالب
في غابات واسعة . فقد لاحظ التجار أن الثعالب التي يحبسونها يكون
مراؤها خشنا . أما اذا عاشت الثعالب في ظروف طبيعية او كالطبيعية
فان فراءها يكون اكثر نعومة وليونة . ولاحظوا أيضا أن الثعلب يميل
الى أن تكون له زوجة واحدة مما يؤدي الى الزيادة البطيئة في
النسل . فحاولوا أن يعددوا زوجات الذكور . ولكنها رفضت أول
الأمر . فامسحوها فاصبحت للثعالب الذكور أكثر من زوجة . وانتهوا
الى أن ثلاث زوجات هو الحد الأقصى للثعلب الواحد . . ولكن
اهتدى علماء الكيمياء باستخدام بعض المقويات الى أن الثعلب من
الممكن أن يكون له حريم من اثاث دون أن يؤثر ذلك على فراء صغاره .

وفي ذلك الوقت — أي سنة ١٩٢٤ كان ثمن فراء الثعلب الفضي
سبعة آلاف جنيه !

وجاءت الحرب الثانية فاقفلت هذا الجنون . وفي سنة ١٩٣٨

دلت الإحصائيات على أن في كندا وحدها أكثر من عشرة آلاف حظيرة
للثعالب الحظيرة الواحدة مساحتها ألوف الألفنة من الغابات ا

وظهر منافس خطير للثعلب : حيوان الشنشيللا فى بىرو . .

ثم ظهرت اغنام كاركول فى ايران .

وكان التجار يلجأون الى اجهاض الام قبل أن تلد بقليل ثم يسلخون
جلد الوليد . حرصا على أن تظل نمرة الحيوان المسكين أكثر
نعموة . وفى بعض الأحيان يسلخون الولد بعد ولادته العادية
بساعات . .

ولابد أن أتناق المرأة هى المسئولة عن حياة بعض الطيور وموت
أكثر الحيوانات . مثلا : لولا أن سيدة فرنسية جاءت من الجزائر
تزرور مارى أنطوانت ما عاشت مئات الألوف من النعام . فقد جاءت
هذه السيدة تهدى الى الملكة ريش نعام لتضعه على رأسها
أو لتكون مروحتها . وأصبح ريش النعام موضة . وأقيمت مزارع
للنعام فى الجزائر . وحوت هذه المزارع عشرات الألوف من هذا
الطائر الذى ينزعون ريشه مرتين فى السنة . وكان لابد من العناية
به ويصعبه نظرا لرواج تجارة ريش النعام . ولاحظ تجار الريش
أن ذكر النعام اذا كفت له أنثى كثيرة ، وضعت الأنثى بيضا
قليل . نهى إذن ليست مشكلة الأنثى ، وانما هى مشكلة قدرة
الذكر على أن يكون زوجا لعدد كبير من الأنثى ، وحددوا للذكر
ثلاث أنثى فقط تضع مائة بيضة فى السنة .

وبعد ذلك جاءت التماسيح . فهذا الحيوان لابد من قتله ليكون

جلده حذاء أو شنطة أو حزاما لسيدة أنيقة . ولابد أن يكون ذلك في سنه الصغيرة . ويعد سلخه لابد من دباقة الجلد وتلوينه أو الاحتفاظ بلونه الطبيعي ..

وفي كاليفورنيا مساحات هائلة مغلقة على التماسيح .

وجاءت الثعابين لتتوم بنفس دور التماسيح . فجلدها حزام أو جزمة أو شنطة . والثعابين كثيرة الأنواع والأحجام والألوان . ولكن الثعابين لها مهمة حيوية في البلاد الحارة . ففي الهند مثلا تجد أن الثعابين تأكل الفئران . والفئران اذا تكاثرت أكلت محاصيل القمح والذرة . ولذلك يجب الإبقاء على الثعابين لاتفاد الغلال . وفي الهند دعوات صارخة للإبقاء على الثعابين من أجل الجياع من البشر ! ولكن المرأة حريصة على أناقتها ولو مات أهل الهند جوعا !

ومن أجل أناقة المرأة أيضا نزل الرجل الى أعماق البحر بحثا عن اللؤلؤ في قلب البحار . وهذا اللؤلؤ موجود في الخليج العربى — أو كان موجودا — وفي شواطئ اليابان والصين . وقد ارتفع اللؤلؤ على أعناق الجميلات . ويقال أن اللؤلؤة تحزن على صاحبها ويتغير لونها . ويقال أن لونها يتغير اذا بعدت عن موطنها . ويقال: ان الملائكة اذا بكوا نزلت جموعهم الى البحر فأصبحت لوليات ! وكثيرا ما قيل أن اللؤلؤ اذا ذاب في النبيذ في ليالى العشق أصبح سحرا . وسعادة للرجل والمرأة — يقال !

أما طريقة استخراج اللؤلؤ فهي أن ينزل الغواص أو الغواصة — أكثرهم من النساء — الى الماء ... ويصيدون حيوان اللؤلؤ

ويفتحونه ويستخرجون من بطنه حبات اللؤلؤ .. وحيوان اللؤلؤ يستغرق وقتا طويلا يصل الى السنة والسنتين في تكوين حبة واحدة .

وقد اهتمدى رجل صينى منذ سبعة ترون الى انه في الامكان مساعدة هذا الحيوان على انتاج اللؤلؤ بصورة أسرع . فكان يفتح المحار ويضع فيه حبا صغيرا .. ذرة رمل أو ذرة من المحارة أو الحصى .. وفي بعض الأحيان اهتمدى الى شيء غريب فكان يضع حصاة صغيرة ويرسم على هذه الحصاة بوذا . ويضعها بعد ذلك في جسم حيوان اللؤلؤ .. ثم يجيء هذا الفنان العظيم ويغطي هذه الصورة لبوذا باللؤلؤ .. ويكون لحبة اللؤلؤ بعد ذلك سحرها المبهق في نفوس المؤمنين .. .

وجاء استاذ يابانى سنة ١٨٨٩ وقام بتطوير هذه الحيلة . هذا الاستاذ اسبه متسكورى . وادخل في جسم حيوان اللؤلؤ حبات صغيرة من الصدف . ويجيء الحيوان ويغطيها بهذه المسادة الفضية الشفافة .

ولكن رجلا واحدا استطاع أن يجعل « اللؤلؤ الصناعى » أشهر تجارة في العالم واستطاع أن يقنع العالم كله أن اللؤلؤ الصناعى أجمل وأروع . وأنه يصعب على أى انسان أن يفرق بين الاثنين . وفى ذلك الوقت كان التمييز صعبا . ولكن من السهل معرفة ذلك الآن بمجرد وضع اللؤلؤ في الضوء فيكون اللؤلؤ الطبيعى أكثر شفافية من اللؤلؤ المزروع في جسم حيوان اللؤلؤ . هذا الرجل

ميكوموتو الذى اشترك فى المعرض الدولى للؤلؤ بأكثر من مائة ألف حبة .. وصنع ناقوس الحرية الأمريكى من اللؤلؤ . وقدمه فى معرض دولى ..

وقد رأيت جزيرة ميكوموتو هذه فى اليابان . ورأيت ملايين من هبات اللؤلؤ . واعترب باننى لم امر بأمية هذا اللؤلؤ أو ضرورته لأهد . وقد كنت لعب بهبات اللؤلؤ لعبة الجوز والفرد . فنجد بالعات اللؤلؤ يجلسن على الأرض . وقد وضعت كل واحدة « قلة » من اللؤلؤ .. واجلس أمامها وألعب : جوز ولا فرد .. ونفتح محار اللؤلؤ .. فنجد أحيانا حبة واحدة وأحيانا حبتين أو ثلاثا .. وأنكر أننى كسبت فى هذه اللعبة الوف الحبات . ولا أنكر الان بالضبط أين نسيت هذه الحبات عندما سافرت من اليابان الى جزر هاواى الى أمريكا الى أوربا بعد ذلك .

فقط عندما رجعت الى مصر عرفت أنني أضعت ثروة طائلة — ولم أكن أدري ذلك — فقد كنت مشغولا فقط بالفرجة والكتابة والسفر ، وهى جميعا أروع من كل ما فى العالم من لؤلؤ — واعتقد أن أكثر نساء العالم لا يرين هذه الفلسفة !



شجرة واحدة تكفي ، ههنا وانت تعرف !

بعد هذه الرحلة الطويلة في حياة الحيوان ،
هل له مستقبل ؟ هل ستتحول الحيوانات بعضها
الى بعض ، كان يكون القرد انسانا ؟ هل تتحول
بعض الزواحف مرة أخرى وتكون طيورا ؟ هل
تزداد الاصابع في اقدام الحيوانات ؟ هل الانسان
نفسه سيكون كائنا آخر ؟ ان عشرات الالوف من
السنين لم تغير من الحمار . فهو حمار منذ كان
حمارا . والخنزير كذلك ..

ان نظريات العلماء من مدرسة دارون قد لاحظوا التشابه الكبير
بين القردة والانسان . وقال بعضهم : أصله قرد — أى الانسان
أصله قرد وعلى ذلك فمن الممكن ان يتطور القرد فيصبح انسانا
في المستقبل . صحيح ان التاريخ لم يحفظ لنا حتى الآن تلك
القردة التى تحولت الى انسان . ثم انه ليس بين القردة فصيلة
واحدة تعرف النطق أو تعرف كيف تغير من أسلوبها في الحياة .
وكل ما يقوله العلماء هو أن مرحلة من مراحل تحول القردة الى
بشر ، قد فقدناها .. أو قد ضاعت منا . ولكن ليست هذه اجابة

.. انما هى اجابة تغرى بالتساؤل : ولكن لماذا هذه المرحلة بالذات ؟ من الذى حرص على اخفائها لكى يدوخنا بعد ذلك ؟

اذن يمكن أن يقال : بأن هذه الحيوانات لم تتحول الى حيوانات أخرى فى مئات الألوف من السنين فلن يطرا عليها أى تغير آخر .. لأن الماضى هو صورة المستقبل ، أو هو الحروف الأولى من الماضى والمستقبل !

علماء الجيولوجيا يقولون : اننا مقبلون على عصر جليدى آخر .. وأن المناطق الشمالية والجنوبية من الأرض سوف تتغطى بالجليد .. وسوف يؤدى ذلك الى انقراض حيوانات أخرى كثيرة . تماما كما انقرض حيوان الماموث عندما هاجر الى الشمال فمات من البرد .. وفى نفس الوقت استطاعت حيوانات أصغر حجما وأضعف قوة من التكيف مع البيئة فعاثت . فالقوى الذى لا يجارى البيئة يموت ، والضعيف الذى يجارىها يتقياها ويعيش . انها قاعدة فى الحيوان وفى الانسان أيضا !

* * *

ثم هذه الزواحف الضعيفة هى بقايا مملكة هائلة كانت تعيش على الأرض ، هل هى أيضا سوف تنقرض .. علماء الجيولوجيا يقولون : هذه نهايتها لا محالة . ولكن لماذا ؟

الجواب انه يجب أن ننظر الى : الظروف الحيوية .. أو الى البيئة الحيوانية والنباتية والانسانية والجوية أى الحياة (الاجتماعية) أو (الجماعية) للحيوانات معا .. ولسنا فى حاجة الى أن نسافر الى غابات الامازون الهائلة أو الغابات الهندية أو الواحات الامريكية والاسيوية كما كان يفعل دارون وبقية العلماء فى القرن التاسع عشر .. وانما شجرة واحدة تكفيك . هزها .

وانت ترى الفراشات والحشرات المتسلقة : هذه الشجرة مثل
فنان في يد قارئة الطالع .. مثل كوتشينة يلعبها قارئ الحظ ..
ولكن هذه الشجرة تستطيع أن تعرف كيف تتعايش هذه الكائنات
معا .. أو كيف يتربص بعضها ببعض أو يعيش بعضها على بعض
.. نظرة واحدة الى شجرة تدلك على مستقبل حياة هذه الكائنات،
معا ومستقبلها مع الانسان — وهو الأهم . فلا يزال الانسان هو
الذى يحدد لهذه الكائنات أعمارها ومستقبلها . مثلاً في الهند :
الثعابين تعيش على الفئران ، والفئران تعيش على القمح
وعلى القمح يعيش الانسان .. اذا قتلنا الثعابين زادت
الفئران وأكلت القمح وأرهقت لانسان .. واذا قتلنا الثعابين
والفئران وانقرضت الحودة بالقمح جاع الانسان . واذا قتل الانسان
الحودة أيضاً توفّر له القمح .. ولكن في نفس الوقت اذا زاد عدد
الناس ولم يجدوا القمح مات الانسان .. انها سلسلة طويلة من
الكائنات يعيش بعضها على بعض . والمستقبل في يد الانسان .

مثلاً : البعوضة تنقل الحمى الصفراء . يقضى الانسان على هذه
البعوضة باستخدام المبيدات وباستخدام وسائل العلاج عائش
الانسان وماتت هذه البعوضة أو انقرضت !

واذا نظرنا الى الانسان القادر على كل الحيوانات لم نجد هذا
الانسان يفوق الكثير من الحيوانات من الناحية الفسيولوجية — أى
من ناحية وظائف أعضاء جسمه . فهناك شبه كبير بين الانسان
والقرود والحصان والضفدعة والأرنب . أو بين الانسان والحصان
في نمو الجنين وفي الحمل والولادة وفترة الحضانة الطويلة ..
فالانسان ينمو ببطء .. ورغم هذا التشابه فان الانسان هو الأقوى .

وأهم من ذلك أن الانسان لا يزال أكثر الحيوانات الكبيرة عدداً .

فقد أعلن المعهد الدولي للزراعة في روما عن عدد الحيوانات الكبرى على الأرض بعد الحرب العالمية الثانية فكانت هكذا : في العالم ٧٠٠ مليون بقرة و ٦٠٠ مليون من الأغنام . و ٣٠٠ مليون خنزير و ١٠٠ مليون حصان . ومثل هذا العدد من البشر أو أكثر . فعدد سكان العالم حوالى ألفى مليون نسمة .

ومن المعروف عندنا أن خسائر الإنسان في الحرب العالمية الثانية كانت هائلة . لاشك في ذلك . وأن هذه الخسائر تساوى الدموع التى سالت على خدودنا حزنا على ما أصاب الإنسان على يد الإنسان . ولكن خسائر الحيوانات في هذه الحرب كانت أضعاف خسائر الإنسان .

في أمريكا ما بين ١٩٣٨ و ١٩٤٨ زاد عدد سكان العالم ١٠ ٪ . و نقص عدد الحيوانات . و زاد عدد الأبقار في أمريكا بسبب العناية الفائقة بمزارع وحظائر تربيتها . بينما نقص عدد الخنازير ١٨ مليوناً وعدد الأغنام ٢٦ مليوناً وعدد الخيول ١٨ مليوناً !

وفي أثناء الحرب الأهلية في الصين نقص عدد الطيور بمقدار ٢٠٠ مليون ونقص عدد الطيور في أمريكا أثناء الحرب العالمية الثانية بمئات الملايين حتى أصبح عددها حوالى ٧٠ مليوناً . وسبب ذلك أنه لم تكن هناك أسواق للبيض .

والإنسان حريص على هذه الحيوانات والطيور لأنها مصدر غذائه . ولو وجد الإنسان مورداً آخر للبروتين ، ما تردد لحظة واحدة في إبادة هذه الطيور والحيوانات معا . نكأن بقاء هذه الحيوانات سببه أن علوم الكيمياء لم تتطور بدرجة كافية . . وعلماء الكيمياء في العالم هم الذين سيقرون أن كانت هذه الحيوانات

ستمعيش أو تنقرض . ولن يمضى وقت طويل حتى تتحول هذه
الحيوانات الكثيرة الى حيوانات نادرة أو حيوانات للزينة !

ومن المؤكد أن الانسان قد قتل الملايين من هذه الحيوانات والطيور
عندما اخترع السهام والنبال . . وأضعاف هذه الكائنات قد قضى
عليها الانسان عندما اكتشف البارود . . وفي أمريكا ، وبسبب الزحف
الى الغرب ، أحرق المهاجرون الجدد الغابات والمراعى فهانت ملايين
الحيوانات وانعدمت تماما . . فالجاموس الوحشى أثناء الحرب
الأهلية الأمريكية كان عدده يبلغ ستين مليونا أى ضعف عدد سكان
أمريكا فى ذلك الوقت . فأتين هذه الجواميس الآن ؟ انها فى حدائق
الحيوانات فقط ؟ . . وهناك نداءات كثيرة من جمعيات انسانية
تطلب الرحمة بهذا الحيوان . ولكن هذه الجمعيات نفسها لا يتوقف
أعضاؤها عن أكل اللحوم . . اذن هذه الجمعيات لا تطالب بالابتناء
على الجواميس الا خوفا عليها من التلاشى . . ولو كانت هذه
الجواميس بالملايين ما طالب أحد بالحرص عليها !

وهناك حيوانات أخرى سوف تبقى شيئا قليلا . ولن يكون
عددها بمئات الألوف أو الملايين . لأن الذى يحدد وجودها هو
احتياج الانسان الى الفرجة عليها . . مثل كل حيوانات حديقة
الحيوان : الأسود والنمور والضباع والذئاب . وهذا هو أحد أسباب
اقبال الناس على حدائق الحيوانات . فالناس يذهبون لرؤية هذه
الحيوانات فى الأقفاص لأنهم لن يروها فى أى مكان آخر . . ولذلك
لا توجد حديقة حيوانات فى أواسط أفريقيا قد حوت أقفاصا للقرود
. . لأن الناس يجدون القرود على الأشجار وفى الشوارع !

وبعض الطيور قد طال عمرها لنفس السبب . أو لأسباب أخرى
جمالية . فالببغاء وطيور الكنارى قد أبقي عليها الانسان لأنها

جميلة الريش رشيقة الحركة أو لأن لها أصواتا جميلة . وكذلك عاش الطاووس . . ولا يذكر أحد في كل العصور أن أحدا أكل الطاووس لأنه نادر الوجود وهو لذلك غالى الثمن . فقط في إيران وأثناء مهرجان نورش والاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على انشائه للدولة الفارسية . في هذا المهرجان قدمت إيران للملوك والرؤساء لحم الطاووس . . والطاووس اشترته إيران وبعثته الى مطعم ماكسيم الشهير في باريس وحملته الطائرات ساخنا من باريس الى مدينة برسبوليس في مخيمات الملوك والرؤساء — ولوقدوموا الى الطاووس في سندوتش ما أكلته . لكن في هذا الجو الخيالى ومع الألوان والموسيقى والأكواب من ذهب ، وعلى مسمع ومرأى من كل رؤوس العالم ، فلا بد أن يكون طعمه لذيذا وأن يكون له مثل السحر في الجسم والنفس . . ومن المؤكد أن هذا هو آخر عهد الانسان بالطاووس محشوا بالفستق والصنوبر وأبى مروة !



أما بقية الطيور النافعة للانسان أى التى تأكل الديدان الضارة والحشرات في الحقول ، فانها أخذت في الانقراض . سبب ذلك : الهواء الفاسد في المدن والمبيدات الحشرية في الحدائق والحقول . ان هذه الطيور رغم حرص الانسان عليها ، لأسباب مصلحة أو انسانية أو جمالية ، فانها سوف تنقرض . لماذا ؟ لأن الانسان إما أن يعيش أو تعيش هذه الطيور . طبعاً لابد أن يعيش الانسان — كما عاش دائماً — على جثث غيره من الطيور والحيوانات والانسان أيضاً !

فقط كل الكائنات التى تعيش في أعماق البحار قد عاشت لأنها بعيدة عن تناول الانسان . ولكن هذه الكائنات لن تظل وقتاً طويلاً بعيدة عن الانسان . فإذا اقترب منها ، كان الموت قريباً أيضاً . وسوف يجيء دورها طبعاً .

إذا كان الإنسان حريصاً على الحيوان لأنه مصدر غذائه وكسائه ووسيلته في الانتقال ، فإن هناك حيوانات رغم ذلك قد ماتت . الخيول مثلاً : كانت وسيلة الانتقال للإنسان . وكان الحصان إحدى أدوات الحرب . وقد حاول الإنسان في الحرب العالمية الأولى أن يدفع بالحصان لخوض غمار معارك الفرسان وكانت معارك انتحارية . وفي الحرب العالمية الثانية ابتعدوا به تماماً . . وفي الحروب القادمة ، لن يكون للحصان وجود . والحصان الآن لم يعد أداة النقل والمواصلات في العالم . ولذلك فلن يعيش طويلاً إلا في السيرك والاف في اصطبلات سباق الخيول . أى أن الحصان سوف يبقى لأسباب رياضية وجمالية . .

وفي القرن الماضي أنشأت كل من بريطانيا وأمريكا اصطبلات للتقاعد . فالحصان الذي تقدمت به السن ، وجاء الإرهاق فخلع أوصله ، لابد أن يستريح في حظيرة حتى الموت مثل كل الناس ! ولكن لن يتسع وقت الإنسان لمثل هذه الرقة . فسوف تموت الخيول في الحقول وفي السيرك وبعد ذلك يكون لها مقصص في حدائق الحيوانات إلى جوار الحيوانات النادرة !

حتى الأغنام . . سوف يجيء دورها فإذا استطاع الإنسان أن يحصل على صوف جيد دون حاجة إلى الأغنام فهذه نهايتها ، لأن الإنسان قد اخترع الخيوط الصناعية . واستطاع أن يضع خيوط الصوف الصناعية في المواد الكيماوية لتعيش أطول وأتعم وأكثر ليونة . بل إن بعض الخيوط الصوفية الطبيعية عندما وضعت في المواد الكيماوية نمت . ومعنى ذلك أنه يمكن تنمية الخيوط الحيوانية دون حاجة إلى الحيوان نفسه . ولكن الخيوط الصناعية ما تزال أقل جودة من الخيوط الطبيعية . ولكن مع تقدم الكيمياء سيصل الإنسان إلى خيوط أقوى وأجود وأكثر نعومة ولعناً . فإذا وصل

الى ذلك ، انتهت مهمة الأغنام التى عاشت للانسان وعاشته وماتت
من أجله عشرات الألوف من السنين . واتخذت مكانها المتواضع
فى متاحف التاريخ الطبيعى أو أرسلت من ينوب عنها فى حدائق
الحيوان الى جانب الزرافة والغزالة والقرد !

ولا تزال هناك مشكلة أمام الانسان هى التى ستجعل الأغنام
والأبقار والطيور أطول عمرا : وهى أن الانسان لم يجد حتى الان
مصدرا بديلا للبروتين الذى يجده فى اللحوم . ولذلك سوف تبقى
هذه الكائنات مصدرا وحيدا للحم . وهناك نظرية تقول :

ان الانسان أصبح أقل ميلا لتناول اللحوم من أى وقت مضى . .
صحيح أن الانسان كلما أصبح مقتدرا اشترى لحما أكثر . ولكن
هذه النظرية معناها : ان الجياع أقل تناولا للحم . ولما كان عدد
الجياع أكثر من عدد القادرين ويزدادون بمرور الوقت فان عدد
الذين يأكلون اللحوم سوف يكون أقل . أو لن يزيد عددهم مما يجعل
عددا أكبر من الأغنام والأبقار والطيور ينعم بالحياة . ولا بد ان يدخل
فى حسابنا أيضا أكثر من ألف مليون نسمة لا يأكلون اللحوم فى
الصين والهند .

وإذا نظرنا الى ما أكله أهل باريس مثلا فى ١٨٨٩ نجد أن الفرد
كان يستهلك ١٥٤ رطلا فى السنة . وبعد ثلاثين سنة نجد أن الفرد
أصبح يستهلك ١١٠ أرطال . . بينما يتضاعف ما يستهلكه الفرد
من النبيذ فى نفس المدة !

وفى أمريكا كان الفرد يستهلك فى سنة ١٩٠٠ ما يعادل ١٥٠ رطلا
فى السنة . ولكن فى سنة ١٩٣٨ هبط ما يستهلكه الى ١٢٥ رطلا .
وفى الحروب يزداد استهلاك الفرد . . وبعد الحروب يهبط
الاستهلاك .

فهذا الاعراض من اكل اللحوم هو الذى يكسب الحياة للملايين
الابقار والاغنام والطيور .

ولكن تقدم الكيمياء ونشوب الحروب هو الذى سيهلك هذه
الكائنات . فكل هذه الكائنات لها أعمار مربوطة فى أصابع الانسان ،
ان شاء أبقاها وان شاء أهلكها .

ولكن يجب الا نتصور أن الانسان هو أقوى الكائنات : الجراثيم
لأقوى منه . . ثم أن الانسان عندما لم يطق أن يتحمل ضغط الجو فى
البالون الذى أطلق فى أوروبا استطاعت بطة وديك أن يرتفعا دون
أن يصابا بأذى من الهواء والضغط . . وعندما أطلق الانسان قنبلة
الذرية على جزر بيكينى : عاشت الخنايس والخنائير والماعز .
واخترقتها الأشعة ولم تمت . . ثم عاد التراب الذرى فغطى هذه
الحيوانات ولم تمت فى حينها ولا بعد ذلك بسنوات . . ولم يكن فى
قدرة صانع القنبلة الذرية أن يواجه الشماع والتراب .

من يدري ربما انقرض الانسان وجاءت كائنات أخرى من كواكب
أخرى تتفرج على هذه الحضيرة الكبرى التى اسمها : الكرة الأرضية
.. تماها كما تذهب تتفرج الآن على ما أحدثه بركان فيزوف بالقرب
من نابلى عندما تجمد الشعب كله وتحولوا الى تماثيل حجرية .

من يدري ربما فعلت كائنات أخرى أكثر عقلا ووضعتنا فى حدائق
للحيوانات الأقل وراحت تتفرج علينا كما تتفرج الآن فى متاحف
التاريخ الطبيعى على الجماجم والأعمدة القفصية للانسان الأول —
ربما !

قود في كل مكان !

وكننت افضل ان تكون الصفحات التالية في
اول هذا الكتاب .. فهي تصف الحيوان وسلوكه
دون تحفظ .. اى دون قيود عليه ..

والحيوان حر .. هو بالضبط ما يتمنى ان
يفعله الانسان . ولسكن الحضارة تجيء وتقيّد
الانسان وتضع القرامل والضوابط والقواعد
والحلال والحرام واللائق وغير اللائق على كل
مشاعره الحيوانية والانسانية ..

ولكن بعد ان عرفنا جوانب من حياة الانسان يمكننا ان نعرفها
أعمق وأوضح اذا عدنا عشرات الآلاف من السنين .. او اذا
ذهبت الى حديقة الحيوان .. ففي الحديقة نجد الانسان متخفيا
وراء جلد الحيوان ..

ولكن الحيوان اكثر صراحة ..

لان الحيوانات لم تتعلم الكذب بعد ..

ولذلك فهذه الحيوانات هى دليلنا الذى لا يخطئ الى فهم
الانسان مرة أخرى ..

فان كان قد فاءك أن تفهم الانسان من مئات الصفحات
السابقة ، فهذه هى فرصتك فى أن تستدرك ما فات وأن تفهم غيرك
ونفسك ..

ماذا شعرت بالخلج فلان الحيوانات لا تخفى ما تشعر به هى
.. وما تشعر به أنت !

* * *

واذا ذهبت الى حديقة الحيوانات . وسمعت من يصرخ وراءك
ويقول : يا حيوان ملا داعى لأن تلتفت وراءك لترى ماذا سيحدث ..
فكل ما فى الحديقة حيوانات : التى فى الاتصاص .. والذين
خارجها .

واذا وقفت أمام قفص القرد ورأيت القردة تفلئ ابنتها
الصغيرة ملا تضحك .. فلنا أجداد يفعلون ذلك فى الريف . أما فى
المدينة كالكواير يقوم بهذا العمل أيضا مستخدما أحدث ما وصل
اليه عقل الانسان .

واذا أنت ألقيت ببعض السودانى وتزاحمت عليه القرد
وضحك طفلك الصغير ، فاطن انه لا داعى لأن تضحك أنت .
لأنك قد فعلت شيئا من ذلك فى المكتب أو الدكان أو المصنع الذى
تعمل فيه . فمكان العمل هو قفص أنسى من قفص القرد .
وانت محكوم فى داخل القفص بتوانين ولوائح وقواعد ومخاوف ..
واذا أثار رئيسك فى العمل بالعلوات أو الأرباح فاءك تتفكر مثل

هذا القرد وأكثر .. وليست العلوات الا أنواعا من الفول
السودانى الذى يلقى لنوع آخر من القروء ..

واذا رايت القرد — أمام كل الناس — يركب ظهر الأنثى .
فليس القرد قليل الأدب ، ولا نفسه اتفتحت لمجرد رؤيتك . ولكنه
فى حالة خوف . والخوف يثير الحيوان والانسان أيضا . والناس
لى جو الخوف يتعسلقون .. الهم يواجهون الموت بالتبسلات ،
ويواجهون الموت بغسيرة هب ، البقاء .. والبقاء عن طريق
الجلس ..

واذا كان القرد ليس له مستقبل فى أن يكون انسانا . فمن
المؤكد ان الانسان له ماضى . وهذا الماضى مازال حروفه
القامضة يمكن قراءتها فى جبلاية القروء .. لماذا لم يكن هذا
القرد جدنا البعيد .. فهو قريب من جدنا البعيد . واذا كان
الانسان قد اكتسب عادات جديدة من مئات الألوف من السنين ..
فان العادات القديمة التى عاش بها من ملايين السنين ما تزال
مصونة مكنونة فى اقفاص القروء ..

ولهذه الأسباب كان الكتاب الممتع الصعب أيضا الذى كتبه
العالم دزموند موريس وعنوانه « القرد العريان » من أروع الكتب
التي صدرت أخيرا فى العالم بلغات متعددة .

واذا كان هذا الكتاب لم يلق التأييد الكامل من علماء الحياة
والدراسات الانسانية والحيوان ، فانهم — عادة — لا يتفقون على
رأى واحد .. ولكنهم أمام هذا الكتاب اتفقوا على انه خلاصة
دراسات وتأملات عميقة ومثيرة أيضا . وأن به نظريات جريئة
وجديدة ولا بد أن تدير آلاما من الأدمغة يمينا وشمالا .. وبعد
ذلك فى امكانها أن تتساقط من التعب أو اليأس .

هناك ١٩٣ نوعا من القردود من بينها نوع واحد فقط ليس جسمه مغطى بالشعر : وهذا القرد العريان له صفات غريبة أخرى من بينها مثلا أنه يقضى نصف عمره بحثا عن معنى سلوكه وتصرفاته .. ويبضى النصف الثانى من عمره يحاول أن ينسى هذه المعانى . وهذا القرد العريان يعتبر نفسه عاقلا . والحقيقة أنه عاقل حقيقى ، ولكنه أكثر الحيوانات شراهة من الناحية الجنسية ، والحيوانات كلها معتدلة ، وكل هذه الحيوانات تخجل من الجنس ، ولذلك فالذكر عند الغلابة لا يواجه الشاة ..

والحيوانات لها مواسم . والإنسان ليست له مواسم للتبيلات والحمل والرضاعة والولادة .. لكل وقت عنده هو الوقت المناسب لأن يكون « حيوانا » ومن الضرورى أن نعيد النظر فى الحيوانات الأخرى ، وخصوصا الحيوانات الراقية مثل القردود لتعرف كيف عاش هذا الإنسان ومن أين جاءت عاداته كلها ، كيف نشأت وكيف تطورت وتحورت حتى أصبحت على الصورة التى نراها اليوم .. ولا تفهم الكثير من مقدماتها وأسبابها ..

ولعل من المناسبة هنا أن نذكر أنه فى إحدى حدائق الحيوانات يوجد « سنجاب » وهو حيوان صغير أبيض يظهر فى الحدائق ويداعب الأطفال . هذا الحيوان وضعوه فى قفص على أنفراد .. وكتبوا على القفص .. هذا السنجاب أفرغى نازر . ولا نعرف اسمه العامى .. فنحن لم نر قبل الآن سنجابا له قدم سوداء .. وأنف أحمر ..

وأمام هذا السنجاب اننادر نجد علماء الحيوانات يبحثون عن وجه الشبه والخلاف بينه وبين الأنواع الأخرى ، لابد أنه كان من سلالة انعزلت من بقية الـ ٣٦٦ نوعا من السناجب التى عاشت

فى العالم كله . ولابد أن هذه الفصيلة النادرة قد انعزلت تماما وأصبحت لها عادات خاصة ، ولها نداءات جنسية خاصة . ولابد أنها مرت بظروف غريبة . وأنها توافقت مع هذه الظروف . وأصبحت لها ألوان وأشكال وعادات مختلفة من بقية الأنواع الأخرى ..

نفس الموقف يجب أن نأخذه من الإنسان — هذا الفرد العريان — نتساءل كيف عاش . ولماذا بقى . وكيف تطور .. وكيف تحول من مرحلة أكل فيها الحشرات الى مرحلة أكل فيها أوراق الشجر . ثم الثمار .. ثم انتقل من الغابات الى الأرض الواسعة .. ثم كيف تحول من التقاط الثمار الى صيد الوحوش .. ثم الى زراعة الأرض .. ثم كيف حاول الهرب . واستخدم رجليه .. واستخدم يديه فى صناعة أدوات حياته ..

وان كان الإنسان مثل بقية الحيوانات الثديية التى يبلغ عدد أنواعها ٤٢٣٧ قادرا على أن يحتفظ بدرجة حرارة مناسبة فى الحر والبرد .. صحيح أن بعض الحيوانات الثديية — أى التى لها أنداء ترضع بها أطفالها — تعتمد على جلدها الغليظ وشعرها الكثيف فى حفظ درجة الحرارة فى الشتاء . والوقاية من حرارة الشمس فى الصيف .. والوطواط وهو طائر ثديي عريان فى معظم أماكن جسمه .. ولكن يوجد شعر أيضا يغطيه ويحميه .. وهناك حيوانات أخرى مائية ثديية بلا شعر مثل الحيتان والدلافيل .. ولكنها لا تقوى على مواجهة الشمس كما يفعل الإنسان ..

والإنسان فى تاريخه الطويل فقد القدرة على الأبصار . وفقد قوة السمع والشم . أما الحيوانات الأخرى وخصوصا آكلة اللحوم مثل الإنسان فعندها قدرات خارقة على الرؤية والسمع

والشم . ففى سنة ١٩٥٣ أجريت تجارب على قدرة الكلاب المتوحشة على انشم ، فاثبت العلماء أن قدرتها اقوى من الانسان مليون ونصف مليون مرة ..

والانسان مثل الحيوانات آكلة اللحوم تاكل ايضا . وبعض الحيوانات لا تقتل مجرد القتل . وانما لاسباب وجيهة : الجوع .. أو جوع صغارها ..

وحتى الحيوانات التى استؤنست ما تزال عندها غريزة الصيد .. والانسان ايضا . فالكلب الالىف يحب أن يخرج به سيده الى الشارع ليمارس لعبة الصيد والمطاردة .. وهى لعبة لانها ليست خطيرة . وكذلك القط الذى تلتى اليه بالطعام فيدأ به كانه فأر صغير .

وبعض الكلاب تخفى طعامها .

وبعض الضباع تخفى طعامها فوق الشجر ..

وهذه الحيوانات آكلة اللحوم لها طرق معروفة فى الصيد .. والأسود تبعث واحدا منها يهاجم الفريسة حتى تهرب .. واذا ما هربت وجدت امامها عددا آخر من الأسود . والثئاب تحاصر الفريسة .. أما الكلاب المتوحشة فانها تمشى فى طابور طويل . وتظل تهاجم الفريسة واحدا واحدا حتى تنزف الفريسة وتموت .

هناك خلاف هام بين هذا الانسان وبين القردة الأخرى . هذا الخلاف هو أن طفل الانسان يستمتع بفترة طفولة طويلة . هذه الفترة يعيش فيها مع أمه . ويتعلم منها الكثير . وفى نفس الوقت يكبر عقله وينضج . ولا يزال يكبر حتى السابعة من عمره .

ويبلغ العقل نضجه التام في الثالثة والعشرين أما الحيوانات الأخرى فلها فترات طفولة صغيرة .

والانسان لم يستمتع بهذه الطفولة الا بعد عادات أخرى اكتسبها . . . وهى ان الرجل هو الذى انفرد بالصيد والقتال . لان المرأة في حالة الحمل لا تتوى على ذلك ولهذا ذهب الرجل وبقيت المرأة في البيت مع أطفالها . والمرأة في البيت بلا خوف من هجمات الذكور الآخرين لأن هناك اتفاقا روحيا بين الذكر والأنثى ، أن تبقى هذه الأنثى له وحده . وان تبقى ومية مخصصة له اذا ذهب للصيد في الغابات . هذا الاتفاق لم يتم بين الذكر والأنثى الا بعد ان كان هناك حب بينهما . وهذا الحب أدى الى الارتباط والارتباط أدى الى قيام وحدة من رجل وامرأة وأنشاء أسرة أى جو مناسب لتربية طفل لاستقرار الأب والأم والأطفال . . . واذا كان من طبيعة الحيوانات الأخرى أن تتعاون فالانسان أيضا حيوان متعاون ولكنه حيوان منافس أيضا . وكثيرا ما أدى به التنافس الى القضاء على الأسرة وعشرات الأسر . . . واذا كانت رغبة الانسان في التعاون هى التى جعلته يخلق الأسرة ، فان رغبته في التنافس هى التى جعلته يبتر الزوجات ويخطف الأرض ويقتل القبائل الأخرى . . . واكثر من ذلك جعلته يبتكر أدوات جديدة في الدفاع عن النفس وفي القتال . . . وجعلته يشعل النار في عقله ويلقى بضوئه ودمائه على الأجيال القادمة . . . تأريخ الانسان أضواء باهرة تنعكس على بحار من الدم ترفع شعارات اسمها : حب الانسان لأخيه الانسان . . .

أما لماذا سمى الانسان بالترد العريان فهناك آراء كثيرة . هناك رأى يقول ان طفل الترذ عندهما يولد يكون عاريا من الشعر تماما . . . ثم ينبت له الشعر كلما كبر . والانسان لأن طفولته

طويلة فقد ظل جسمه خاليا من الشعر .. ثم أصبحت هذه الصفات وراثية من مئات الألوف من السنين ..

ومن المعروف أن الجنين في الشهر السابع والثامن يكون جسمه مغطى بالشعر وقد رأيت ذلك في الأطفال الذين ولدوا قبل الأوان .. وبعد ذلك يختفى هذا الشعر كلما تقدمت بهم السن .. وأن كانت هناك حالات نادرة معروفة في الكتب العلمية لأطفال ظل شعرهم طويلا يغطي معظم الجسم .. كالقروود تماما ..

ويقال أيضا أن الحيوانات التي يغطي جسمها بالشعر . تعيش عليها ومعها حيوانات طفيلية كثيرة . وكان الإنسان يعيش في الكهوف .. ويقال لأن الإنسان قادر على أن يستخدم يديه راح ينزع شعره ويحلقه .. ولأن الإنسان قادر على أن يستخدم يديه وأصابعه . على عكس الحيوانات الأخرى . وهناك نظرية تقول أن الإنسان عندما اخترع النار لم يعد في حاجة الى أغطية من الشعر .. أو غرورة من الشعر .. وأنه قادر على أن يجد الدفء في ضوء الشمس نهارا . وأن يجد الدفء أمام النار ليلا .. وأن هذا الدفء هو الذى أغناه عن حاجته للشعر الذى يغطي جسمه كله .

ويقال أن الإنسان قد عاش مئات الألوف من السنين يتنقل بين البر والبحر وأنه كان يعيش على أكل السمك . وعندما كان بصيد الأسماك كان الماء يغمر جسمه كله . ولا يبقى إلا رأسه على سطح الماء .. ولذلك — مثل كل الحيوانات الثديية الأخرى — أصبح جسمه خاليا من الشعر .. وكلها نظريات تجتهد في تفسير خلو جسم الإنسان من الشعر ، أكثر من الحيوانات الأخرى ..

وربما كان لشعر تفسير جنسى آخر .. فمن الملاحظ أن الذكور من الحيوانات الثديية بها شعر أكثر من الإناث ولذلك أصبحت

الأنثى الناعمة البشرة مثيرة من الناحية الجنسية للرجل . وهى حريصة على أن تكون أنعم أيضا . بينما يحرص الرجل على أن يكون أكثر خشونة .. ولذلك يطلق شاربته ولحيته .. ويترك الشعر فى صدره وتحت أبطه بينما تحرص الأنثى على أن تكون ملساء ..

وليس معنى ذلك أن الانسان يحب البشرة الناعمة ، ولذلك زال الشعر من جسم المرأة . ولا معنى ذلك أن المرأة احبت الشعر فى جسم الرجل فظهر الشعر .. ولكن معناه أن الانسان احب الواقع .

نعود مرة أخرى الى تفص القرد الذى نكف أمامه فى حديقة الحيوان .. ان القردة لم تذهب الى حلاق ولا الى صانع احذية والى مصمم ازياء .. ولم تضع الأحمر والأبيض والسويان .. والكورسيه والكعب العالى .. ولا الغمز بالعين ...

كل هذا يدل على أن الحضارة الانسانية علمت الانسان أن يكون شهوانيا .. وان يكون مشتتلا جنسيا . وان يفكر فى الجنس ويهرب منه ويعود اليه .. وبسبب الجنس يحب وبسبب الحب يتزوج وبسبب الزواج تكون له أسرة وأولاده .. يهرب من الأولاد والزوجة باسم الكراهية ليقع فى الحب ، الذى هو اسم مهذب للجنس .. فهو يدور حول نفسه هاربا تلقا خائفا فى تفص محكم معقد اسمه الغريزة الجنسية . واسمه تجارب التسايرخ الذى طواه ملايين السنين قطعتها انقرود على الأشجار وتحتها وفى الصراع مع الحيوانات الأخرى تحركت ساقتها .. وتساومت فتحركت يداها واهتز عقلها أيضا .. وسكنت المكهوف .. واستقام ظهرها .. وكبر عقلها .

وأصبح انسانا لا يختلف كثيرا عن القردة وأن كان هو ينوهم
انه مختلف عنها تماما .. ولكنه قرد يصنع الانفصام لغيره ..
ولنفسه .. ويجعل انفصامه هو كيفية الهواء اذا كانت على
الارض .. وكيفية الهواء والضوء والضغط اذا كانت في طريقها
الى القمر .

والانسان قاتل من يومه ..

كان يقتل بالحجارة والمأس والسيف . وما يزال يقتل . فقد
أصبحت لهذه الأسلحة أسماء جديدة : الصاروخ والطائرة
والدبابة . فهو — اذن — لم يتغير .

والحضارة لم تطور رغبته في القتل . وانما هذه الرغبة هي
التي طورت الحضارة الانسانية وغيرتها وصبغت بالأسود والأحمر
طريقها وأهدافها .. والانسان — هذا القرد العريان — كان
صيادا في الغابة ، يعيش على التقاط الفاكهة : التفاح والرمان
والتوت . وما يزال . ولكنه يصيد تفاح الخدود ورمان النهود
وتوت الشفاه .

فالحضارة الانسانية لم تضع الفرامل على رغبات الانسان .
وانما رغبات الانسان هي التي أشعلت فرنا ضخما شوت فيه كل
معالم الحضارة الانسانية . فلا يزال الانسان أكثر الحيوانات
الراقية شراهة جنسية : يجوع اليها ، وينشدها ويجدها
ويطاردها ويعود اليها . ويبدأ الانسان هذا الشوق الجنسي في
سن مبكرة . ثم يعرف اللعب الجنسي . والمداعبة . والمطاردة .
والصيد . والانتباه الجنسي والهيّاج الجنسي .. والاثباع ..

والانسان حيوان شهوانى أكثر من الحيوانات الأخرى ..

ولكن الانسان هو أول حيوان يحرص على ان تكون له اسرة .
اى تكون له امراة واحدة . يحرص عليها ومن الضرورى ان
تحرص هى أيضا عليه . والانسان كحيوان صياد كان يخرج من
الكهف الى الصيد فى الغابة . ويبقى فترات طويلة . ويترك وراءه
انشاءه وأولاده . وهى بذلك تكون عرضة لعدوان الذكور الآخرين .
ولابد من حماية لها أثناء غيابه .

ولذلك عرف الانسان الحب . وعرف العطف على الأئنى .
وعرفت الأئنى حماية الذكر . وهذا الحب كان ضروريا للانسان .
لأنه عند غير مكتوب وبمقتضاه يصبح لهذا الذكر الحق فى ان
يحتفظ بهذه الأئنى . ويصبح لهذه الأئنى الحق فى أن تعيش فى
كهف هذا الرجل ولهذا الرجل والا تسلم نفسها لذكور آخرين . .

ولكى يبقى هذا « العقد » محترما مان على الذكر أن يحترم
عقود الآخرين .

وفى الوقت الذى بدأ فيه جسم الانسان يضعف بدأ عقله ينمو
وينضج . ولذلك لم يعد هذا الانسان فى حاجة الى عضلات
الحيوانات وسرعتها فى الجرى والهرب . وانما عقله هداه الى
أساليب أخرى لالتقاط الفاكهة من الغابة . وهداه أيضا لاستخدام
أسلحة أخرى للمقاتلة والدفاع عن النفس . . وهداه الى وضع
حدود اجتماعية لتحميه وتحمى ذريته . وفى أثناء فترة الصيد
هذه استطاع الانسان أن يحرك أصابع يديه . وهو وحده القادر
على ذلك من كل الحيوانات الأخرى . وهذه الأصابع هى التى
مكنت الانسان من أن يستخدم الأدوات وأن يصنعها أيضا .
وهذا ما لم تفعله كل الحيوانات الأخرى . .

وتمكن الإنسان — خلال مئات الألوف من السنين — أن يصلب عوده . وأن يتف وتعلم الإنسان أن يكون له رفيقة واحدة . هذه الرفيقة هى الشريكة . أو هى اللصيقة . أو التابعة .. فلم تظهر كلمة الزواج أو كلمة الزوج الا فيما بعد ذلك بالوف السنين .

وهناك اختلاف آخر بين الإنسان والقرد مثلا ..

ففى فترة الحمل عند القرد — اقرب الحيوانات الينا — تقرب الأنثى من كل صلة جنسية . بل انها تبعد تماما عن الذكور . فيما عدا الإنسان — هذا الشهوانى — لا يقوى على الحرمان الجنسى طويلا . ولذلك فمن الممكن ان يترب زوجته معظم فترات الحمل وكأنه بذلك أراد الا تتجه زوجته الى ذكر آخر .. وكان الأنثى أرادت هى الأخرى الا يتجه الذكر الى أنثى أخرى . فاصبحت هذه العلاقة ممكنة رغم الحمل .

وقد ورث الإنسان من مرحلة الصيد القديمة ، هذه النعومة فى البشرة .. فهو اذا عاتق المرأة التصقت بأكبر مساحة ممكنة من هذا الجسم العريان . وأصبح الجسم الإنسانى شديد الحساسية لللامسة . وفى هذا الجسم الإنسانى مراكز كثيرة قادرة على اشعال الحس . والإنسان اكتشفها واعتاد عليها ويلهبها كلما أراد ذلك .. ولذلك فى استطاعة الإنسان أن يكهرب نفسه وغيره بمجرد أن يمر بأصابعه على الجسم الإنسانى العريان .

ومن الملامح الغريبة عند الإنسان : الشفتان ..

وقد أعلن كثير من العلماء أن الشفتين ليست لهما ضرورة

خاصة . وكان من الممكن أن يكون الفم مجرد فتحة . ولكن الانسان هو الذى جعل للشفيتين معنى خاصا .. ويقول علماء آخرون : ان شفتى الانسان قد كبرت وتضخمت لأن الانسان له طفولة طويلة . أى أنه يرضع لدى أمه سنوات عديدة بينما نجد القردة ترضع صغارها فترات أقصر .

ولكن الغريب فى شكل الشفتين أنها مقلوبتان الى الخارج . على خلاف شفتى القرد .. فأنها حادثان بلا طبقة شحمية . فإذا اقترب منك القرد وتبلك فإنه يطبع فكه فقط على وجهك أعلى عنقك . ولكن القبرة من شفتى انسان ملتصقة ومنموجة وعميقة أيضا . ففى استطاعة الانسان أن يعانق الشفتين بالشفتين ..

وفى الشفتين خلايا عصبية كثيرة . ولذلك فالانسان قد جعل هاتين الشفتين فرعين تتعانقان .. وتنقلان الحرارة والوهج الجنسي الى كل الجسم بل أن هناك نساء يغفى عليهن عند القبلات . ويسبب المعانى الكثيرة التى تعملها القبرة وتثيرها ، فان تسليم الشفتين هو موافقة مبدئية بتسليم بقية الجسم الانسانى .. وكما أن الطفل الصغير يرضع بشفتيه ، فان الطفل الكبير يرضع أيضا بشفتيه احساسات أخرى ومعانى عميقة ومثيرة .

وبعد الشفتين تجيء الأذن ..

يقول بعض العلماء ان أذن الانسان كانتا طويلتين — كأننى الحمار مثلا ثم ضمرت الأذن بمرور الوقت حتى أصبح لها هذا الشكل الذى نراه .. وهناك شبه بين أذن الانسان وأذن القرد .

ولكن هناك خلافا واضحا : هذه الشحمة التى تتدلى من الأذن .. من أين جاءت ؟ ولماذا كانت ؟ وما فائدتها ؟ ليست لها فائدة . ولكن الإنسان خلال مئات الألوف من السنين قد استخدم هاتين الأذنين فى الاثارة الجنسية .. امسك الأذنين بأصابعه أثناء اللقاء الجنسى . واعتاد ذلك وأصبحت لهذه الشحمة هذه الدلالة الجنسية . وأصبحت جريسا يضغط عليه فإذا كل الحواس الأخرى تصرخ وتثور وتفتتح ..

أما النهدان فهى عند أنثى القرد العريان متضخمان .. وتتضخمان عند الاثارة الجنسية أيضا .

ويقال أن النهدين مظهر من مظاهر الأمومة . وضرورة لها . ولكن أثناء القرد ليست فى ضخامة أثناء المراهة . على الرغم من أن أثناء القرد أكثر افرازا للبن . ولكن اللبن الكثير والرضاعة العنيفة عند صغار القرد لم تؤد الى تضخم نديبى القردة ، ولكن أنثى الإنسان لها نهدان يتضخمان وهذا التضخم ليس بسبب الأمومة ، ولكن بسبب الاتوثة .. فالنهدان جهاز تنبيه جنسى أيضا . اعتاده الإنسان واستراح اليه وعليه .

والأنف يختلف عن كل الأنوف عند الحيوانات الأخرى . والخلايا والمراكز العصبية الموجودة فى الأنف كثيرة . وإذا كانت خاصة الشم عند الإنسان قد ضعفت فإن هذه الحساسية تقوى عند العنق . ويصبح الأنف قاتر على أن يشم وعلى الاستمتاع بالشم ولذلك كانت الاثارة عن طريق المعطور ورائحة الجسم الإنسانى نفسه .

هذه الاختلافات فى الهيئة والسلوك الإنسانى قد اكتسبناها من مئات الألوف من السنين .. واكتسبنا معها وبسببها هذا العقل

الذى نمتاز به عن الحيوانات الأخرى ولكن ما الذى تغير فى الإنسان الآن .. هل ما يزال الإنسان كما كان من مئات الآلاف من السنين .. هل نحن مختلفون عن أجدادنا فى الرغبة والانجاء والاثسباع ..

لم يتغير شيء .. وإنما الأسماء فقط هى التى تغيرت .. فالبيت بدلا من الكهف والعمل بدلا من الصيد . والحب بدلا من السطو . والزواج بدلا من التزاوج ..

كما ظهرت بعض القيود التى نسميها : القانون .. القواعد .. الأصول .. التقاليد ولكن متى ظهرت هذه الحواجز . هذه الفواصل . هذه الأسلاك الشائكة . هذه العلامات البيضاء على الأرض . علامات المرور العاطفية . متى ظهرت . متى أصبحت لها هذه القوة ؟ ..

عندما ظهر الغرياء فى حياتنا ..

فبين الرجل واثناه لا قيود . ولا تقاليد . ولا عادات . إلا ما اتفقنا عليه . وهو حر فى بيته . وهى أيضا . وفى استطاعة الأنثى أن تمشى عارية . والرجل أيضا . ولكن عندما يظهر شخص غريب : تنكمش الحركة ويتغطى الجسم . وتنزوى المرأة . ويبعد الرجل عن زوجته ..

وإذا كان الرجال معا يذهبون الى الصيد ويتركون النساء وحدهن فقد حدث كثيرا أن ذهبت النساء للصيد أيضا . هذا الاختلاط حتم إقامة الفوارق والحدود . وعرفت الإنسانية معانى العيب والحرام والشرف . أى أن المرأة لا يحق لها أن تعطى للغير ما ليس للغير .

وقد أسرف الرجال في وضع الحواجز واقامة الجدران بين
ما يخصهم وما يخص غيرهم . وفي المصور الوسطى كان الرجل
يضع « حزام العفة » حول زوجته . ويضع على الحزام قفلا
يحتفظ بالفتاح في جيبه . . عاما . . وعشرين عاما . ويترك في
الحزام فتحات للضرورة الحيوية فقط . وكان البعض من المتزمتين
يضع الحزام كالسد المنيع على زوجته عندما ينهضان من النوم
كل يوم !

وقد اعتاد الرجل منذ وقت طويل أن تكون له امرأة خاصة .
وأن يكون جسمها خاصا به . وأن يكون لهما مكان خاص ينمان
فيه . (وفي كل اللغات العالمية نجد أن كلمة « نام » الرجل مع
المرأة أى عاشرها كنها زوجته) . . أنن لقد عرف الانسان الزوجة
الخاصة . والبيت الخاص . وعرف السرية والخصوصية في كل
تصرفاته الجنسية والعاطفية . . بعيدا عن عيون الآخرين وعن
أيديهم أيضا .



ولو نظرنا الى مكان مزدحم بالرجال والنساء لوجدنا هناك
حرصا شديدا على الا يصدم احد بأحد . . أو يصطدم رجل بامرأة .
لأن الملامسة لها معنى جنسى . وأن كنا في حياتنا العادية لا نقول
ذلك . وإنما فقط نقول : عيب أن نصطدم بسيدة .

هذه قلة ذوق . . هذا سوء تربية . . ولكن المعنى الحقيقي
أن جسم هذه السيدة ليس مباحا . وإنما هو خاص . وليس من
حقك أن تلمسه . . وإنما من حق غيرك ، وأن كانت هذه الملامسة
مسموحا بها في أماكن الزحام الشديد ، لأنه لا مفر من ذلك ،
ومسموحا بها للحلاق والترزى والطبيب . . ولو فرضنا أن سيدة

اصطدمت برجل في الزحام ، ولم يعتذر لها لقالت انه قليل الالعب
.. ولكن لو ذهبت الى الطبيب نفسه للعلاج فانهما تنزع ملابسها
أمامه . ويتحسس جسدها . ويولدها . ولا يتهمة أحد بسوء
الادب لانه في المرة الأولى لم يكن له حق . و في المرة الثانية له هذا
الحق !

وبسبب هذا العدد الهائل من الغرباء في كل مكان . كان من
الضرورى أن تخفى المرأة معالم جسدها . وقد دفعت المرأة نفسها
وراء الأبواب والجدران وتحت الملابس الووف السنين . ولكن
عندها أصبح « العبل » ضرورة حيوية .. خرجت المرأة واخفت
ملامحها أيضا لأن كشف هذه المعالم والنظر اليها ولمسها بالعين
أو باليد ليس من حق كل الناس !

ولذلك نحن نطلب الى الطفلة الصغيرة اذا جلست ان تضم
ساقها . والا تفتحها حتى تعاد على ذلك .. لأن فتح الساقين
لا يليق أمام كل الناس .. وكذلك المرأة عندما تضحك فانهما تحاول
الا يكون صوتها عاليا . وان نخفى ضحكها وراء يدها .. أو تنحني
لتخفى ضحكها أيضا .

والسبب هو أن الضحك واللعب لهما دلالة جنسية خاصة ،
ويجب ألا تكون عامة !

ولكن ما الذى تفعله المرأة بملابسها الآن ؟

ان ملابس المرأة تخفى جسدها ولا تخفيه .. بل ان الملابس
تبرز جسم المرأة أكثر مما تتستر عليه . فقد يكون الصدر
مترهلا ذابلا . ولكن السوتيان يشده ويدوره ويبرزه . وهذه
الاستدارة والتضخم والبروز لها دلالة جنسية . فمن المعروف ان
النهدين يتضخمان عند اللقاء الجنسى .

وكذلك أرداف المرأة . فهي حريصة أيضا على إبراز الردينين وتكبيرهما .. ولذلك تستخدم الكورسيه .. وأحيانا تستخدم الأرداف الصناعية المصنوعة من القطن . وكما أن المرأة تحقن صدرها بالشمع . فانها تحقن أردافها أيضا .

فكأن المرأة لا تخفى جسمها . وانما هى تخفيه ليظهر أكثر .
فلماذا ؟

نعود الى جبالية القروء : ففى عالم القروء نجد أن الخوف والزحام يدفعان الحيوانات الضعيفة الى الاستسلام للذكر القوى أو الأنثى القوية . وأول ما يفعله القرد الضعيف أن يدير ظهره للحيوان الأقوى . ويعتليه الحيوان الأقوى والخوف فى جبالية القروء سببه الزحام على القوة . وعلى السلطة . وعلى الطعام وعلى الأنثى . ولا يملك الضعيف فى هذا الزحام الوحشى الا أن يعطى نفسه لمن هو أقوى منه . وليس لدى القروء الا جسمها .. فتضعه أمام الذكر الأقوى !

وفى عالم الإنسان أيضا . فالمرأة عندما تخرج الى الشارع . تحرص على أن تكون جميلة ومثيرة فهذا الجمال والاثارة هما محاولة للفت نظر الرجل . وفى نفس الوقت تذويب رغباته العدائية أو العدوانية .. الى مجسرد رغبة .. الى اعجاب .. الى اشتها .. وبذلك تنجو المرأة من شر الرجل . وتنجو أيضا من الاعتداء عليها .. ولولا خروج النساء الى الشارع لانهدمت الحياة الزوجية وانهدمت الأسرة الإنسانية . فمخرج المرأة الى الشارع خفف حدة الرجال الآخرين الشباب والمتزوجين .. فكأن المرأة عندما تخرج الى الشارع جميلة أنيقة مثيرة عارية بارزة النهدين والردينين تقول : من الممكن أن تحبنى ولكنى بعيدة جدا !

ومعروف لنا جميعا أن المرأة عندما تخرج الى الشارع سوف تكون موضع نظر الرجل .. أى رجل .. فهى لا تستطيع أن تسد عيون الناس . ولا أن تسد أفواههم . ولكنها فقط عن طريق اشباع العيون تقطع أيديهم .. وإذا كانت العين بصيرة ، فمن المؤكد أن الأيدي ستكون قصيرة — وهذا هو المطلوب !

فلماذا كل هذه المنوعات والقيود ، ولماذا هذه الاثارة فى نفس الوقت ؟ لماذا تفتح النواخذ لتهب العواصف الباردة ولماذا نشعل المحفأة فى نفس الوقت ؟

لأن الرجل حيوان « بريالة » .. فإذا سال لعبه ، أصبح حيوانا ذاول ذليلا .. وكان المرأة هى وحدها القادرة على تحويل النمر الى قط وتحويل الذئب الى كلب .. الى قرد عريان .. الى عريان .. فكان المرأة هى وحدها التى تقوم بترويض الرجل الشرس فى الشارع وفى البيت .. وهى وحدها القادرة على أن تحمى الحدود التى وضعها الرجل .. وعلى ازالة الحدود وازالة الرجل أيضا !

وقد اعتاد الانسان شيئا جديدا : اعتاد أن ينظر .. أن « يبص » وأن يجد متعة فى النظر والبصيرة .. واعتادت المرأة أن تكون منظورة .. ملفتة .. وتصبح المتعة مشتركة بين الجميع .

ولذلك نجد متعة أيضا فى مشاهدة الأفلام والمسرحيات حيث نجد أناسا آخرين يحبون ويعشقون ويقبلون ويتزوجون .. أنهم يقومون بكل شيء بالنيابة عنا .. انفسنا نشاركهم فقط بعض اللحظات . بل اننا نعلن عن الأفلام العاطفية باظهار البطل والبطة

فى حالة هناق حار . ولا أحد يسال نفسه : طيب هو يعانقها ويقلها
واحنا اخذنا ايه لا . .

لا شىء طبعاً . ولكن أثناء عرض الفيلم نندمج مع البطل والبطلة
وننسى أن الذى أمامنا هو تمثيل فى تمثيل . . ولكن النظر متعة . .
ولذلك عندما يتعانق البطلان نحس بالكهرباء ويسيل اللعاب . .
ونعالى آهات الحرمان . . آهات صاحب العين الصغيرة واليبد
القصيرة !

وفى الصحف والمجلات صور عارية . . وفى الروايات قصص
عارية . . وصفحات غرامية من نار . . كل هذا نبحت عنه . لأنه
لذة . ومنعة . ومشاركة بالعين فقط . . ؟

وفى هذه المناظر حماية للأسرة وتعجيل بأن تكون لكل انسان
أسرة أيضا !

وفى البلاد التى يسمحون فيها بالدعارة . . نجد أن هذه الدعارة
تحبى الأسرة أيضا . فالرجل يذهب الى إحدى الغانيات بلا حب
ولا مقدمات؛ فتمتد يده دون أن يراها . . أى يكون طويل اليد
قصير النظر . . ولذلك لا يفكر فى أن يتزوج غانية . . أو يترك
زوجته وأولاده وبيته من أجل غانية . . أو من أجل واحدة تملأ
الذراعين وتسقط من العينين .

والدعارة هذا العفن الاجتماعى والأخلاقى — هو أحد السموم
التي يحمون بها الأسرة — أو كأنه أحد الأسفدة العضوية التى
يستخدمونها لتغذية التربة ؟ .

ورغم المحاولات الكثيرة للتخلص من القيود العائلية . أو
الخفيف منها تعيش الأسرة أقوى وأبقى علاقة اجتماعية . فقد

حاول المفكرون أن يبحثوا عن وسائل للحمل بدون أب معروف ..
وحاولوا وضع الأطفال في مكان عام دون حاجة الى أم أو أب ..
كل هذه المحاولات الفكرية والعلمية قرا الانسان عنها ولكن لم
يتحمس لها . فما يزال الانسان حيوانا اجتماعيا .. يريد الزوجة
الواحدة والطفل والمبيت الخاص . وأن تكون له خصوصيات . وأن
تكون هناك ، حدود عليه وحدود له .. وأن يكون له أطفال . وأن
يتولى هو تربية أطفاله وهذه هي إحدى مشكلات الأسرة واحد
أعباء الزوجين .. والمجتمع والدولة .. وتربية الطفل ليست
مشكلة حيوانية .. فلا شكوى للقرد منها .. وإنما هي مشكلة
انسانية جديدة ومتطورة كما سنرى !



من قلوب الأمهات ! خروجت موسيقى الخنافس !

عندما يولد القرد، فإنه يمسك بأمه . يمسك
بشعرها وجلدها . ويتعلق بها . كأنه تدرب على
هذه العملية في بطن أمه ومنذ وقت طويل ..
ولا يستطيع الطفل الانساني أن يفعل ذلك الا بعد
وقت طويه .

فالقرد الصغير لا يحتاج من أمه الى تربية
أو تكريب .. ثم انه ليس عبثا يصيبها بالقرف
والفيلين وينخفض ضغط الدم عندها .. وينفخ
صدرها .. ويعتمد عليها ..

أما الطفل الانساني فإنه حباء قبل أن يولد فلا تكاد أمه تحبل فيه
حتى ٢٦٦ يوما تطلق هذا الجنين كأنه تذيئة .. ولا بد أن تصرح
الأم بأعلى صوتها . ولا بد أن يبكي الطفل أيضا . ويحرص الأطباء
على أن تصوت الأم وعلى أن يبكي الطفل . فإذا حدث ذلك تلفت
الطبيب يتلقى التهاني من الأهل عاى أنه أبكى الأم وطفلها .

وينزل طفل القرد ومعه « خلاصه » هذا الخلاص تقوم أم القرد
بقطعه ثم ابتلاعه . وبعد ذلك تقوم بلعق السائل الذى يفرق جسم

الطفل ثم تغسل جسمه تماما .. أما الطفل الانسانى فانه يولد عاجزا تماما على فعل اى شىء .. وامه كذلك مرهقة لا تقوى على عمل شىء لهذا المولود ..

ولا بد ان قطع الخلاص على طريقة القروء كان أسلوب اجدادنا من الؤف السنين ، فيما عدا انهم لا يأكلون الخلاص . ولا بد ان حاجة الام الى مساعدة الآخرين فى هذا الموقف ترجع الى مؤسسات الالوف من السنين عندما كان الانسان صيادا يترك زوجته اياما حتى يعود اليها بالطعام . فكان يجتمع حولها نساء كثيرات يساعدنها على ولادة الطفل والعناية به حتى تنلق الام من آلام الولادة ..

وبعد يومين من ميلاد الطفل الانسانى يبدأ لبن الام فى السيويلة النشطة . فاذا أعطت الام ثديها لابنها ، ظل يرضع حوالى العشرين شهرا .. والرضاعة الحديثة تكفى بسبعة أو تسعة شهور فقط .

وعندما تتوقف الأم عن ارضاع طفلها يعاودها المرض الشهرى وتصبح تائرة على الحمل من جديد .. ولذلك تعتبر الرضاعة الطويلة محاولة لتحديد النسل أيضا .

والرضاعة عند القروء ليست مشكلة .. ولكنها عند الانسان — هذا القرد العريان — مشكلة كبرى . فالطفل الانسانى غير قادر على أن يطعم نفسه ، وعلى الأم أن تساعدته هى تحمله على صدرها . وهى تضع ثديها فى فمه . وهذه مشكلة . فحلمة الثدي ليست ممدودة بدرجة كافية . وليس من السهل انخالها فى فم الرضيع . ولذلك فالأم تضع ثديها بين شفتيه بحيث تكون حلمة الثدي بين سقف الفم وبين لسانه . ثم انه يجب أن تكون الرضاعة سهلة فى الايام الخمسة الاولى ، واذا غشلت الام فى ذلك فسوف تكون هذه مشكلة معقدة للطفل بعد ذلك ..

وأحيانا تشعر الأم أن طفلها يرفض ثديها . وهى لا تدري . ولكن عند الطفل أسباب وجيهة جدا . كأن تضغط الأم بطفلها على صدرها . فلا يعرف كيف يثني : ففمه الصغير مليان بالبن وانفه الصغير ملتصق بصدرها .. ولذلك يجب أن نراعى الأم ذلك . وهذا يجعلنا نقول مرة أخرى أن صدر الأم — نهديها — ليس جهازا للأمومة . وانما هو علامة من علامات الأنوثة .. والجنس . فهذه الاستدارة المرنة . وهذا البروز وهذه الحلمة غير الممدودة لا تجعل الرضاعة سهلة على الطفل . ويكفى أن ننظر الى زجاجات اللبن التى يرضع منها الطفل . حلمة الزجاجاة طويلة ممدودة ولذلك يسهل على الطفل أن يرضع منها . ولو عرف الزجاجاة لرفض ثدى الأم .. وتشبه هذه الزجاجاة النموذجية ثدى القردة .. فثدى القرد مترهل يسهل على الطفل أن يمسكه . كما أن حلمة الثدى طويلة ممدودة تدخل بين شفثيه بسهولة تامة . بينما الطفل الانسانى يجد صعوبة فى وضع الحلمة فى فمه . ولا يقوى على امساك الثدى بسهولة القرد .. فكان ثدى المرأة خلق للرجل وليس للطفل .. !

وهناك ملحوظة هامة وتحتاج الى تفسير جديد . فقد دلت الأبحاث على أن ٨٠٪ من الأمهات يضعن أطفالهن الصغار أثناء الرضاعة على الذراع اليسرى .. وقد يكون تفسير ذلك أننا نعتمد على الذراع اليمنى أكثر من الذراع اليسرى لتمتصع الأم طفلها على الذراع التى لا تستخدمها مادة .

ولكن لاحظ أيضا أن ٧٨٪ من الأمهات اللاتى يستخدمن الذراع اليسرى يضعن الطفل أثناء الرضاعة على هذه الذراع اليسرى أيضا !!

أما تفسير ذلك فهو أن القلب على الجانب الأيسر من الجسم .

وأن الطفل وهو جنين قد اعتاد على سماع دقات قلب الأم .
وعندما يولد الطفل عاجزا ضائعا في هذا العالم الكبير فإن الأم تعيده
الى جنبها الى حضنها كأنها تعيده الى أحضانها في ذلك المكان الأمين
الذى يستمع فيه الى دقات قلبها من جديد . . ودقات قلب الأم
هى الصوت الوحيد الذى يجعله يشعر بالأمن نيام . والمرأة
تفعل ذلك بالغريزة أو نتيجة لمحاولات طولها عشرات الألوف من
السنين .

وقد أجريت تجارب على أطفال صغار وضعوا في غرفة واحدة
في الوقت الذى وضع جهاز تسجيل يذيع دقات قلب — أى ٧٢ دقة
في الدقيقة — ف لوحظ أن الأطفال ينامون بسهولة . ولوحظ أيضا
أن هؤلاء الأطفال يرضعون كثيرا . كما أن وزنهم قد زاد . . على
عكس الأطفال الذين وضعوا معا بلا جهاز تسجيل في غرفهم .
فهؤلاء الأطفال يبددون طاقتهم في البكاء .

وأجريت تجربة أخرى على ثلاث مجاميع من الأطفال : أطفال في
غرفة بها جهاز يدق ٤٠ دقة في الدقيقة . . وأطفال في غرفة بها
جهاز يدق ٥٢ دقة في الدقيقة . . والغرفة الثالثة بها جهاز مسجل
عليه دقات قلب حقيقى . . ف لوحظ أن أطفال الغرفة الثالثة هم
لسرع الجميع الى الهدوء والى النوم .

ولا بد أننا حين نتحدث عن أن الحب مصدره القلب وليس
الرأس ، نشير الى أن هذه الحقيقة التى عرفناها أثناء الطفولة . .
فنحن نشير الى الأمن والأمان الى جوار الأم .

ولا بد أن تكون « مرجحة » الطفل . . وهددته حتى ينام . .
سببها أن الطفل يستشعر خفقات قلب الأم . . ولا بد أن هذا هو
الذى يجعله ينام . . وهذا الاهتزاز أو هذا الصوت الذى يسمعه

يعيده الى هدوئه عندما كان في بطن أمه .. وهذا ما نفعله نحن الكبار .

فلا يكاد الانسان يجلس الى مقعده حتى يحاول أن يتأرجح به .. أو عندما نهز أرجلنا .. كل هذه محاولات لأن نهدي أنفسنا .. أو محاولات لأن نعيد هزات وصوت قلب الأم .

وليس من الصدفة أن تكون كل الموسيقى الجديدة التي يستريح اليها الشسبان هي موسيقى الدقات العالية .. دقات الطبول .. دقات القلوب المصنوعة من الجلد .. هذه الدقات تهز الآن وتتأرجح لها المشاعر .. وقد اختار الشبان في العالم أسما لهذه الموسيقى هو : موسيقى الخفقان .. موسيقى دقات القلب . ومن الغريب أيضا أن الكثير من الشسبان بعد حفلاتهم الموسيقية المصاحبة ينامون .. ولذلك يحرص هؤلاء الشبان على أن يناموا أثناء العزف الموسيقي .. ثم يصحون بعد ذلك بعد أن استراحت أجسامهم وأعضائهم أيضا .. ان هذه الموسيقى قد أعادتهم الى طفولتهم .. الى قلب الأم .. والى حنان النغم .. فناموا كأنهم أطفال صفار كأن موسيقى الخفافس قد صدرت من قلوب الأمهات!

وبعد ذلك يتوالى نمو الطفل : بعد شهر واحد يستطيع أن يرفع رأسه اذا نام على الأرض . وبعد شهرين يرفع صدره وبعد ثلاثة يمد يده الى الأشياء . وبعد أربعة يستطيع أن يجلس في حجر أمه . وفي الخامس يمكن وضعه في مقعد . وفي السادس يمكن أن يجلس وحده وفي السابع يعتمد على أمه في الوقوف . وفي الثامن يعتمد على اثاث الغرفة في الوقوف . وفي التاسع يزحف . وفي العاشر تساعد أمه على المشي . وفي الحادي عشر يعتمد على اثاث الغرفة في المشي . وفي الثاني عشر يستطيع أن

يصعد السلم بيديه ورجليه وفي الثالث عشر يقف دون مساعدة .
وفي الرابع عشر تجيء اللحظة الكبرى .

انه يستطيع أن يمشى دون مساعدة ! وفي هذه الاثناء يكون قد عرف الطفل بعض الكلمات . ويصبح قادرا على أن يحفظ بسرعة وفي السنة الثانية يعرف ٣٠٠ كلمة وفي الثالثة ٥٠٠ كلمة وفي الرابعة ١٦٠٠ كلمة . وفي الخامسة ٢١٠٠ كلمة وهذه مقدرة مدهشة عند الانسان انفراد بها عن كل الحيوانات الأخرى . وقد أجريت تجارب كثيرة على تدريب القردة على الكلام .

مثلا : اتوا بقرد وجعلوه يعيش في نفس بيئة طفل انساني . وبعد سنتين لم يستطع القرد أن ينطق أكثر من بابا .. وماما .. كوب .. وأن كان الشيمبانزي عنده مقدرة على تقليد الحركات ، فانه عاجز تماما عن تقليد الأصوات . على الرغم من أن الاجهزة الصوتية عند الشيمبانزي أقوى من اجهزة الانسان .. ومعنى ذلك أن الجهاز الصوتي لا يكفى .

ولكن العقل هو الفارق بين الانسان والقرد . وهناك طيور اقدر من الشيمبانزي على تقليد الأصوات .

فالببغاء يستطيع أن ينطق جملة طويلة ولكنه لا يستطيع أن يضيف كلمات أخرى ولا يستفيد من هذه الكلمات المحدودة التي عنده .. ولكن هذه اللغة ضرورة عند الانسان الذي كان يجب أن يخرج في جماعات للصيد . وكان لا بد أن توجد هناك وسائل للتفاهم والتخاطب بين الصائدين .. فاللغة ضرورة حيوية عند الانسان ..

والطفل الانساني ككل اطفال الحيوانات الثديية له صرخة معروفة هذه الصرخة تدل على أنه يشكو من ألم . وبعض الطيور

لها صرخات أيضا . والطفل الانسانى عندما يتألم أو يجوع أو نتركه وحده أو اذا ظهر أمامه أو حوله شئ غير مألوف أو اذا سحبنا من تحته شيئا يستند عليه .. فانه يصرخ .

فهو يصرخ اذن بسبب : التعب أو الخوف . واذا صرخ الطفل الانسانى يجب أن يكون هناك من يساعده ويحبيه . وفى هذه الحالة يجب الاقتراب منه وهذه هو أو السرير الذى ينام عليه . وصرخة الطفل توتر عصبى واحمرار فى الرأس ودموع فى العين ، وفتح للفم وسحب للشفيتين الى الخلف وتنفس مرتفع . وعندما يكبر الطفل فانه عندما يصرخ يتجه الى أمه ويتعلق بها . وكل هذه معلومات معروفة . ولكنها ضرورية لمشكلة أخرى سوف أعرضها حالا .. مشكلة الابتسام والضحك .. فالابتسام له علاقة بالصراخ . فالصراخ نداء الى شخص بعيد .

والابتسام حديث مع شخص قريب . وملامح الوجه عند الصراخ هى نفسها ملامح الوجه عند الابتسام أو الضحك : صراخ وفتح للفم وسحب للشفيتين الى الخلف وتقلص عضلى واحمرار فى الوجه .

واذا استطاع الطفل أن يميز أبويه فى الشهر الثالث ، فان البكاء يتحول الى ضحك . فالطفل الضاحك هو الذى يعرف أباه ، والطفل العاقل هو الذى يعرف أمه . وعندما يعرف الطفل أمه فانه يخاف من الآخرين .

والضحك معناه : أن الخطر ليس حقيقيا . واذا عرف الطفل الضحك ، فان الأم تستطيع أن تلعب معه دون أن يصرخ .

وهناك أناس كثيرون اذا ضحكوا لا تعرف ان كانوا يضحكون أو يبكون .. فملامح الوجه واحدة . والصوت نفسه واحد . واذا كنا نقول عادة : ان فلانا ضحك حتى بكى عيناه ،، فيمكن أن يقال

عن الطفل : انه بكى حتى ضحك .. فالطفل يبكى حتى يجيء احد .
فاذا جاء توقف عن البكاء . فاذا عرف هذا الذى جاء فانه
يبتسم .. ثم يضحك .. وكثيرا ما يتوقف الطفل عن البكاء فجأة
ويضحك .. نفس الملامح مع خلاف بسيط فى لمعان العينين ..

وعندما يعرف الطفل كيف يضحك فانه يصبح لعبة الابوين
والاقارب .. ويدخل الطفل مرحلة هامة من حياته .. مرحلة
الكائن الاجتماعى الصغير ..

والشبهانزى يبتسم ويضحك ويلعب مع مسفاره ..
والشبهانزى اذا ضحك فانه يمد شفتيه الى الامام . وهى قريبة
من الضحك الانسانى وعندما يخاف الشبهانزى فانه يسحب
شفتيه الى الخلف ويكثف عن أسنانه . فالحيوانات تضحك
وتلعب . والانسان ابرع الحيوانات كلها فى اللعب وفى فنون اللعب
.. وكلما كبر الانسان اتسعت امامه فرص اللعب بالوانه المختلفة
.. اللعب جسميا وعقليا وفنيا .

واذا نحن نظرنا الى الشبان عندما يستمعون الى مطربهم
المحبيب . او يتفرجون على العازفين الذين يعشقونهم . نجد أن
هؤلاء الشبان يصرخون . ويشدون شعورهم وينقون صدورهم
ويمسك الواحد منهم الآخر .. انهم يصرخون كأنهم يتألمون مع أنهم
سعداء . ولكن الانفعال اذا ما كان بالغ الشدة فانه يتحول الى
شعور بالآلم .. فصرخاتهم ليست استغاثة بأحد . وانما صرخات
بتصد تنبيه الآخرين الى أن هذا هو شعورهم واحساسهم ..
وانهم فى شدة السعادة التى بلغت أقصى درجات الآلم ..

ولو اتينا بشباب أو شابة واجلسناها مع المطرب الذى هو فتى
احلامها فانه لا تصرخ ولا تشدد شعرها ولا تدق صدرها ..
فالصرخة ليس لها معنى هنا . لأن الصرخة نداء الى الآخرين ..

لأن الصرخة .. لفة .. عبارة .. كلام لا بد أن يسمعه انسان آخر .. أو آخرون :

ومن العجيب أن الطفل الصغير يتوقف عن الصراخ في الشهر الثالث فجأة . وسبب ذلك أن الطفل يكون قد عرف أمه . والأم المسادئة قادرة على تهدئة الطفل . والأم العصبية تجعل طفلها مصبيا أيضا ..

الأم التي تبسّم لطفلها فأنها تهدئه . ولكن إذا هوجيء الطفل بأن أمه تضحك بصوت مرتفع على غير العادة ، فأنه يرتبك ويضطرب ولا يعرف ما الذي تقصده أمه

وإذا الأم امتلعت ضحكه أو ابتسامه ، فإن الطفل يدرك ذلك أيضا ، ومن المستحيل خداع طفل صغير . وهذه حقيقة تعرفها الأمهات . وسبب ذلك أن الطفل جهاز شديد الحساسية شديد الملاحظة . وأنه إذا اعتاد على صوت ولهجة وثيرة وملامح الأم . لماذا تغيرت لأى سبب فأنه يدرك ذلك وبسرعة وبدقة !

والابتسام تفاهم متبادل .

ومعناه : لا خوف . وعند التمييز علامات تدل على المودة . ولكن الابتسام عند الانسان ميزة خاصة . ولكن لماذا انفرد الانسان بالابتسام

سبب ذلك أن جلدنا ناعم .

عريان من الشعر . فالقرد الصغير عندما يولد فأنه يتعلق بأمه . ساعة ولادته ويوما بعد يوم يظل القرد متعلقا بأمه . وعندما يتركها لأول مرة ، فأنه بسرعة يعود اليها ويمسك بها . فالقرد الصغير عنده طريقة للوصول الى منطقة الأمان . حتى عندما يكبر القرد ويزداد وزنه وتطرده أمه فأنه يعود الى صدرها يتعلق به .. والطفل الانسانى عندما يولد فأنه يكون عاجزا عن عمل شئ . وليس لديه

شيء يمسكه أو يتعلق به . ولذلك لا بد أن يعتمد على الأم نفسها . وعلى اقترابها منه ومعاملتها له . ويجب أن يصرخ حتى تجيء . والشببانزى لا يحتاج الى هذه الصرخات ، لأن أمه أمامه موجودة . أو لأنه يتعلق بها . ولذلك فالإنسان الصغير محتاج الى علامة الى إشارة تدل على أنه في حاجة الى معونة ومحتاج الى إشارة أخرى فيقول انه قد تحققت له المعونة وانه استراح الى ذلك . والابتسام هو المكافأة التي يمنحها الطفل لأمه . فهو اذا ابتسم كأنه قال لها : شكرا . . وإذا ابتسمت هي فكأنها قالت له : عفوا !

وابتسامة الطفل في الأسابيع الأولى تكون غير مركزة . . انها ابتسامة عامة . . ولكن بعد ذلك تصبح للطفل قدرة على التركيز : على عيني الأم . . ولو قدمنا للطفل في هذه المرحلة ورقة مرسومة عليها عينا . . لابتسم لها أيضا . . وفي الشهر الرابع تتركز نظرة الطفل على وجه الأم . . وفي الشهر السابع يتعرف الطفل على أمه . . وابتداء من هذا الشهر ينطبع في نفس الطفل كل ما تفعله الأم حتى نهاية حياته . . انه ابتداء من هذه اللحظة تتحدد مسئوليتها الكبرى .

وتظهر عند الطفل نزعات عدوانية يصاحبها الصراخ المتقطع . وتقلص اليدين والرجلين . وأحيانا يبصق الطفل ويخربش . تكون هذه الحركات غير متناسقة أول الأمر .

وبعد ذلك تتركز على العدو . . أو الشخص المخيف . وهذا يدل على أن الطفل بدأ يثق بنفسه وبقدراته .

وعندما يكون هناك أطفال كثيرون معا ، فإن استعدادهم للعدوان يكون أشد وأعنف . . ومهمة الأم هنا هي تلقين الطفل وتدريبه وتعليمه وتصحيح سلوكه . والطفل الانساني يتعلم بالتقليد والتلقين . . وهذه موهبة لم تتطور عند الحيوانات الأخرى .

ومن المؤكد أن كل تصرفاتنا هي ثمرات ليذور غرست في الطفولة .

ولكننا ننسى ذلك .. كل ما يفعله الانسان من تلقاء نفسه ويسمى ذلك سلوكا أخلاقيا ، ليس في الحقيقة الا ما ترسب في نفسه منذ الطفولة .. ومن الصعب أن نغير آثار الطفولة وآثار الغريزة أيضا .. كما أنه من الصعب أن نغير التقاليد والعادات التي ترسبت في طفولة المجتمع الانساني . لماذا ظهرت أفكار جديدة تهز القديم ، فإن القديم ، يقاوم ويتحمس له الناس . لأن الجديد يريد أن يقتلهم من طفولتهم أو يجردهم من تاريخهم .. ولكن الجديد يسود مع بقاء القديم أيضا ..

وهناك مجموعات تجردت من كل القديم ، وتعلقت بالجديد .. هذه المجتمعات انهارت وانحلت وابتعدت عن الرواسب القوية الأخلاقية والاجتماعية . وهناك مجتمعات تجردت طفولتها على ماضيها .. ولكن المجتمعات السعيدة — كالانسان السعيد أيضا — هي التي تأخذ من الجديد ما ينفعها ، وتحفظ من القديم بما ينفعها أيضا .. أي المجتمعات التي اكتسبت هذه القدرة المتوازنة بين الماضي الكريم والمستقبل الباهر .. ولذلك كانت مهمة الأم صعبة .. كيف تغرس في نفس طفلها ما هو نافع له وللناس ، وتبعده عن الذي يضره ويضر غيره ..

ولكن الإنسان كائن محب للاستطلاع حتى ولو أدى ذلك الى ضرره .. يريد أن يعرف .. أن يمسد عينيه ويده .. وخياله .. ويلعب اول الأمر ، ثم يحول اللعب الى فن : رسم . نحت .. تمثيل .. موسيقى ؟

القرود والسلسلة !

كل الحيوانات الثديية عندها رغبة شديدة في أن تشبع في كل ما تجده كأنها تريد أن تعرف : ما هذا ! ولماذا ! وهل الذي تجده شيء يصلح للأكل . والقرود هو أكثر هذه الحيوانات رغبة في الاستطلاع . أما الإنسان فهو أكثرها شهوة ويمكن أن يقال أن الإنسان حيوان « دباغ » أى يأكل أى شيء وفي أى وقت ..

وكلما أصبح الحيوان متخصصا في طعام معين ، أصبح عالمه ضيقا محدودا وفي نفس الوقت خائفا أيضا .. فالحيوان الذى يأكل النمل لا يرى إلا هذه الحشرة (١) .

وبصبح الدنيا من أولها لآخرها لا معنى لها إلا اذا كانت على شكل نملة .. واذا اختفى هذا النمل لآى سبب مات هذا الحيوان .. !!

ولأن بعض الحيوانات تخصصت في بعض الطعام ، فإن الطبيعة قد أعطتها نوعا من الحماية . فحيوان القنفذ يستطيع أن يحدث

(١) انظر الطبعة الأولى من كتاب « من أول نظرة » ص ٥١ وما بعدها ..

أصواتا وضوضاء كما يحلو له وهو آمن تماما . لأن له درعا من اللشوك يحميه من الاعداء .. لكن الحيوانات الأخرى التى ليست لها حماية يجب أن تكون فى حالة يقظة مستمرة .. فالإنسان يجب أن يبحث من طعامه فى كل مكان ، وأن يكون البحث واعيا والا مات .

والقرود عندها حب استطلاع شديد . تماما كالإنسان ، ولكن عندما تكبر القرود ، فإن هذا الاستطلاع يتوقف ، ولا يتطور على عكس الإنسان الذى يقوده السؤال الى جواب ثم الى سؤال آخر وهكذا ..

وهناك نوعان من السلوك عند الإنسان : حب الجديد والخوف من الجديد .. فكل شيء جديد ربما كان خطرا .

ولذلك يجب أن يقترب منه باحتراس وأن يبتعد عنه باحتراس أيضا ، ولكن اذا تجنبنا كل ما هو جديد أو كل ما هو مخيف فكيف نعرف أو كيف نتعام أو كيف نوسع مجال الاستطلاع عندنا من أجل العثور على الطعام والوقاية والدفاع والسيطرة ؟ هذه الرغبة فى أن نعرف هى التى تجعل ما ليس مألوفا شسيئا مألوفا ، وبذلك نكتسب تجربة جديدة ، وندخرها ونختزنها ونذكرها فيما بعد ..

فالطفل الإنسانى يريد أن يعرف ، يمد يده الى كل شيء ، ويضع أذنه على كل باب ويلتقط كل ما يدور حوله ، ويجرب ، وقبل أن تصبح هذه الرغبة الشديدة عند الطفل شيئا خطرا يجب أن يتدخل الوالدان .. ونحن نقول عادة من هؤلاء الأطفال الذين يستطلعون كل شيء بشراهة : أنهم يتصرفون كالوحوش .. ولكن الأصح أن يقال : أن الوحوش هى التى تتصرف كالاطفال — أى عندما تحاول الحيوانات أن تعرف وترتقى بمعرفتها يختلط لديها الاندفاع بالاحتراس ..

ومن مظاهر الاستطلاع عند القرد وعند الانسان ايضا : اللعب ، فاللعب عند القرود يشبه اللعب عند الطفل الانسانى ، فالصغار عموما يحيون الشيء الجديد . يمسكونه ، ويرمونه ويكسرونه ، ويخترمون اشكالا جديدة من اللعب وليست لديهم قدرة على التركيز ولا قدرة على ان ينقلوا الى آرائهم معنى الالعاب أو الحركات التى اكتشفوها . أما الطفل الانسانى فيستطيع الى حد ما ، والفرق بين القرد الصغيرة والاطفال الصغار : ان القرد كلما كبرت قويت عضلاتها والاطفال الصغار كلما كبروا قويت عقولهم ..

واذا اعطينا القرد الصغير ورقة وقلم ، فانه يمسك القلم ويرسم به على الورق ، وعندما ينظر الى ما أحدثه القلم على الورق يفرح به .. فهذه الخطوط شيء جديد ، ويظل يرسم بالقلم على الورق ، وأحيانا يرسم دوائر ناقصة .. وأحيانا خطوطا مقطعة .. أما الطفل الانسانى فيهتدى الى الدوائر والمربعات .

والاطفال والقرد يحبون الخط والرقع .. اى يحبون ان يلعبوا بالاشياء التى لها صوت ، وكلما كان الصوت مدويا كان تعلقهم بهذه اللعب أكثر .. يحبون البعب .. والبالونات ومسدسات الفل ..

والطفل الانسانى عندما يبلغ الثالثة من عمره يعرف كيف يرسم الدائرة ، ويرسم الوجه الانسانى وذلك بأن يجعل له عينيْن وفما وأذنين .. ثم يجعل الذراعين والساقين تخرج من الرأس ..

وهذه مرحلة استكشاف واكتشاف أيضا ، فالطفل يستكشف قدراته على اللعب ، ويكتشف أنه قادر على أن يلعب ، ولكنه لا يقدر على أن ينقل هذا الذى يمارسه الى والديه فيقول لهما ما الذى صنعه أو اهتدى اليه ، وانما هو رسم فقط ! .. انه

كالذى وجد قرشاً على الأرض . وراح يلعب به فقط ولكن لا يعرف ان كان هذا القرش له معنى آخر .. أو يستطيع ان يشتري به أى شيء .. أو بعبارة أخرى : ان القرش لعبة ، أى انه يساوى ثمنه لعباً ، أى أن اللعب لذة مدفوعة الثمن فوراً . فهو فى مرحلة اللعب ل مجرد اللعب .

وفى عالم الأصوات : لا نجد أن للقرود الصغير أو الكبير تجارب فى عالم الصوت ، فهو غير قادر على ان يكتشف شيئاً جديداً ، ولا أن يقوم بتركيب كلمات أو حروف ، ولا هو قادر على التلاعب بالحروف والكلمات ، كما يفعل الأطفال عندما يكتشفون قدرتهم على الكلام ، فانهم يفرحون باختراع كلمات أخرى : أى بقلب الحروف ولخبطةها .. انها مهارة جديدة اكتشفوها فى أنفسهم .. وان كانت القرود لها أصوات معروفة ثابتة .

وان كانت لها أيضاً عادة دق الأرض بالرجل والأيدى للتعبير عن الضيق أو الفرح ، ولكنها دقائق معروفة محدودة ، كما أن القرود فى بعض الأحيان تنفخ فى الأجسام المفرغة الخوف .. ولكن القردة لم تستطع أن تجعل الشيء المفرغ عوداً أو ثيثاراً ، ولم تجعل لهذه الأصوات قواعد ومعنى .

ولم تحاول القردة أن تجعل فرحتها منظمة .. أو حركاتها مدروسة كالرقص عند الإنسان . أو كالألعاب الرياضية .. فالرياضة هى حركات ذات إيقاع ، هذا الإيقاع متنوع من لعبة الى لعبة ..

حتى الكتابة هى أيضاً نوع من الرسم ، فالحروف عبارة عن رسوم والكتابة أصلها لعب أيضاً .

وعن طريق هذه الاكتشافات نقلنا أفكارنا الى غيرنا ، ونقلنا أفكارنا من جيل الى جيل ، وأصبح لنا تاريخ مشترك . ثم وضعنا لكل هذه الألعاب قواعد ..

ولا شيء جديد في عالم الحيوان .

ولكن الجديد في عالم الانسان .

فهو دائما يبحث عن الجديد ويتمسك به ، ماذا أصبح مألوفنا اتجه الى غيره ، ولو وقفنا عند الذى نعرفه لتجمدنا وليس الجديد فقط في خطوط الأزياء والتسريحات والسيارات والأثاث ، ولكن الجديد في أسلوب التفكير نفسه فالبحث عن الجديد والبعيد هو جوهر الحضارة الإنسانية .. وهو الفارق بين الانسان والقرود ، او بين القرود العريان والقرود .

واذا رجعنا الى لعب الأطفال لوجدناه موجها الى الآباء في أول الأمر ، فالأب يلعب طفله ، والطفل يلعب والديه ، وعندما يكبر الطفل ، فان اللعب يتجه الى غيره من الأطفال .. أى يكون للطفل نشاط اجتماعي ، فيكون للطفل شلة من الأطفال يلعبون معا ، وهذه مرحلة دقيقة جدا في حياة الطفل وسوف يكون لها اثر خطير في حياته ، فالطفل الذى يحاول أن يعزف على الآلات الموسيقية ويفشل وهو صغير ، سيجد صعوبة شديدة في محاولة ذلك عندما يكبر والطفل الذى يفشل في ان يكون له أصدقاء وهو صغير ، ستصبح الصداقة صعوبة عليه عندما يكبر . واذا كانت علاقة الطفل بالاشياء المادية كالبليانو أو كالثاي صعوبة في الطفولة ، فان علاقته بالأطفال سوف تكون أصعب وأبعد .

والطفل الذى انعزل عن مجتمع الأطفال ، أى الذى ليست له

علاقات اجتماعية ، سيجد نفسه في وضع سيء وسوف تكون علاقاته الاجتماعية معقدة ومرهقة أيضا ..

ومن التجارب التي أجريت على القردة مثلا : أننا إذا عرفنا قردا من القردة الأخرى .. سنة وراء سنة ثم أتينا له بعد ذلك بقرد مائه يظل عاجزا عن المشاركة معها في اللعب أو اللهو حتى في الجنس .. بل انه يفقد رغبته الجنسية تماما ، وقد لاحظ العلماء ان القردة التي تنعزل طويلا اذا وضعت في مجتمع القردة فانها تقف الى جوار الحائط وتدق الأرض برجلها .. واهيانا تخفى وجهها بيديها .. كأنها في حالة خوف أو خجل أو عجز من الاشتراك في أى عمل جماعى ..

وتربية الطفل لها جانبان : تربية داخلية وتربية خارجية ، ولننظر ماذا يحدث في عالم القردة : فالأم تترك طفلها يتعلق بها ، فإذا خاف عاد إليها فالأم تحميه بحنانها وترضعه مكافأة على سلوكه الذى لا يضره ، وهذه هى مرحلة الأمان عن طريق الحنان ، أما عندما يكبر القرد فإن الأم تطرده بعيدا عنها ، لكي يشترك مع القردة الأخرى في اللعب فإذا عاد إليها فإنها تضربه وتقسو عليه .. كأنها تريد أن تقول له : انك كبرت على حضن الأم ، فابحث لك عن حضن آخر ، وفي هذه المرحلة نجد الأم أقل حبا لطفلها . ولا تنطلق لحمايته الا في حالة الخطر الشديد أما اذا لم يكن هناك خطر ، وجاء طفلها الصغير يتعلق بها فإنها تطرده وتضربه، وبعد ذلك يتعلم القرد الصغير أن يبعد عن أمه ، وأن يدافع هو عن نفسه ..

وكذلك الطفل الانسانى تماما ، اذا لم تحسن الأم تربية طفلها في المرحلتين فإن النتيجة سوف تكون سيئة وقاسية ..

والطفل الانسانى الذى يفقد الحنان وهو صغير ، ثم أصبحت

له علاقات اجتماعية بعد ذلك ، فانه سوف يكون عاجزا عن تعميق هذه العلاقات الاجتماعية ..

واذا عرف الحنان في الطفولة وعرف الحماية الزائدة والعناية البالغة فمن الصعب عليه أن يجد التشجاعة على خلق علاقات اجتماعية جديدة ، وانما سيظل كالطفل متملقا بأمه ..

ولا يريد أحدا آخر غير الأم ، فإذا فقد الأم فانه يظل يبحث عن الأم أو بديل عن الأم . وسوف يصدمه المجتمع لأنه بطبعه قاس ، ولانه ليس أما لأحد ..

والانسان الذى يخاف من المجتمع يكون أفسانا انسحابيا أو هروبيا ، وهذا الانسان الهروبى لا يريد أن يعرف شيئا جديدا ، لان الجديد مخيف وهو لا يريد أن يخاف .

فالذى يعرفه أحسن ، وهو لذلك ليس اجتماعيا ، ولا يحب أن يكون وقد يكون له نشاط جسمى ، ولكن نشاطه يجب ان يكون متكررا ، أى لا يأتى بحركات جديدة ، وانما هو أسير العادة التى استراح اليها .

بل اننا نجد الكثيرين من الهروبين لهم حركات ثابتة .. يهزون رعوسهم أو أيديهم أو أرجلهم بصورة متكررة أو يرضعون أصابعهم ، وتكون لكل واحد منهم « لازمة » .. لماذا ؟ لأن هؤلاء الهروبين قد وجدوا البيئة مخيفة ، معادية ، لا ترحب بهم ، ولذلك وجدوا الراحة فى أن يجعلوا سلوكهم مألوما ، مألوما أكثر من اللازم . أى جعلوا أنفسهم مفهومين .. عاديين .. لا يضاف منهم أحد أو لا يلتفت اليهم .. ومن الممكن أن تلاحظ ذلك فى الناس الذين حولك . فالذى يقول عبارات واحدة لا يغيرها فى الرد

على كل شيء هو انفسان (عادى) — اى يجعل العادة تتحكم فيه .
حتى أصبح هو نفسه (عادة) اجتماعية ، لا يخيف أحدا ، ولا
يخاف من أحد ، وهناك مثل شعبي يقول : أفتى : معرفتى ،
وراحتى : ما أعرفش — ومعناه انه لا شيء يخيف أكثر من المعرفة ،
ولا شيء يربح أكثر من الجهل ! ..

ولا بد أن يكون المثل الأعلى عند هذا الطراز من الناس هو أن
يأتى بالأمعال الرتيبة .. مثل نقات القلب فنقات قلاب الأم تريخ
الطفل . وكل عمل يكون متكررا على شكل نقات القلب هو شيء
مريح أيضا . أو هو شيء يجعلنا نخلف من حدة التوتر .

وفى استطاعتك أن تلاحظ من ينتظر مكالمة تليفونية انه يدق
بأصابعه بشكل منتظم أو يهز قدميه .. أو يتحرك فى الغرفة ..
والطالب أثناء الامتحان يضع القلم فى فيه .. أو يلعب بشاربه ..
ويكون ذلك بايقاع متكرر مثل نقات القلب .

وهذه الحركات .. أو هذه (اللازمة) لها فائدة : فهي تساعدنا
على احتمال الشيء الجديد الذى ننتظره فى خوف .

وإذا نحن أسرفنا فى استخدام هذه (اللازمة) فانها تصبح فكرة
متسلطة علينا .. اى اننا نضع القلم فى أفواهنا دون أن يكون هناك
امتحان .. أو نروح ونجىء فى الغرفة من غير مناسبة .. من غير
أن تكون لنا قدرة ارادية على ضبط هذه الحركات والتوقف
عنها ! ..

وهذه (اللازمة) تولد من الملل .. وإذا ذهبنا الى حديقة
الحيوانات وجدنا الحيوانات منعزلة فى أقفاصها الحديدية .. وهى
منعزلة عن العالم الواسع . وعن العلاقات الجماعية .. اى من

الاتصالات بالحيوانات الأخرى ، فهي في حالة انسحاب وانزواء .
كأنها هربت من الحيوانات الأخرى ، أو هربت منها الحيوانات
الأخرى .

ومن الأفضل أن ننظر لأنفسنا ونحن نقف أمام أنفسنا
الحيوانات . . ان هذه الانقاص الحديدية تشبه الموانع النفسية
الشديدة التي نحيط بها أنفسنا ونسحب وراءها ، وننكمش وننطوى
ونتقوقع ونجتز تجاربنا ولا نضيف الى أنفسنا شيئا اجتماعيا جديدا .
وانما نلرز من أنفسنا نسيج دودة الغز وتنسوارى وراءها . . أو
نندفن ، ومن مظاهر هذا السلوك الانسحابى عند الحيوانات : انها
تدور حول نفسها وتثير نفسها جنسيا . . والانسان يفعل ذلك
ايضا فى المعسكرات والسجون والمستشفيات والانسام الداخلية
للمدارس ، ونجد القردة تلعب فى أنفها بأعواد الشجر ، ونجد
الفيل واقفا فى مكانه يهز رأسه يمينا وشمالا ساعات طويلة ،
وبعض الحيوانات تشد شعرها ، أو تمض نفسها أو ترضع نديها .
وقد يكون السبب أيضا هو التوتر الشديد أو تكون انشأة غير
السليمة .

يمكننا أن نقوم بتجربة بسيطة وذلك بأن نلقى شيئا فى قفص
قرد اعتاد أن ينمزل فان هذا القرد لا يحاول أن يتجه الى هذا
الشيء الذى القيناه فى قفصه ، ومعنى ذلك أنه لا شيء يثيره أى
لأشياء جديد يثيره . . واذا كان الحيوان لا يلتفت الى الشيء
الجديد ، فلن يعرف شيئا واذا كان الانسان لا يثيره الشيء الجديد ،
فسوف يظل محدود المعالم ويكون بذلك أقرب الى الحيوان .

واذا ذهبنا الى حديقة الحيوانات يجب أن نتذكر المدن الانسانية
التي نعيش فيها ، انها أيضا مثل حدائق الحيوانات : كل انسان له

تفص ، هذا التفص من أعواد حديدية ، هذه الأعواد هى المنوعات النفسية والاجتماعية وهى تحصرنا وتعصرنا ..

والصحة النفسية والاجتماعية انما تتحقق اذا ما نحن ركبنا عربة يجرها حصانان : احدهما حب الجديد والآخر الخوف من الجديد .. والعقل الانسانى قد علمنا أن نتجه الى الجديد ، بخوف .. أو على الأصح باحتراس . وإذا كان الانسان قد مات بسبب رغبته فى المعرفة . فان الانسان حى لأن بعض الناس مات من أجل أن يعيش غيره ليعرف أكثر وأكثر ..

وإذا نحن نظرنا الى (القرداتى) فماذا نجد ؟ نجد قردا مربوطا فى سلسلة وإذا وقف القرداتى ونحن أيضا ، وجدنا القرد يأتى بحركات من الشقلبة والرقص ، ومعنى ذلك أن القرداتى قد علم القرد أن يأتى بهذه الحركات . أى أن القرد مربوط بسلسلة أخرى هى : العادة على اتيان هذه الحركات ..

مكان القرد مشدود بسلسلتين واحدة تراها وواحدة أخرى لا تراها ولكن هناك سلسلة أخرى تشد القرداتى الى القرد : فهذا الرجل يعيش فى عالم محدود ، عالم القرد ، ويمشى فى أماكن محدودة . ويعود الى بيته ويجلس الى جوار الحائط ولا ينام الا والقرد الى جواره والا على صوته ، ولو قطع القرد السلسلة وهرب لأحس الرجل أن قلبه هو الذى انقطع .. فإى الاثنين هو القرد ؟ أيهما هو المربوط بالآخر .. من المؤكد أن القرد هو المربوط فى الرجل ، ومن المؤكد أيضا أن هذا الرجل العاقل مربوط من القرد .. وبالقرد ..

فليست الحيوانات هي وحدها المحبوسة في أقفاص ، وليس
الانسان هو الذى يذهب الى الحديقة ليتفرج على القروء .. انها
ايضا تتفرج عليه وعلى قيوده التى لا يدرى بها ! ..

فكلما ان هذا الرجل اسمه (قرداتى) فهذا القرد اسمه
(انساناتى) !

وكلنا كذلك !! ..



لولا سلاسلك .. ! سبق كلالك !

لسببين يعتدى حيوان على آخر : دفاعا عن الأرض التى يعيش عليها ، أو حرصا على السلطة التى يتمتع بها فى القبيلة أى أنه يدافع عن السلطة أو عن اللقمة .

وهناك حيوانات تدافع عن الأرض ولا يهمها السلطة .. وحيوانات تدافع عن مركزها ولا تهتمها الأرض . أما الإنسان فإنه يدافع عن الأرض والعرض والسلطة .

وفى جبالية القروى نجد أن القرد الأتوى هو الذى يسيطر . أما قوته نهى فى عضلاته أو فى حيويته . لماذا كانت حيويته هى مصدر قوته فإنه يمتلئ كل الإناث وكل الذكور أيضا . ولكنه عندما يأكل يكون سخيا يترك طعامه لغيره من ضعاف الجبالية !

وكما تطور الإنسان فى علاقاته الجنسية فأصبحت له أنثى واحدة ، تطور أيضا فى ممتلكاته . لكل واحد له شئ يملكه : أرض أو بيت . وقد وصل الإنسان الى هذا الوضع منذ كان الأتوياء من الرجال يسافرون بعيدا للصيد . وكانوا يتركون بيوتهم

وأولادهم . ولذلك كان لا بد أن يتفقوا على قاعدة يحترمها القوى والضعيف وخصوصا الضعيف عندما يغيب القوى . وإذا كان القانون يحمى الضعيف من القوى ، فكأنه يحمى الأتقياء — وهم أقلية — من الضعفاء وهم الأغلبية الساحقة ..

وعندما يشعر الحيوان برغبة في العسوان فإن تغيرات هائلة تجرى في داخله . هذه التغيرات هي نوع من التعبئة العامة لكل قوى الحيوان المختزنة ويأخذ هذا الاستعداد شكلين : قوة تدفعه الى الهجوم وقوة أخرى تسحبه وتمسكه . قوة تقول له تقدم . وقوة أخرى تقول : حاسب !

ومن هذا الصراع في داخله يتقرر موقف الحيوان .

ولكن عندما يتهاوى الحيوان للهجوم يفرز الجسم مادة الادرنايين في الدم وتنشط الدورة الدموية كلها .

فالقلب يدق بسرعة . وينسحب الدم من الجلد والأحشاء الى العضلات والمخ . ويرتفع ضغط الدم . وتزداد الكريات الحمراء . وتصبح للدم خاصية التجلط بسرعة . ويتوقف الهضم . ويجف اللعاب . ويتوقف نشاط المعدة تماما وحركة الأمعاء . ويصعب على الحيوان أن يتبول . ثم إن الكبد تفرز السكر في الدم . وينشط الجهاز التنفسي . ويقف الشعر ويتبلل بالعرق . وبسرعة السحر يختلى التعب . ويحشد الجسم كل قدراته من أجل البقاء . والدم يندفق الى الأماكن التي تحتاج اليه . وإلى المخ لكي يتمكن الحيوان من تقدير الموقف . كما أن سرعة التجلط معناها أن أى جرح سوف يجف بسرعة وبذلك لا يضيع الدم عبثا . ونشاط الرئتين معناها أن الحيوان يسحب كميات كبيرة من الأوكسجين . ووقوف الشعر يعرض الجلد للهواء الذي يقوم بتبريد هذا الجسم الملتهب . ولذلك

لا يكون هناك خوف على الحيوان من درجات الغليان التى يصل اليها !

وكلما ارتقت الحيوانات أصبحت لها عادات وتقاليد أو طقوس فى التهديد . فالحيوان يتقدم ويتأخر ويدور وينحنى . وهذه الحركات تبين كيف استعداد الحيوان للمعركة ، وهى فى نفس الوقت تخفف من حدة الحيوان . . وكثيرا ما انتهت هذه الرغبات العدوانية عند هذا الحد !

وإذا انسحب الحيوان من المعركة بلا قتال أو بقتال ، استعداد جسمه نشاطه العادى . . فريقه يجرى وبوله أيضا !

والتبول عند الحيوان له دلالة خاصة عند الثدييات : فالتبول دليل على أن هذه المنطقة التى يتبول فيها خاصة به . فهو يترك أثره فيها . والكلاب عندما ترفع رجلها عند أحد أمهدة النسر ، فهذا هو المعنى . وإذا كانت الكلاب تفعل ذلك بإسراف فى المدن ، فلأن فى المدن عددا كبيرا من الكلاب . وهذا يثرها ويدفعها الى أن يحدد كل كلب مكانه وأرضه ! وقد اكتسب السيد قشطة عادة أخرى : فله ذيل عريض ، وهذا الذيل يتحرك بسرعة يمينا وشمالا ينثر مخلفاته على أوسع نطاق ممكن . وبذلك يحدد الأرض التى تخصه . وبعض الحيوانات لها غدد تفرز رائحة كريهة . هذه الروائح هى انذار لكل الحيوانات الأخرى . هذه أرض تخص حيوانا آخر . . فاحترس !

وقد اتخذ التهديد شكلا صوتيا آخر عند بعض الحيوانات : النباح والعواء والفحيح والذئير . . وأحيانا الانتفاخ : عند الطيور فلها أكياس هوائية تجعل حجمها أكبر وشكلها مخيفا !

وهناك اشارات للتاهم بين الحيوانات : فعندما يقف الشعر يدرك الحيوان الآخر ان هناك خطرا .

ولذلك فالحيك له عرف والاسد له معرفة تجعل الرأس اكبر . وكذلك العرق عند الحيوانات تكون له رائحة خاصة تؤكد النزعة العدوانية ..

كل هذا يحدث للحيوانات داخليا أما التغيرات الظاهرة فهي ان عضلات الحيوانات تكون في غاية اتقوة والمرونة فالحيوان يروح ويجيء ويدور وبعض الحيوانات لها طقوس في الرقص .

رقصة القتال . أو رقصة الحرب .

فالحيوان يدور حول الحيوان الآخر . وحول نفسه . وهذا الدوران معناه ان هناك توازنا بين رغبته في العدوان وبين رغبته في الامتناع عن ذلك .. وخصوصا عندما يلوى جسده ويحنى رأسه ويدق الأرض بتقدميه !

وأحيانا نرى نوعا من التراجع أو المراجعة . ولذلك يقوم الحيوان بحركات غريبة لا علاقة لها بالعدوان كأن الحيوان قد وضع « غله في شيء آخر » فيأكل مثلا أو يهرش في جسده .. أو يلظف فروته أو يجمع الأعشاب أو الأخشاب كأنه يبني عشًا وهما . وبعض الحيوانات تنام فجأة .. أو تتثائب وتتمدد .

بعض العلماء يقول : ان الحيوان اذا اكل فهو جائع حتما . اذا هرش فان حشرة تلسعه . ومن الطبيعي أن يجوع الحيوان عندما تنبدد طاقته الهائلة في حالة التعب أو العدوان !

ولكن هذه الحركات التي يأتيها الحيوان ليست الا محاولة

لتخفيف درجة التوتر . أو ليست الانوعا من الانسحاب . وقد ينتهى الموت هكذا . وينصرف كل حيوان الى مسيله .. ولكن اذا فشلت هذه الحركات فى تهدئة الحيوانات كان تكون قطعانا كبيرة . وكان يكون هناك زحام على الأرض والطعام والسيادة استخضمت الحيوانات أنيابها وأظفارها وقرونها .. وذيلها يكون كالكرياج .

ولكن من النادر ان يقتل الحيوان حيوانا آخر . ومن النادر ان يفعل حيوان ما يفعله مع فريسته . فالأسد اذا التقى بأسد مائه يضربه ويجرحه ولا يقتله ولا يأكله .. أى أن الأسد لا يقتل الأسد كما يفعل بفريسته من الغزلان .. فاذا انتصر الأسد القوى على الأسد الضعيف اكتفى بهذا النصر . وتركه . لما المنهزم لمعليه أن يؤكد أنه انهزم ! وعليه أن يهرب اذا استطاع .

وهناك لغة للتفاهم بين الحيوانات : من بينها أن ينكمش المهزوم وأن ينام على الأرض ويحنى رأسه ويغض عينيه ولا يذأر .. وأحيانا نجد الحيوان المنهزم يعرض جسمه للحيوان المنتصر . كأن يقدم له احدى يديه .. وقد ينقض الحيوان المنتصر فبعض يد خصمه . أو يضربها . أو يكتفى بهذا الاستسلام .

وبين الثرود نجد الشهبانزى يمد يده كأنه يتسول .. وخصوصا الاناث ، والاثاث تعطى نفسها للذكر . وفى هذه الحالة يتم الاستسلام والسلام وينجسم الموتف والذكور الضعفاء تعمل ذلك أيضا !

وهذا هو قانون الغابة : الحيوان يهزم الحيوان ولا يقتله . واذا استسلم له تركه . وانتهى الخلاف .. وكل هذه التغيرات الداخلية تحدث للانسان . مع مارق أن كل

هذه الاضطرابات تبدو على وجهه . وهذه مزايا القرد العريان —
أى .. الإنسان .

فوجهه يصفر ويحمر .. من الغضب ومن الخجل . أما شعر
الإنسان فلا يقف .. رغم أننا نستخدم هذا التعبير !

وعند الغضب تتحنى الذراع وتجتمع أصابع اليد على شكل
قبضة وهذا استعداد من بعيد . أو تهديد من بعيد . وأحيانا
نضرب المنضدة أو الحائط أو نضرب رعوسنا . ولكن ما نزال على
مسافة من الخصم .

وكثيرا ما نوجه هذا الغضب الى الشخص الذى جاء يخلصنا .
ولذلك نقول : ما ينوب المخلص الا تقطيع هدومه .. والسيدة
التي تكسر الأطباق فى حالة غضب مع زوجها ، لم تقصد تحطيم
هذه الأنية وإنما هى تقصد أن تحطم رأس زوجها ! وهذا بالضبط
ما تفعله القردة فهى فى حالة الغضب تحطم الأضراس والثمار
وجدران القفص !

والسلام باليد هو نوع من الاستسلام . فالذى كان فى نيته أن
يضرب بيده يجدها مفرودة . وأصابعه مترامية . وهى عملية
تحويل الغضب الى تهدة .. وهدوء . وكذلك « الطبطة » على
الكتف تهدة أيضا . وخلع البرنيطة عند السلام تشبه الديك عندما
يخفض « عرفه » والأسد عندما يخفض شعر رأسه .. وخلع
البرنيطة مع انحناء الرأس يجعل جسم الإنسان أقل طولا ، وأقل
صلابة .. على خلاف ما يحدث عند العدوان أو القتل . وعند
العدوان نبخلق فى الخصم . لماذا أفهضنا العين أو نظرنا الى الأرض
كنا بذلك نهديء أنفسنا أو نعلن أن الحالة لم تعد فى حاجة الى
الصدر والترقب . ونحن فى حديثنا العادى لا ننظر الى الخين

نتحدث اليهم طوال الوقت ، وانما فقط في نهاية كل جملة لنعرف
وقع الكلام ..

وكذلك وضع النظارة السوداء على العينين يجعلنا نبدو
متربصين أو عدوانيين . ولذلك فالذى ينظر إلينا من وراء منظار
يجعلنا نشعر بأنه ليس وديا .. فالنظارة عبارة عن عينين مفتوحتين
بلا أجنان ولا رموش !

وقد اكتسبت بعض الحشرات مثل هذه النظارات .. أو مثل
هذه العيون نجد أن العيون مرسومة على أجنحة الحشرات . فإذا
أحسست خطرا نشرت أجنحتها فظهرت هذه العيون لامعة باهرة
رهيبة تخيف أعداءها !

وبعض الأسماك لها أيضا هذه العيون وكذلك الطيور . ونحن
نستخدم الأقنعة ذات العيون . وبعض شركات السيارات تجعل
المصابيح الأمامية ذات أشكال مخيفة . وهذا ضرورى فى الزحام
فى المدن .

بل ان الشركات لم تكف بهذه « العيون المخيفة » وانما جعلت
للسيارات أسماء مخيفة أيضا !

ولذلك فالسلام باليد هو اعلان وقف إطلاق النار من العينين
وتجئء المقلات بعد السلام .. كما نفعل مع رجال الدين أو الآباء -
أما تقبيل يد السيدات فله معنى آخر : فالرغبة العدوانية الجنسية
قد تحولت الى مجرد لمس اليد باليد وبالشفتين — أى الحد الأدنى
من تحقيق رغباتنا الخفية !

ومن الغريب ان الأحاديث بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا
« طفوليا » .. فيحول الرجل الى طفل .. أو يقول كلاما مثل
كلام الأطفال فيكون ضعيفا بطيئا مثيرا للشفقة . أى أنه يحول

نزعاته العدوانية الى نزعات استسلامية أو سلمية .. ويتحول الرجل والمرأة الى أسلوب الحمام . فيشرب الواحد من كوب الآخر .. أو يمسك الواحد بمنقار الآخر : وهذا نوع من التقبيل ! والمثل الذى يقول : لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك مثل سليم وصحيح .

أما « الطبطنة » فلها معنى آخر : نحن نجد عند القرد أن القرد الذى انهزم أو استسلم يقترب من القرد الآخر « ويفليه » .. وهذه « التلية » تهدى أعصابه . وكذلك الطبطنة هى نوع من الاقتراب البرىء .. وقبول لهذا الاقتراب . فلا خوف ولا عدوان !

وفى مواجهة العدوان أو الغضب نقوم نحن بأعمال أخرى لا علاقة لها مطلقا بالعدوان . مثلا نشعل سيجارة . أو نمسح النظارة . أو نلعب فى شواربنا أو ننظر الى الساعة أو نحرك عقاربها . أو نرتب الأوراق التى أمامنا أو ننظر من النافذة . أو نطلب أى رقم فى التليفون . أو نقضم أظفارنا بأسناننا أو نطقطق أصابعنا ..

ونحن قادرون على الكذب بلامحنا ولكن لا نقدر على الكذب بانفعالاتنا أو بهذا النشاط الفسيولوجى فى داخل الجسم . وهناك أناس كذابون محترفون : الممثلون . فهم قادرون على الكذب باللامح وعلى توجيه نشاط الجسم وجهة أخرى لا نقدر نحن عليها فى ظروفنا العادية .

والإنسان لأنه يحرص على أن تكون له أرض خاصة وبيت خاص وزوجة خاصة . وأن يكون خاصا فى كل مكان يشغله ، نجده يضع صورة أولاده على مكتبه أو صورة زوجته . وكذلك يحرص على أن يضع فى سيارته نوعا من العرائس أو الزينات لكى يجعل سيارته مختلفة عن السيارات الأخرى .. ملايين السيارات الأخرى التى

تشبهها . وكذلك السائق الذى يضع عبارات على سيارته من الخلف ومن الجوانب . انه يريد أن يجعلها مختلفة عن السيارات الأخرى .. وإذا سألته لماذا ؟ قال لك : انها هكذا اللطف وأجمل .

ولكن هذا الجواب ليس صحيحا . وانما الصحيح انه يريد أن يجعلها مختلفة . يريد أن يجعلها خاصة به .. ومن الضروري أن نتذكر هنا ما تفعله الكلاب على أعمدة النور . نفس الموقف وأن كان الأسلوب مختلفا فكلاهما — كلانا نحن والكلاب — يريد أن يؤكد انه هنا .. وأن هذا المكان خاص به وحده . وانه مضطر أن يفعل ذلك فى مواجهة الزحام الشديد بين الناس والكلاب !

وهناك تصرفات يومية بسيطة ولكن معناها أبعد مما نتصور .. مثلا عندما نكسر إشارة المرور . ويدركنا عسكرى المرور . فما الذى نفعله ؟ الأفضل أن نتحدث الى عسكرى المرور وأنت فى سيارتك . أى فى مكانك . فى أرضك . فى بيتك . هذا يعطيك شيئا من الطمأنينة . وفى هذه الحالة يحسن أن تجعل أسلوبك متوسطا لطيفا . سوف يجيء العسكرى اليك .. أى الى حدود مملكتك .. وهو مضطر أن يحول هذا الاقتراب العدوانى الى اقتراب ودى . وبذلك تكون أنت وديا وهو أيضا . ولذلك يمكن تسوية الموقف لصالحك . ولكن اذا نزلت من سيارتك ، أى تركت أرضك . وذهبت الى أرضه . فالوقوف فى يده . وهو سيده .. والنتيجة ضدك عادة !

وقد تطورت وسائل الاقتراب من أرض أعدائنا .. ومن أعدائنا فكان لا بد أن يقترب الإنسان من عدوه جدا ليشتبك معه ثم اخترع السهام والنبال ، فأصبح فى الإمكان قتله عن بعد .. والآن تحولت اسهام الى صواريخ وقنابل وفى هذه الحالة نحن لانصيب العدو وانما نقطله .. اما الحيوانات فهى تهزم عدوها فقط ..

رقم الإيداع ١٧٩٣ / ١٩٨٨
الرقم الدولي . ٣ - ٣٠١ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة ٨ شارع سيوتيه المصرى - ب ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)

فهازيرو لوليويوس!
ما كنت العالم البحت.

وراء جنتك فناء
يبيع مليون مصاد!

هاتمه و تعالينا!
هذه القديسات!

هو يسقط
الكثيرين بطيح!

من فوق الجبال
صوتهم يهتف القديس!

قود في كل مكان!

كل شيء في العالم
يكون في حوزة الله!

العقد و السلسلة!
و القديسات!

نظرة التطور!
و التقدير في قلوبنا!

لدينا و غدا و غدا و غدا
نظرة!

كل شيء و انات
يكون في حوزة الله!

كل شيء
اصرافه خاصة!

من يعرف الانسنة كثيرا
يستمع القديسات!

لقد هيروانات
الامر و الله في القلوب!

خوب كل ارض!
نوسا القديس!

لقد هيروانات
الامر و الله في القلوب!

هذه الكائنات الرائعة
في حوزة القديس!

قلوبنا الله بخاتمة
لنضعه علينا باثقان!

لونا المزمع قدس
لندركه السلسلة!

عندما أعلن حوسو
صبر النصارى ضد القديس!

شجرة و امرة تكفي
هزجها و انك تعرف!